

ستانيسواف ستراسبورغر



بائع الحكايات

ترجمة: جورج سفر يعقوب

رواية

دار الآداب

ستانيسواف ستراسبورغر (يان سوبارت)

بائع الحكايات

روايةٌ شعريّة عَبْرَ الثقافات

رواية

ترجمة: جورج سفر يعقوب

دار الآداب - بيروت

بائع الحكايات

روايةٌ شعريّة عَبْر الثقافات

بائع الحكايات / رواية شعريّة عَبْر الثقافات

ستانيسواف ستراسبورغر / كاتب من بولندا

الطبعة الأولى عام 2014
ISBN 978-9953-89-450-8

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com




@DarAlAdab

daraladab.com

صدرت الطبعة البولنديّة مع قرص مدمّج CD نشر في وارسو عام ٢٠٠٩
ترجمه من اللغة البولّنديّة جورج سفر يعقوب

الإشراف النوعي على الطبعة البولّنديّة: بروفيسور مارك جيكان (Marek Dziekan)

صورة الغلاف وهي مأخوذة من الطبعة البولّنديّة: ألبينا هورباتشيفسكا (Albina Horbaczewska)

راجع الترجمة العربيّة: جورج قس ورنا سبليني.

بإشراف المؤلّف ستانيسواف ستراسبورغر الذي وافق على ترجمة النصّ المأخوذ من النسخة الأصليّة

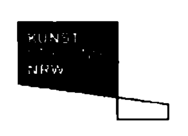
شكر خاصّ لـ:

أغاتا كفيتشينسكا Agata Kwiecinska ويوليا شوماخير Julia Schumacher وتوماش فودزينسكي Tomasz Wodzynski.



صدر هذا الكتاب بدعم مالي من معهد الكتاب البولّندي.

The © POLAND Translation Program



ساهم في تمويل حقوق المؤلّف المنظّمة الألمانيّة:

Kunststiftung NRW

أيّ شبه بين أبطال القصّة وبين أشخاص حقيقيين أو أحداث واقعيّة هو محض صدفة.

سوب ـ أرت

اِهِدِنَا الصِّرَاطَ الـمُـستَقِيِم. صِـراطَ الَّذين أَنعـمتَ عَـلـيْهـم غَـيْرِ
المَغضُوبِ عَلَيْهم ولا الضَّالّين.

قرآن كريم

سليم والأمير صاحب البياض

من فوقي لافتة: بسطة فارغة لبيع حكايات طازجة، حقيقيّة، مُجرَّبة، وماذا في داخلي؟

تعدّد الأصوات إذاً

حكايات تحت الطلب.

إحدى الأماسي في العقبة.

حينها ميريك، لا، لا عفوًا فإنّ يان هو بطل قصّتنا، أمّا ميريك فقد قدِم إلى الصحراء للعمل في مؤسّسة غاز ـ سيك (Gas-seek Inc) أي عند الذين يبحثون عن الغاز الضائع. مسكين ميريك هذا فقد لَخْبَطت هذه الرحلة حياته. واليوميّات لا تقول إلّا الحقيقة. قال يان المؤلّف لـ «يان» الذي هو بطل القصّة له «كريم» ببسطته الفارغة الذي حشر نفسه فبدا كنكتة باردة.

لقد تجسّد.

لكنّ يان هو مَنْ كتبَ الرواية.

أَيكون (بيتر بان) مَن اخترعها؟ رجل مع ولد لا يعرف كيف يتّخذ قرارًا...

يقول يان: قرأتُ عند رشيد من الإسكندريّة ما كتبتْه مليحة من أسمرة عن جميلة من طرابلس.

«مرحبًا بكريمي، كيف الحال؟ أتمنّى أن تكون الأمور عندك أو كي (OK) على أيّة حال فكّرتُ بك اليوم كثيرًا وذهبتُ أخيرًا إلى البيمارستان في حلب، هناك حيث لم يُسعفنا الوقت أن نذهب معًا سأحدّثك عن ذلك في مناسبة أخرى ☺ أيًّا كان فأنا أفكّر بك كثيرًا.

اسْمَعْني: أتمنّى وبحرارة لو سافرتُ إلى ألمانيا أو بولندا أو إلى أيٍّ من هذه البلدان الأوروبيّة الرائعة، لأتابع دراستي. أودّ أن أرى كيف هي الأوضاع هناك وكيف هم الناس وكيف تسير الحياة في أجواء باردة كهذه، لذلك أريد أن أسألك هل تعرف ما يجب فعله كي أجيء إلى هناك وإلى مَن أتوجّه؟

أَسْمِعْني أخبارك، وأنا بانتظار الردّ كما أريد أن أحدّثك عن صديقتنا «جميلة» ستضحك حتمًا. لا أعرف هل أحدّثك أم لا؟ لستُ أشكُّ الآن أنّ هذه الخانم من اللواتي انزلقن، فهي تتواعد كلّ يوم مع رجل آخر، وتأتي باستمرار بالهدايا. أنا آسفة! ولكنْ تبيّن أنّ جميلة امرأة سوقيّة، والأفضل أن تعلم بذلك من البداية. ألا ترى أنّ أنفها يُذكّر بالنَّوَر.

مع حبّي الشديد

مليحة»

كانت مليحة تكتب بالإنكليزيّة كَمنْ يكتب بالعربيّة، دون علامات ترقيم أو حروف كبيرة.

ذهبتُ إلى نادي إنترنيت (C@feinternet) مع سليم، الذي كان على موعد هاتفي أسبوعي دوري مع خطيبته في موسكو. كانت تتّصل حوالى الساعة العاشرة، فكان لدينا مُتسّع من الوقت.

قبل أن ندخل النادي أفرغنا ما تبقّى من البيرة في عبوة الكولا، كي لا يُطالبنا رشيد أن نشرب أمام باب المحلّ، لأنّه لا يملك ترخيصًا لبيع المشروبات الروحيّة. ورشيد هذا كان قد هاجر من مصر، وفي العقبة فتح صالونًا من طابقين للإنترنيت. وضع في الطابق الأوّل صفًّا من حجيرات للهواتف، وفي الثاني طاولات بسيطة فوقها كومبيوترات وأمامها كراسي بلاستيكيّة.

قال سليم:

ـ وإذا تكرّر ما حدث في الأسبوع الماضي.

ـ بالكاد قرأتُ رسالة مليحة الإلكترونيّة.

ـ وإذا لم تسمعني؟

رغم الوقت المتأخّر كان الحرّ شديدًا في الخارج. شربنا قليلاً من البيرة في الطريق. أتعبني الصعود عبر درجات متعرّجة مُهتزّة.

ـ وحتى لو؟ سألتُ بانفعال. لم أرغب أن أسمع شيئًا عن صديقته. فكّرتُ، فليسألْ أحدهم ولو مرّة عن صديقتي! على أيّة حال لم يعد الكذب تلك التسلية التي تفرحني. ولكي يحلّ عنّي قلتُ: ستنجح هذه المرّة.

ما ورد عن الأنف في رسالة مليحة الإلكترونيّة كان مُقلِقًا للغاية.

يا لها من بنت ماكرة. أرادت أن تُنفّرني من جميلة.

ـ قلتُ لك؟ لوبوف عمرها ٣٥ عامًا. قد تكون أكبر من المطلوب... شدّد سليم.

بالمناسبة! ما شكلُ أنف مليحة؟

ـ وما قولك أنت؟

نسيت كيف كان أنفها. كانت مليحة زنجيّة، لذا لا بدّ أن يكون قصيرًا، أفطس.

ـ كنتَ معجبًا بها في الصور...

لا! الآن عرفتُ! قصير، معقوف، فيه شيء من الاعوجاج، حادّ في الأعلى، يرتفع شاقًّا خطًّا يتلاشى عند الجبهة. وقد يكون أنف امرأة سوقيّة... من أين لي أن أعرف؟

ـ أحقًّا؟ وجّهت السؤال لنفسي، قبل أن أوجّهه له.

ـ لربّما في لوبوف عيب ما طالما لم تتزوّج ليومنا هذا.

كنت سأزعل لو تكلّم معي شخص كما أتكلّم معه.

ـ قبل أيّام العشرين، أنت تعرف... هي تكتب لي رسائل رائعة. تُسمّيني حبيبها. ولكن للأسف كلّ شيء بالإنكليزيّة! جرّبتُ نفسي مع اللغة الروسيّة، لكنّ الوقت ضيّق. كيف أتغلّب على ذلك؟ عربيّتها صفر. القضيّة معقّدة... لا يمكنني أن أطالبها. هل تعلم أنّ لوبوف تعني «الحبّ»؟

فليكن له ما يريد. سأحدّثكم بقصّته.

قبل سنة جاء «الحبُّ» في رحلة إلى العقبة، وكان سليم مرشدها في الغوص في الحيد البحري. كان آنذاك يضحك عندما يرى أنبوبًا

ومؤخّرة فقط. وكانت هي بدورها حتمًا تضحك كثيرًا. في المرّة الثانية جاءت خصّيصًا لتراه. دفعت أجرة الغرفة وسكنا معًا لعدّة أيّام. وكما قال لي سليم فيما بعد: كان هذا أسعد أسبوع عِشتهُ في حياتي.

ـ وظيفتها جيّدة في الشركة. صيدلانيّة. اختصاصيّة. دخْلها عالٍ...

أَرَتهُ صور والديها وقالت: عندنا بيت في وسط المدينة، ومزرعة في الضواحي، ويمكننا أن نسكن هناك معًا. لا تشغل بالك في أيّ شيء. ستتعلّم الروسيّة ويصبح كلّ شيء على ما يرام. في النهاية ليس الأمر بهذه الصعوبة.

ووعدتْ لوبوف بإرسال دعوة له.

انفجر سليم صارخًا: وأنا هنا لا أزال خادمًا. أُرشد السيّاح أحيانًا، ونادرًا ما أغوص معهم. كلّها أعمال موقّتة. ماذا تقول؟ أذهب هناك؟ لا أحدَ يعرفني ولا أعرف أحدًا هناك، ناهيك أنّي سأكون عالة عليها. وماذا سأقدّم لها أنا هنا؟ هي لن تتعلّم العربيّة حتمًا. لو كان لي عمل محترم...

ـ أكلْ خرا! قالها وهو يبصق على الأرض.

ـ ما أهون حياة النساء! فهنّ يكتفين بتقديم خُرْمهنّ للرجل مساءً، ولا يشغلن بَالَهُنَّ في أيّ شيء. عبارة عن خمس دقائق لا تحتاج إلى جهد بعدها تتربّع في بيتها بلا وجع دماغ. وعليك أن تفرح إذا لم تمنح خرمها لرجل آخر، مستغلّةً الوقت المناسب لذلك، واستشهدَ بالقول المشهور: العين لا تشبع من البصر ولا الأنثى من الذكر[1]. ستقول

---

(١) لا يضع العرب الاستشهادات والاقتباسات بين قوسين أو يميّزونها بشكل من =

لي إنّ الوضع يختلف في بلادكم أليس كذلك؟ ـ تردّد قليلاً ثم تابع:

ـ أتمنّى أحيانًا لو ولدتُ امرأة، قال بصوت خافت. ـ كانوا سيزوِّجوني لرجل ما، ثم أعيش على نفقته...

ـ كعبد، فكّر... لكن من الذي فكّر؟

كان سليم يهتمّ بمظهره كثيرًا، فهو يحلق ذقنه كلّ صباح بعناية تامّة، تاركًا شاربين رفيعين ينحدران بزاوية قائمة عند زوايا الشفتين ليصلا إلى حنكه. يداه رشيقتان وناعمتان، ويطوّل ظفر خنصره، مردّدًا بأنّه رمز العزوبيّة. بشرته النحاسيّة اللون وعضلات جسمه الخفيّة وشعره الكثّ المجعّد تُذكِّر بشخصيّات الفنّان جيروم (Gerome) التي رسمها مستوحيًا الشرق. أمّا قبّعة البيسبول المقلوبة على رأسه، وبنطال الجينز الواسع المهترئ عمدًا، وقمصانه التي تكشف عن صدره، فتشهد أنّه من المداومين على مشاهدة قناة إم تي في (mtv) الموسيقيّة.

ـ رننننن رنننن رن رن... ـ تلفون.

أسرع سليم نحو الدرج فأخذتُ علبة كوكاكولا وتبعته بتراخٍ.

ـ المكالمة ليست لي لكنّها ستتصل في الحال. يجب أن تفعل ذلك. قال ذلك وكأنّه ينطق بتعويذة سحريّة تجعل لوبوف تقوم بذلك.

خرجتُ. كانت الدرجات التي لم ينته بناؤها بعد تؤدّي مباشرة

الأشكال، وأحيانًا لا يشير المؤلّف إلى المصدر. إنّه نوع من اللعب مع القارئ، بحيث يحرّضه كي يتعرّف بنفسه على الاستشهادات، ليثبت مستواه الثقافي الرفيع. ووفقًا لهذه التقاليد لم أُشر في «بائع الحكايات» إلى الاستشهادات. ولكنّي خصّصت الفصل العاشر والأخير للإشارة إلى كافّة المصادر التي استقيت منها الاستشهادات والاقتباسات، علمًا أنّ الطبعة البولّنديّة صدرت كذلك بالشكل نفسه.

إلى الشارع. وبدلاً من الرصيف كنتَ تجد قليلاً من الرمال الرماديّة اللون قد تكون من التراب المُستخرج من البناء. والعمارة نفسها غير مُجصّصة وتتكوّن من طابقين، تبرز من سقفها الافتراضي تسليحات حديديّة. كان فوق المدخل ضوء النيون ولافتة عُلّقت بإهمال واضح كُتب عليها (C@feinternet).

جلستُ على الدرج. أنعشني الباطون الخشن تحتي، وجُرعةُ البيرة الباردة. مرّة جاء سليم بصور لوبوف. كان الجوّ مظلمًا. تقابلنا عند شاطئ المدينة. وهناك على ضوء مصباح بعيد، انطبع في ذاكرتي وجهها الشاحب، ذو الابتسامة اللطيفة، بنظّارة ذات إطار بلاستيكي، غزاهُ الكِبَر قبل الأوان. ومن تحت فستانها القصير بدت طيّات شحميّة من جسدها. ذات مرّة قال سليم: خدّاها ورديّان وجبهتها أبدًا نهار. ردفها ثقيل وخصرها نحيل وبشرتها رائعة. من رأى ثقلها ومفاتنها المعتدلة، مرّة واحدة، وقع في حبائلها إلى الأبد.

ـ رن ن ن ن رنننننن ـ تلفون.

ـ ألو ألو! لوبوف؟ ـ بدأ يصرخ: دو يو هير مي؟ يي يي يي... أوه آي لوف يو سو ماتش...

نزلتُ من على الدرج. بدا لي أن وجودي قد يضايقه، علمًا أنّ رشيد كان يجلس مقابله. أظنّ أنّي أنا من شعر بالضيق.

قال سليم الذي كان يدوخ بعد كلّ مكالمة معها: لا بدّ أنّها تحبّني كثيرًا. لم تصل الدعوة بعد. واقتصر الأمر على المكالمات الهاتفيّة في كلّ يوم جمعة والتي كانت بمثابة عيد له. لم يجرؤ أن يسألها عن أيّ شيء.

ـ في اعتقادي ما يهمّ هنا هو أنّ المرأة هي التي تحبّ. حقًّا لا

أعرف... لا أرى لوبوف إلّا مرّتين في السنة فقط، لذلك عاشرتُ الكثير من الفتيات في حياتي، أوروبيّات وأميركيّات بل حتى من أوستراليا... سأريك صورهنّ في البيت حين تزورني.. أخذتُ صورًا مع كلّ واحدة منهنّ. سأريك.

ـ كم!..كم هير ماي لوف! آي ميس يو سو ماتش...

وقعت «الحبّ» في الشارع تحت أقدام الشرطة. كانت سيّارتهم الجيب بالكاد يمكنها العبور في الشارع الضيّق. ورغم الماضي العريق للعقبة إلّا أنّها مدينة حديثة. كل جديد فيها كان صناعة أميركيّة (made in USA). كانت سيّارة الشرطة البيضاء ذات التعليق العالي تقوم بدوريّات على الكورنيش البحري، ونظرات الشرطة الحالمة تتبّع الفتيات. لم يكن مهمًّا أنّ هذه السيّارات كانت كبيرة للسير في مركز المدينة الضيّق. لم تتنزّه أيّة بنت جميلة هناك. السيّارات الكبيرة في الشوارع الواسعة تُعجب الفتيات. كُنّ يتمشّين ذهابًا وإيابًا في مجموعات من اثنتين أو ثلاث بنات في شارع النزهات، متأبّطاتٍ ذراع بعضهنّ ويضحكن.

أراد شابّ مُلفّع الرأس استدراجي قائلاً: حشيش، حشيش دو يو ونت؟

ثيابهنّ الضيّقة تفضح تكويرات أجسادهن النافرة بتحدٍّ، وعيونّهنّ متوقّدة مكحّلة بسواد لا ينسجم مع أصواتهنّ المبحوحة المعدومة من أيّة أنوثة.

ـ حشيش حشيش ماي فريند! ـ وقبل أن أقول له لا... شكرًا، كان قد اختفى في الزقاق.

وكان سليم يصرخ من حجيرة الهاتف: ييس بليز ويت فور مي.

المؤذنون يدعون إلى صلاة العشاء. الكورنيش يبدأ يمتلىء بالناس. رجال الشرطة يضعون النظارات السوداء على أعينهم. فيعكس زجاجها قدودًا رشيقةً، كظلال أشجار السرو وهي تتطاول. في المقاهي على الأرصفة، تشتعل النيونات وتبدأ طلائع الزبائن تصل إليها. ويحتلّ الإخوة حُماة الشرف والعرض أماكن لأنفسهم وأخواتهم، مُنادين العاملين في المقهى. وما إنْ تبدأ حلاوة الفراولة تفوح من النراجيل حتّى تتشتّت ظلالُ القدود وتتوزّع على الطاولات المتناثرة في المكان.

قد تلتقط يدٌ فضوليّة الأشباح والأحلام من منامات الرجال.

ـ نعم؟

بسطة. لافتة لبيعِ حكايا طازجة مجَرَّبة حقيقيّة.

مرّة أخرى إذًا. عندما بدأ المؤذّنون يدعون إلى صلاة العشاء، بعدها امتلأ الكورنيش بالناس. دوّت فجأةً قوّة تغور في الأعماق مخترقةً ضوضاء المدينة، فانطلقت مكبّرات الصوت من أعلى المآذن، وملأ هديرها المحيط، وفضح الصوت الجهوري حقيقة المعبد القديم. جاءت البداية حتمًا من مؤذّن واحدٍ، ليشقّ أذانُه الدرب عبر ضجيج المدينة. وبعد أنِ انتظم صوته وبهدوء بدأ الأذان يتسرّب في الفضاء. وما إنْ اشتدّ الصوت المتمرّس، وانتظم تمامًا، حتى لحقت به من مكان آخر قوة أخرى، وهكذا سار وراء المؤذّن الجريء الأوّل بقيّةُ المؤذّنين. وتداخلت ذبذبات الأذانات، فبدأ الواحد منهم يدلّ الآخر على الطريق. من يغطّي بصوته على الآخر ومن لديه مكبّر صوت أفضل؟ وارتجّتِ المدينة من حرارة هذا الجوّ.

ـ حشيش... حشيش؟ ولكن مكبّرات الصوت كانت هي الطاغية.

ـ النجدة! ـ انقسم الخلاء، فهل يا تُرى اقتسم المؤذّنون المدينة فيما بينهم على أساس: صوتي هو الذي يقود حول هذه المنارة، وحول تلك صوتُك؟

ـ انقلع! ـ دويّ المكبّرات نشاز. ولا مكان في العقبة لتعدّد الأصوات.

ـ أنا لا أدخّن ـ قال سليم. لم أنتبه متى جاء. وضع يده على كتفي وتابع: اتّفقنا على الأسبوع القادم، وكنّا نسمع بعضنا جيّدًا. إنّها حبّي الكبير. ـ شممتُ رائحة خمر ـ هل تريد أن نعود إلى الكومبيوترات؟ سأريك شيئًا.

ابتسم رشيد لسليم بدفء.

ـ الحبّ أوّل ما يكون مجاجة فإذا تحكّم صار بحرًا واسعًا...

همس وكأنّه يستعدّ لمسابقة شعريّة.

لم يتعبني الدرج هذه المرّة. قدّم لي سليم كرسيًّا ووضعه أمام الطاولة. دخل على دردشة فظهرت النافذة بعدها، ظهر «بروفايلُكَ».

ـ ما قولك؟ نكتب: قطّة بولّنديّة، قمر، شقراء ١٨٠ سم مكوّرة الثديين تشتاق إلى طبّونات أخرى؟

ـ يعني...

أرسل سليم الأوصاف دون سؤالي، وردّ «الفهد الأحمر» أعندك كاميرا؟

ـ وأنتِ عندك؟ ـ كان سليم قد أطفأ بالطبع كاميرتنا.

ـ وماذا ستفعل لو أريتكِ؟

ـ ألحَسُه لك.

ـ اسمع! يان. أهكذا يكتب بالإنكليزيّة؟

ـ . . .

بعد ذلك قال الفهد الأحمر: افتحي النافذة أيّتها القطّة.

صرخ سليم:

ـ من طيزي! الجميع في بلادكم مُحبطون يتهافتون على دردشة السحاقيّات. أنظر!

كانت في نافذة الفهد الأحمر يد رَجُل تطوّق قضيبًا وتتحرّك بشكل متقطّع بسبب خطوط الاتّصالات البطيئة. بطن مُشعر ملأ الشاشة دون أن ترى ملامح الشخص.

ـ لنذهب، قال سليم وقذف بالكرسي جانبًا.

ـ هل ستدفعون معًا يا شباب؟ ديناران! قال رشيد.

ـ اسمع! استخدمنا جهازًا واحدًا وهذا يكلّف دينارًا ونصف الدينار ـ ثم وضع سليم النقود على المنضدة.

ـ لم تخبراني بذلك قبل أنْ تجلسا.

ـ بلا مشاكل يا رشيد. هذا صديقي ـ وأشار إليّ ـ وهو يتكلّم العربيّة، كما أنّي اليومَ نجحتُ في أن أتكلّم مع لوبوف.

ـ بالعربيّة؟ ـ استغرب رشيد. ـ ما حاجتك للعربيّة؟ اليوم كلّ شيء بالإنكليزيّة. ـ حرّك يده باستسلام وعاد إلى دردشته في الإنترنيت.

دخل سليم إلى دكّان في الزاوية المقابلة، وأشار إليّ أن ألحق به، لكنّي تجاهلتُ إشارته. أردت أن أقف لوحدي.

لوحدي.

أجلسُ مع ميريك. هو وأنا. إنّها مرآة إذًا. والنرجيلة، لم أعد أذكر بالضبط. وأنتَ يا ميريك هل تتذكّر؟

قدمتَ إلى سوريا مع شركة غاز ـ سيك. لم أكن موجودًا نهائيًّا آنذاك. لم يكن أحدٌ هناك مع أنّنا كنّا كلّنا، غير أنّك لم تعرف شيئًا عن ذلك. أو ربّما لم تكن تريد أن تعرف. منذ تلك الأيّام وأنتَ تتقلّب وتتظاهر. الزملاء لطفاء والخطيبة ليست على قدر من الجمال، حفنة من الأصدقاء منتشرة في أرجاء العالم. كانت شركة غاز ـ سيك أوّل عمل لك في الخارج. استعدّيت لذلك، حتى إنّك تعلّمت العربية قليلاً.

الجمهوريّة العربيّة السورية. مساحتها ١٨٥,٢٠٠ كم مربّع، عاصمتها دمشق. يبلغ عدد سكّانها أربعة ملايين نسمة. المدن الكبرى الأخرى: حلب واللاذقيّة وحمص. على الساحل يسود مناخ البحر الأبيض المتوسّط، أمّا في بقيّة المناطق فالمناخ قارّيّ. أكثر من ٧٠٪ من السكّان هم دون الثلاثين من العمر. ويهدف دستور الجمهوريّة العربيّة السوريّة الجديد الذي أُقرّ في سنة ١٩٧٣ إلى بناء مجتمع اشتراكي. يقف رئيس الجمهوريّة على رأس الدولة، وتبلغ ولايته سبع سنوات. ومجلس الشعب هو الهيئة التشريعيّة، بعد حافظ الأسد الذي استمرّ في الحكم منذ العام ١٩٧١ وحتى ٢٠٠٠، استلم رئاسة الجمهورية ابنه بشّار الأسد. والجمهوريّة العربيّة السوريّة بلد زراعي تتطوّر الصناعة فيه تدريجيًا. تلعب الصناعات التعدينيّة دورًا هامًّا وهو غني بالثروات المعدنيّة. أهمّ الصناعات: الغزل والنسيج والصناعات التحويليّة.

كتبتَ:

تشرين الثاني. الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. طارت الطائرة بنا نحو دمشق، ومن هناك، فورًا ركبنا الحافلة نحو موقع العمل. أستغربُ من البرودة هنا. عندما بدأ النهار كنّا نسير عبر الصحراء. مررنا بالمدينة الأثريّة تدمر. لا أثر للكثبان الرمليّة. أحيانًا تُصبح الأرض قاسية للغاية. أتوقّع مشاكل في تحديد معايير التحفيز الفيزيائي. اجتزنا الفرات في مدينة دير الزور وتابعنا باتّجاه الحسكة، حيث المناطق نصف صحراويّة. منطقتنا لحسن الحظّ أفضل. صباحًا سأستلم الخريطة. لقد أنجز الشباب الكثير من الأعمال.

هناك صعوبات في موقع العمل. منذ شهر والأجهزة لا تزال محجوزة في الميناء. استلمنا الرجّاجات، وما زلنا ننتظر سيّارات الجيب. المنطقة تزداد رطوبة. في العديد من الأماكن نستخدم الجرّافات للتنظيف، وهناك مساحات شديدة الانحدار تعيقنا في تحديد المحاور. مستشارنا هناك هو عقيد متقاعد، يساعدنا في تسهيل الأيدي العاملة، ويتوسّط في محادثاتنا مع البدو. السكّان المحلّيّون كرماء للغاية، ولا نستغرب ندرة من يتكلّم منهم باللغة الإنكليزيّة. لغتي العربيّة لا تغني ولا تسمن من جوع، بحيث لا أستطيع متابعة المحادثات، وعندما أقرأ الكتابات واللافتات غالبًا لا أفهمها.

تتذكّر؟

عندما جاءت الجيبات كان عملكم مرهقًا لعدّة أسابيع. حدثت كثير من المشاحنات بينكم وبين الموظّفين البيروقراطيين، أمّا السكّان المحلّيّون، فقد أرادوكم أن تبحثوا لهم عن الماء أوّلاً. عندما سقط المطر توقّف العمّال عن العمل. كانوا مُعجبين بعنادكم، ولكنّ الحقيقة هي أنّ الكفاءات كانت تنقصهم.

كانت الظروف في الموقع قاسية للغاية، رغم أنّ مطالب صاحب المشروع كانت صعبة.

كنت تلعن «تدوير» نفايات القناني البلاستيكيّة فلم يكن في كلّ البلاد مكان لتسليم هذه الموادّ، وجمعتم القناني البلاستيكيّة، وأردتم أن تأخذوها معكم إلى تركيا. نادرًا ما كنتم تستطيعون الذهاب إلى المدينة، وذلك لضيق الوقت. لم تكن في دمشق ولو لِمَرّة واحدة.

تصمتُ.

علاقتكَ مع صاحبتكَ كذلك لم تكن على أحسن حال. كانت خطوط ووسائل الاتّصال مروّعة وبالكاد تعمل. في شهر كانون الثاني أُنشئت على بعد بضعة كيلومترات من الموقع نقطةٌ لأويل أيكو (Oil -eco). وكان العاملون في قطاع النفط يملكون خطوطًا فضائيّة خاصّة بهم. كنت تحسدهم لأنّهم يحصلون على نقود أكثر ويسكنون في حاويات جديدة، وأنتم تسكنون في حاويات مستعملة من قبل الصينيّين.

لم تكترث كثيرًا.

العمل، الزملاء، الزوجة، الإجازة، هذه مواصفات لشخص رتّب حياته بشكل جيّد كما كان يقول لك والدك. الرجل الحقيقي لا يستسلم أبدًا. في أويل ـ أيكو سهّلت لنفسكَ استخدام النيت السريع. فات الأوان. ومع ذلك ليس مؤكّدًا أنّك كنت ستستطيع إيقاف الفراق. فقبل سفرك لم تكن العلاقات بينكما تسير على ما يرام. لقد انتهى كلّ شيء، فلا تحاول البحث عنّي. هذا ما كَتَبتْه لك في آخر رسالة إلكترونيّة.

حرارة الربيع الشديدة قضت على ما تبقّى من مزاجك، وعادت

الشقيقة تهاجمك كما كانت أيّام كنت صبيًّا حين كانت موجات الألم تهاجمك فتستيقظ ولا تستطيع النوم. الأطفال يثيرون أعصابك، وما أكثرهم هنا رغم أننا في صحراء. ترى فيهم حيويّة وفضولاً وتجدهم مهتاجين وقُساة قلوب حين يرمونكم بالحجارة .لا، ليس هذا. أنا أعرف أنّك تحبّ الأطفال. شيء آخر كان يستفزّك هو أنّ الكلّ يعرف العربيّة خيرًا منك. طفل في السادسة من العمر يمكنه أن يجعل منك أضحوكة.

في الموقع ليس هناك من تتكلّم معه. كنتَ الأصغر ولذلك عامَلَك زملاؤك كالآذن «هات وخذ». المدير الذي كان يقترب من الستّين اصطحب معه زوجته الشابّة، وكانت المرأة الوحيدة في الفريق. كنتَ تنتظرُ كلّ ليلة حتى يبدأوا بممارسة الجنس، وتستغرب أنّهما يفعلان ذلك دون أن يحدثا أيّة أصوات.

دعاك العقيد مرّة لعرس ابن أخيه، وصادفت الحفلة في وقت إجازتك. زعلت لأنّك كنت ستعود للبلاد، وهكذا فاتك ترف ألف ليلة وليلة وكم كان قريبًا منك. أصبح العقيد صديقًا لك تقريبًا، إذا أمكن القول هكذا. كنتما تجلسان في غرفته، تشربان الشاي وهو يلقي الأشعار، وتندهش أنّ ضابطًا محترفًا يحفظ هذا الكمّ الكبير من الشعر. هل تدور المعارك هنا حول الكلمات؟

تعلّمتَ معه تدخين النرجيلة. وكنتَ تسمع الأشعار كما الموسيقى، ثملاً من رائحة دخانها العطر، فتغطّ بعدها في نوم هنيء، وكأنّ أمّك عادت لتقبِّلَ ذلك الصبي الصغير وتقول عمت مساء، وكم نادرًا ما فعلت ذلك...

شكّل المعرّي «دانتي» الشرق الأوسط الذي سبق الأخير بقرنين،

كشفًا عظيمًا لك. كنت تحبّ مقاطع محدّدة له وتسمعها لدرجة الملل، وحفظت بعضها بشغف كأنّها مقطوعة موسيقيّة. كما عرفت الكثير عن زنّوبيا، ملكةِ تدمر الفائقة الجمال، وهي المرأة التي فتحت مصر وأرادت الوصول إلى أرمينيا، مناهضِة بذلك إرادة روما، فقضى عليها القيصر ماركوس أوريليوس، ومن أمَةٍ صارت فيلسوفة تزيّن المحافل. إنّها المناضلة من أجل حرّيّة الشرق الأوسط، كما كان يردّد العقيد.

كان يحبّ ويفضّل المباريات الشعريّة على غيرها. كان ذلك في غابر الأزمان، قبل النبيّ محمّد. قد يكون في زمن زنّوبيا؟ كان الناس الشعراء ـ المحترفون منهم والهواة ـ يتجمّعون في شوارع المدينة الضيّقة مرّةً كلّ سنة ليقفوا في مواجهة بعضهم بعضًا. ويختلط المكان طبعًا بالمخادعين. كان الناس يتركون أعمالهم ليستمعوا للأشعار ويختاروا منها ما يريدون، فإذا ملّ أحدهم من سماع هذا الشاعر تركه وذهب إلى مكان آخر. في نهاية المطاف يبقى شاعران فقط يتباريان للفوز. بعد هذا كلّه كان العالم يبدو وكأنّه يبدأ من جديد.

تكتبُ.

أشاهدُ في التلفزيون بصحبة جيولوجيّ فيلمًا وثائقيًّا عن اكتشاف حقولٍ للنفط جديدة ممّا يغيظني. لم يفكّر أحد بعمل فيلم واحد عن الغاز! فجأة تقاطعكَ الدعايات بصوت مرتفع. أغلقُ هذا الصندوق. الجيولوجي يشخر على كرسيّه. على الطاولة كتاب لـ «ناوكوفسكا». أقرأ فيه:

كان «فيتيك» ليلَ نهارَ معلّقًا تقريبًا، فقد ربطوه بسلسلة وسلك طويل، يمتدّ من الأعلى فوق الباحة من جهة السياج وإلى اليمين منه حيث يوجد باب خارجي يؤدّي إلى سقيفة خشبيّة في الزاوية اليسرى

من الباحة. وكان فيتيك يقضي أيّامه إمّا مستلقيًا في وِجاره الخشبي المناسب لهذه السقيفة المُعدّة للأخشاب والأدوات وغيرها من الخردوات، وإمّا في أيّ مكان على الأحجار الممتدّة على طول السلك الذي يشكّل حدود حياته. كان يستلقي إمّا متكوّرًا على نفسه أو مسترخيًا على بطنه، وإذا كان الجوّ حارًّا فعلى جنبه، يبحث عن البراغيث في مختلف الأماكن من وبره. كان يحكّ نفسه، ويراقب، ويشتمّ، ويُصغي، فمرّة تنتصب أذناه ومرّة ترتخيان على جسده. ولسبب لا يعرفه إلّا هو ينبح أحيانًا، بلامبالاة وخمود، وأحيانًا يعوي بصوت متهالك جهير. ظاهريًّا كانت مشاغله كثيرة، فعليًّا لم تتغيّر حياته عبر الأيّام والأسابيع والشهور والسنوات وبقيت رتيبة عقيمة. عندما كان كلب البيت الأبيض المَرِح «إسبينتر أصيل» يركض في الباحة، كثيرًا ما كان يقترب من وجار فيتيك، فيذوب الأخير سعادةً، ويبدأ بالمداعبات، فيهبط على يديه الأماميّتين، ثم يزحف محرّكًا ذنبه، ومُقرّبًا بوزه من بوز الكلب الآخر لكي يتيح له أن يعضّه، غير أنّ «لولو» سرعان ما كان يملّ، فيبتعد عنه عدّة خطوات، لاهيًا بشيء آخر، فينطلق فيتيك يجاريه، ويركض لِلَحظة ناسيًا قَدَرَهُ، إلى أن يشدّه السلك فيقف على رجليه محشرجًا ومحرّكًا يديه في الهواء. كان دائمًا ينسى أين تنتهي حدود إمكانياته. هذه الحدود التي كانت دائمًا تفاجئه.

هل تتذكّر؟

قبل الجيوفيزياء بدأتَ بدراسة الأدب، غير أن والدك استمرّ ينفّرك حتّى غيّرت الدراسة. كان مهندسًا، وأراد لك أن تعمل في شركته. كنتَ في المدرسة في الفرع الأدبي تحب مدرِّسة الأدب كثيرًا. حين جاءت المناوبات غيرت قرارك، وبدلاً من أن تعود للبلاد، قضيتَ إجازتك هنا. وهكذا انتصر الشعر في المعركة.

كفى! هذه الرواية ليست سطلاً تَصبّ فيه غسالاتٍ من الخَبَايا.

منذ قليل كنتَ تستذكر العقبة. في يومياتك لا مكان للماضي. انضباط والدكَ: المحبرة والمسطرة على ورق ناصع البياض، أية بقعة مهما كانت يا بني تجعلك تبدأ من جديد. قضت أمّك عمرها مع هذه النظافة. كانت تردّد في لحظات تنضح حنانًا لا يندثر: آه يا صغيري بيتر رغم الثلاثين من عمرك لم تنضج بعد.

يان موجود.

لا، عفوًا... ألم يكن ميريك من سافر للصحراء للعمل هناك؟ «غاز ـ سيك (gas-Seek)» أي في البحث عن الغاز الضائع... كنت تحبّ التفتيش والبحث منذ طفولتك. أتذكر سباق العيدان التي كنتم ترمون بها في النهر أنت وزملاؤك؟ كان أمامكَ متّسع من الوقت في العقبة. عندما يشتدّ الحرّ لا تتحرّك أعضاء الجسم إلّا في حدود الضرورة. كتابة عربيّة صغيرة إلى اليمين، من اليمين إلى اليسار، أمّا كتابتك فمن اليسار إلى... يا لك من مخربش. بالكاد قرأت يوميّاتك.

هذا لست أنا، لأنّ يان إنسان غيرُ مُبالٍ.

على الورق ما شاء الله ما شاء الله بدأت تصوّر نفسك كما تتمنّى أن تكون.

عن الأيّام الأولى في حلب كتبت هكذا:

اشتريتُ الخرائط، وحصلتُ على كُتيّبات سياحيّة في نقطة الاستعلامات السياحيّة، قرأتها جميعًا وزرتُ كلّ شيء بالدّور. في النهار كانت الحرارة تشتدّ أحيانًا، رغم أنّ الربيع لم يبدأ بعد. ذهبتُ إلى بلدة صغيرة اسمها معرّة النعمان، حيث وُلد المعرّي، ذلك الضرير

الذي قضى كلّ حياته فيها، عدا زيارة قصيرة قام بها إلى بغداد. عند قبره قابلتُ العقيد. وكما علمتُ فإنّ أقرباء له يسكنون هنا، وهم سيقيمون العرس. أخبرته أنّني سأحضر العرس ففرح كثيرًا. ودّعته بسرعة لأنّي كنت مستعجلاً للسفر إلى منطقة «المدن المَنسيّة»، نظرًا لعدم وجود فندق في المعرّة، ولكي أنتهي من هذه الزيارة قبل حلول الليل ولألحق بالحافلة التي تسير إلى حلب.

ازدهرت المدن المنسيّة في المرحلة البيزنطيّة، ولا تزال البيوت والحمّامات العامّة والمعابد قائمة ليومنا هذا، وهي تسبح في هواء يرتعش هنا وهناك، فتبدو مليئة بالغموض. استغربت أن لا أحد يبحث عنها هناك... ما أنتم إلّا مجموعة من الركام المخادع، لقد كشفتُ حِيلَتَكم! عليَّ أن أشقّ الشعاب بنفسي، رغم الحرارة العالية...

فيما بعد زرتُ المدن المنسيّة مرّات عديدة. وقمت على مهلي بإزالة الغبار من على زجاج خزانات العرض في المتحف هناك، حيث تدمع العيون جرّاء الكتابة اليدويّة تحت التُّحف المعروضة، وكنت أحيانًا أفهمها. كان وقتًا مُتعبًا. ظهرت بثور على وجهي وتحرّقات على قدميّ، ويداي كانتا دائمًا وسختين. في المساحات الفارغة داخل المتاحف كان الحُرّاس يحملقون بي وكأنّني من المرّيخ.

ومع مرور الوقت كانت الأسرار تفلت منّي. أشياء يعلوها الغبار... آه كم ارتحتُ عندما خرجتُ من المتحف. قمتُ برحلات إلى حيث كان سمعان يقف على عموده، وإلى بازيليكات بيزنطيّة ومساجد الخلفاء الأُوَل، وجسور رومانيّة وطُرق ورعاة يتكلّمون معه وكأنّهم يصيحون على أغنامهم، وكان التلفزيون بدوره، النافذة الوحيدة على العالم. الرؤية هناك دائمًا أوسع وأفضل. يعرفون كيف يصيغون ويزيّنون الواقع.

أمام الكاميرات تنتعش الباحات الخَرِبة بخرير النوافير، وتُصبح الشوارع الميّتة واحاتٍ باردة، وكأنّما بفعل سحريّ تنفتح الصالات. «نعتذر ـ تصليحات». ويتلطّف قارئ بترجمة الوصف، وتُنارُ التحف بشكل جيّد. دَرَجات على قوائم، ورائحة كريهة محلّيّة أفضل من أنقى هواء غريب.

المعركة الحاسمة جاءت قبل نهاية الإجازة. صَمْتُ الأشياء دفعني نحو الرتابة اليوميّة. تُرى هل يلقي العقيد أشعارًا على شخص آخر؟ الشعراء الخونة! ومع ذلك، هكذا هي الحروب. تضيع الحقيقة حين تُنتشَل من الزمن والناس الذين ترثهم. ضوء بنفسجي لصندوق على خزانة يداعب الخيال. استيقظت يومًا وأنا أشكر المتاحف لأنّها لم تختزل نفسها في عرضٍ ملوّنٍ وحيد بعد. وشكرت الخرائب الأثريّة لأنّها لم تسمح بأن تُطوَّق من كلّ مكان بشبكةٍ من إشارات المرور متعدّدة اللغات، ومحلّات لبيع التذكارات. أيوجد من يهتمّ بماضٍ تبوّل عليه حيوانات المنطقة؟

من المؤسف أنّ الأحابيل خدّرت يقظتي. بدأت أبادل الرعاة أطراف الحديث، كما كان حرّاس المتحف أيضًا يودّون محادثتي، وكنّا بطريقة ما نتفاهم. ها هي ذي معارفي الإنسانيّة تأتي أُكلها... ثم قبل السفر أخذت لقاحات وفقًا لتعليمات المركز الطبّي للأمراض الاستوائيّة، وكنت قد عَلَّمْتُ في الاستمارة على «احتكاك مباشر مع سكّان البلاد» وعلى «إقامة خارج المراكز السياحيّة» والأهمّ من كلّ ذلك «وسائل النقل والفنادق المحلّيّة» وعلى أثر ذلك يأخذ المرء كمّيّة أكبر من اللقاحات.

وداعًا أيّها الانضباط وأهلاً بالباندورا!

ولكن كيف؟ هنا: الحرارة شديدة. نرجيلة. فندقي. رنّة وطنّة! روائح. عربيّات ذوات أجساد تُجاري الأرابسك في جمالها... أعرف كلّ شيء ولا أفهم شيئًا لأنّ... القالب المُخاتل لا يريد أن يتكيّف معي. لا فائدة من الخرائط مع كتابة الأسماء بالأبجديّة اللاتينيّة. لم تُخَطَّط الأزقّة الملتوية على شبكة من المستطيلات، علمًا أنّ كلمة السمت عربيّة.

فعلاً. قرّرت أن أسجّل في دورة للغة العربيّة.

قال المعلّم لي في أوّل درس: اسمع! كلّ هذه التعابير «انعطفْ عند الشارع الثاني إلى اليسار، اذهب مئة متر إلى الأمام» هي من اختراعاتكم، ونحن في اللغة العربيّة نستثقل ذلك. ولِمَ نتذكّر الخرائط؟ الأسهل وبكلّ بساطة أن تذهب إلى المكان. المشوار برفقة شخصٍ متعة، أمّا الوصف فليس من باب الأدب... وكن حذرًا عندما تسأل عن المسافات. لا يُقاس طول الطريق عندما تسير وحيدًا. عشر دقائق للدردشة، وعشر دقائق على انفراد، هما وقتان مختلفان تمامًا.

بدأتُ بالاستماع.

كنت تشتمُّ وتتذوّقُ، لأنّك تحبّ الطبخ، وهي الهواية التي توردها كلّ مرّة في سيرتك الذاتيّة. ورغم اللقاحات، الأحسن أن لا تأكل الخضار والفواكه أو اللحوم فهناك احتمال بالإصابة بعدوى جرثوميّة في جهاز الهضم. ها ها ها! المطاعم على زوايا الطرقات مُغرية وكذلك بيّاعو العطور في السوق وبائعو الخضروات. هناك شيء من الوحي في الثرثرة مع سائق التاكسي.

كنت أمشي مرّةً في أحد الشوارع، فإذا بهم قادمون وهم يجرّون سلكًا ويحملون مصابيح وميكروفونات. إنّهم المكتَشِفون العظام

بكاميراتهم. كش! كش! لهؤلاء المُحَنِّطين المُقرفين. تجوّلوا في المقابر. يا أنتم يا... ناكحيّ الموتى أنتم يا...! سأنزل عند موقف «الرتابة اليوميّة» وما أطيب الرائحة النَّتِنَة في زاوية أثريّة قديمة!

ـ يا يان! ما معنى وقفتك هذه؟ ـ للمرّة الثانية لم أنتبه متى جاء سليم.

ـ شَردتُ...

ـ أنتَ بشرودكَ هذا... لا ترهقْ نفسكَ! وما الفائدة؟

حرّكتُ كتفيَّ غير مبالٍ.

وصلنا إلى الشاطئ في صمت، حيث نادرًا ما يأتي الناس هنا مساءً. رغم رطوبة الرمال، كان الهواء منعشًا مُفعمًا برائحة البحر. كنتُ أحبّ هذا المكان لأنّ لخبطات المدينة لم تصله.

ـ بصحّتكَ!

بُف! واندفعت رغوة من العلبة واندلقت على أصابع سليم.

ـ بصحّتك أنت.

ألواح من سفينة مقلوبة رأسًا على عقب، بدأت تتآكل من الأملاح. جلسنا على عارضة وقد لففنا أرجلنا، لم يكن المكان مريحًا، ولكنّه جافّ على الأقلّ.

يقول ميريك في يوميّاته:

شاطئ المدينة في العقبة تسمية تثير السخرية. رقعة صغيرة من الرمال محشورة بين ميناء صغير لليخوت وألسنةِ كاسر الأمواج التي تحجب حديقة أحد المطاعم المعروفة. قوائم المظلّات نَسيَتْ أيّام ازدهارها. سعف النخيل الجافّة تتناثر على الأرض والطاولات

البلاستيكيّة في كلّ مكان، كما الصراصير الزاحفة على الشاطئ. تضمّ المدينة من الغرب نهاية الخليج وتمتدّ شمالاً نحو الأعلى باتّجاه عمّان. الأحياء الجديدة تقع في عمق البرّ بين الطريق القديمة والطريق الجديدة، أي بين الحدود مع إسرائيل والسلسة الثانية من الجبال. ميناء نقل المسافرين وميناء نقل البضائع يقعان في الجنوب، قريبًا من الحدود السعوديّة، حيث تمتدّ شعاب المرجان. يتجاوز الكورنيش أوّلاً مركز البلد الواقع إلى يمينه نحو الأعلى، ويستمرّ بالقرب من اليخوت ليلتقي بالطريق الجديدة. أمّا المنطقة الملاصقة للبحر فتلفّها الفنادق الراقية وتشقّها أماكن خاصّة بمسابح مغلقة، وإذا تابعنا السير سنصل إلى إيلات، ولكنْ هذا ممنوع.

البيرة لذيذة، أليس كذلك؟ هسس... هسْ. عفوًا. كنتُ ذات مرّة في إيلات، وقد أعجبتني. ـ كان سليم يفصفص بزر عبّاد الشمس. أودّ لو تمكّنت من تفصيص البزر مثله. ـ الأحياء اليهوديّة نظيفة وحديثة، للغاية، فإن ملكتَ النقود يمكنك شراء كلّ شيء، غير أنّ الناس على عكسنا ليسوا لطفاء... منطقة تجارة حرّة. جميل أن توجد منطقة يمكنك شرب الخمر فيها. أتدري أنّ الشرطة في عمّان تعتقل السكارى من الشوارع؟ سيعتقلون كلّ العقبة إذًا... ها ها ها. اليهود عند نقطة الحدود مُتعِبون جدًّا. فتّشوني لمدّة أربع ساعات. حمقى! هل شكلي شكلُ إرهابيّ؟ لن أذهب إلى هناك. أكنت هناك يومًا؟

قلتُ: لا. سأعود إلى سوريا. إذا ختم لي جماعتُكَ أو اليهود في جواز السفر، لن أدخل سوريا مهما حاولتُ...

ـ تا تا تل خذْ تفضّل.

كان البزر دائمًا في جيب سليم. كنتُ أكثر ما أفضّل بزر القرع المحمّص، لكنّي كنت أفشل في تفصيصه. فكلّ حركاتي كانت ثقيلة مصطنعة، في الوقت الذي كان هو يمدّ يده إلى جيبه ليأخذ بزرًا بحركة رائعة تصل إلى درجة الكمال. وعندما تتوقّف فوضى هذه الحركات تظهر للعيان صوفيّة واستسلام تلك الحركة لتكشف عن ثقافة، طالما علمت أنّني لن أتمكّن منها.

تفو... قضمتُ القشرة. خجلت أن أنكش أسناني أمامه.

مرّة أخرى: كانت يداي وسختين دائمًا.

قال سليم: تاااا.... السوريّون.. أنا شخصيًّا بدّلت جواز سفري. في مصر أيضًا لا يحبّون الأختام الإسرائيليّة. لا توجد موانع قانونيّة ولكنّهم لا يحبّونها. في سوريا نعرف مُسبقًا...تفوو... بزرة فاسدة. ـ وسبحت قشرة بزر على سطح موجة كسلى. تبخّر الماء بسرعة وخلّف وراءه خيوطًا من الملح بلّوريّة تمحو الحدود مع سيناء.

حزام ضيّق صحراوي محشور بين العقبة وإيلات هو الذي يفصل بين الجبال في إسرائيل والجبال في الأردن. تبدو المنارات اليهوديّة ليلاً كضاحيةِ ميناء مَلَكي؛ وعلى البطاقات السياحيّة الأردنيّة تبدو كخلفيّة ملوّنة على صورة قديمة، تغري بعبور الخليج سباحةً لتذوّق البهرجات الغربيّة.

في الوقت ذاته في الصحراء يختبئ القنّاصة وحقول الألغام. في الخليج تُسيَّر دوريّات من قوارب مدنيّة، والقمم مغطّاة بشبكة من الدشم. من التلّ اليهودي كورنيش تنحدر فيه صفوف كثيفة من المصابيح. وعندما تنعطف سيّارة تنزلق خيوط الهالوجين على سفح التلّ. كنتُ ألاعب سائقي السيّارات بلعبة «الغمّيضة» وأحدّق بصفوف

المصابيح، وكأنّما أنظر جانبًا، وأنتظر حتى يظهر خطّ أصفر يكشف عن السيّارة التي تنحرف عن طريقها. كنتُ أربح مرّة بعد مرّة وأخدع ضوء المدينة الشرقيّة.

قاطع سليم تسليتي قائلاً:

ـ اسمع... أتريد؟ لنذهب للعشاء عندي.

ـ لا. لا أريد إزعاجك...

ـ لا تقل هكذا. أيّ إزعاج هذا. لدينا ما نأكله.

ـ هل أسّست أسرة؟

ـ نعم، لي أخ أكبر منّي وأختان، علمًا أنّه في النتيجة فإنّ... ـ وتردّد في إتمام الجملة. كانت موسيقى شرقيّة صاخبة تأتي من المطعم. ـ لا شيء في بيتنا تقريبًا. هذه المأكولات تبعث فيّ الغثيان، فأنا أتناول من إعداد أمّي، الوجبة نفسها مرّتين في اليوم: حمّص وبيض وجبنة. سامحني ولكن لن تأكل شيئًا آخر.

يقول ميريك في اليوميّات: من الضروري أن نأكل الحمّص مع الصنوبر، ولا بدّ أن تَتَمَزْمَزَ به مع الخبز العربي والمخلّلات والبصل والنعناع.

ـ رائع! أعشقُ الحمّص. قلتُ.

ـ إيه... إيه الأسطوانة نفسها دائمًا... أتتصوّر هذا؟ ـ ماذا كنتم ستفعلون لو قُدّم لكم الحمّص والبيض والجبنة التي تعدّها أمّي يوميًا؟

ـ هسسسس!

الأمير الأبيض مُفيد ونقيّ كالحليب. كشْ... كش! رشفة بيرة

واحدة باردة أجبرت المُدلّس ليُهرع للمراحيض.

في الوادي بالقرب من البحر هناك مطار إسرائيلي مُمَوّه، وكلّ بضع دقائق ترى طائرة تعود من جهة سيناء لتهبط في المطار. وعندما تكون الطائرة دون ارتفاع الجبال تذوب أضواؤها العاكسة على خلفيّة أضواء المدينة، ثم تختفي الطائرة. كنت أخاف من أن تتحطّم الطائرة.

ـ هل عرّفتَ لوبوف على والديك؟

هبوط الطائرة التالية هدّأ من أعصابي.

ـ لا...

في المرّة القادمة سأفعل.

ـ لستُ راضيًا عمّا أقوم به. أتسكّع مع السائحات، ممّا يدرّ عليّ بعض النقود. على أيّة حال أنا لا أتكلّم معهما عن ذلك. لن يفرّقاها عن غيرها. انتظر سأجلب بيرة. عندك فراطة؟

ـ نعم، هاك. واشترِ أربع بيرات. قلت لسليم ذلك وهو يبتعد.

في العقبة تحدّثت عن الأيّام الأولى في حلب هكذا:

رغم الغبار ازدادت معارفي كثيرًا، ولكن هذا يتعلّق بمن نقارن. فالرعاة لا يهتمّون بالدراسة، وبدلاً من ذلك يرعون الأغنام... خروف واعٍ... هو عِزّ الطلب. الناس حينها سينفتحون كشقٍّ يطلّ على عالم الغرائب، وهناك كنت سأكتشف الكثير.

الاحتكاك بالثقافة والمثقّفين والتعرّف على طريقتهم في التعبير، لا يحتاج إلّا لمَلَكة القراءة، وفي ذلك شيء من الإستمناء لأنّكَ تقوم بجهد معتدل دون مخاطرات عاطفيّة. وحين تذوب رغوة الصابون من اليد، يمكننا الانتظار لحظةً لنبدأ مرّةً أخرى. السفر الحقيقيّ لقاءٌ،

كالحبّ يهزّنا لحظة الفراق. والنشوة والهزليّة تشكّلان في السفر نصفي قطعة واحدة، قطعهما المُدلّس.

وعلى عكس ما يتوقّع المرء فإنّ إقامة علاقات مع الناس لم تكن سهلة. التشوّق للمعرفة شكّلت حجّةً لاستدراج الغَرَابة.

ـ مرحبًا صديقي... كيف الحال؟

ـ كذا... وكذا.

ـ أوه... حسنًا! من أين أنت؟

ـ من هنا... وهناك!

ـ بعيد جدًّا! منذ متى أنت هنا؟

ـ منذ ومنذ!

ـ مدّة طويلة! وماذا رأيت؟

ـ هذا.. وذاك!

ـ آه! شاهدت الكثير. أعجبك؟

ـ جدًّا جدددددددًا!

ـ ممتاز! عندك زوجة؟

ـ ؟؟؟

ـ إيه! لماذا؟ هل تحتاج للمساعدة؟

إلى أيّة نتيجة يؤدّي لقاء كهذا؟ عندما تشتدّ الحرارة لا يقوم الجسم بجهد إلّا في حدود الضرورة.

على مسؤوليّتنا الخاصّة، وبأيدينا... عفوًا ليس الآن وقت الأيادي. كانت هذه فكرة كريم. استمعْ وشُمْ وذُقْ.

لباقة أحد المارّة بدت وكأنّها صوتُ نبع صغير أمام كاميرات التلفزيون. طِيبَةُ الخاطر المنمّقة تُستَنفذُ ما بين اللقب وجدول الرواتب الذي يظهر على الشاشة بسرعة. يمكننا أن نمرّ معًا على أن نفترق بسرعة.

في حلب كنت مُحاطًا بالرجال من البوّابين والطبّاخين وسائقي سيّارات التاكسي والباصات والرعاة والباعة والنادلين والحرّاس. كانوا جميعًا يحومون كسحابة من ذباب ثقيل الظلّ حول جسد يتصبّب عرقًا.

هل تتذكّر؟

في سيّارات الأجرة:

ـ أنتَ وسيم للغاية، وأنا مُعجب بك.

ـ هذا من لطفك، شكرًا يكفي، سأتابع مشيًا.

في غرفة قياس الملابس:

ـ أنْ يسافر المرء لوحده دون امرأة شيء شاقّ، أليس كذلك؟

ـ أتدبّر أمري بشكل من الأشكال.. والآن أريد الخروج فافسح لي المجال.

وعندما كنت أريد أن أظهر شيئًا من اللطف أقول إنّ خطيبتي تعمل ولا تستطيع أن ترافقني.

آخ! شيء مُزعج حقًّا. أنتم هناك في بلادكم تعملون كثيرًا... على أيّة حال لا تُعتَبرُ خيانة، عندما تكون غائبة. لِمَ نجعل من الرغبة الجنسيّة مصدرًا لعذاباتنا؟

الكثير منهم كان متزوّجًا ولكن لا أحدَ بينهم يرى في نفسه مِثليًّا. مكياجهم ضلّلك في معرفة ميولهم الجنسيّة. حتى العقيد كان ينتف

حاجبيه. تمتّعوا بالغلمان فلن تستطيعوا ذلك في الجنّة. تذكّرتُ الشعر الذي كان يردّده العقيد.

في إحدى الأماسي شربتما الخمر كثيرًا... وحصل... طيز الغلام ليس طبونًا. إذًا لا خيانة هنا... العلاقة الغراميّة مع الرجل لا تُحسب علاقة... ولا أحد يسمّيها هكذا، بل لا اسم لها أصلاً. هي موجودة من غير اسم! وحتى هذا قد يكون من وحي الخيال. قل لي بربّك هل تفكّرُ عندما تكون لديك الرغبة؟

وبدأت الشكوك بالازدياد. ألم تكن المصافحة أطول من اللزوم؟ أكان ذلك مصادفة؟

وداعًا أيّها الانضباط وأهلاً بباندورا!

في البداية ظننتَ أنّ الحياة اليوميّة قد عرّت أحكامكَ المُسبقة، فقد بحثتَ عن الغرابة. التعارف مع الرجال غالبًا ما كان يتمّ على نسق متشابه، ويبدأ من التعاطف معكَ بالقول: السفر ليلاً وحدك معاناة مخيفة، ثم يأتي دور الإثارة: أيّ متعة يجدها المرء باستخدام يدٍ واحدة، وأخيرًا يعرض عليك: أستطيع أن أخفّف عنك. طيّب... طيّب، لم أُعجبكَ على ما أرى. عندي زميلة جميلة، لا يُمكن مقاومتها... كش... كش! لم ترغب أن تقوم تلك الزميلة الجميلة بالتنفيس عنك.

العديد من الرجال كان يتصرّف معكَ وكأنّك امرأة، ولم يخلُ الأمر من المتعة، وهم يتقرّبون إليك بهداياهم وتمنّياتهم، كأن يقولوا: أتريد أن آخذك إلى مكان مُشوّق، حيث ترى من القمّة بانوراما رائعة للمدينة، بعدها نذهب للعشاء. زوجتي طبّاخة رائعة. كانت البانوراما ساحرة والعشاء والزوجة. لطف منك أنّك استجبت للدعوة، هل

تزورني في الدكّان غدًا؟ أنا بانتظارك...

ـ أنا هنا! ـ قال سليم وهو يدْعكُ العلبة وتابع، هل أنتَ مستعدّ؟ لنذهب.

انحدرنا من الشاطئ بحافلة لشركة «سفريات شرق الأردن» تاركين البحر وراءنا. مبنى الشركة الرحب يدخل في الكورنيش فيشقّه لشعبتين. كان سليم يعمل هنا بعد الظهر. لم أعرف طبيعة عمله، لأنّه كان دائمًا يقف مع زملائه أمام الباب ويصفّر للبنات. كان أحيانًا يرشّ الساحة بالماء، فكانت الرمال على الفور تشعّ من خلال تشقّقات سطحها الجافّ.

فكّرتُ بالتجوّل هنا وهناك عصرًا، لكنّ القيظ يجعل أيّة حركة تذكّرك بالوجود البغيض. تقوقعتُ وحلمت أن تَسعني تلك الآنيّة التي أضعها في الثلّاجة وفيها ماء وجبن «مشلّل» يصعب حلّ ضفائره، أسبحُ عبر ألياف الحليب المختمر. كينغ سايز لمن يرغب.

عندما يتعرّض الجسم للحرارة، علينا أن نشرب، علينا أن نلبس، وعلينا أن نأكل، ولكنّك لا تحسّ بالعطش في القيظ. أشعر بالصداع بسبب قلّة الماء في الجسم. وأتحمل نبضات الصدغين وما فوق العينين، وذلك بأن أَشدّ شعري أو أضغط بأصابعي على جمجمتي.

أنْ تشدّ من عضلاتك منفردًا كي تنتصر على الشمس فتلك خُيلاء. الأفضل الجلوس قرب نبع فيه ظلّ يسقط على الوجه. الوعي المحروق لا يدرك النتائج وتختبئ الأخلاق هربًا من القيظ. هي لحظة من عدم الانتباه وتبدأ السماء تنفزر طولاً وعرضًا وتبدأ تصبّ نيرانها. يتوتّر الجسد وتشدّ اليد على المسدّس فيستسلم الزناد. صوت يصمّ الآذان، كأنه ضربات قصيرة تدقّ بوّابات البؤس. القيظ لا ينفع الوجوديين

الوحيدين (ألبير كامي. . . . نهاية الجزء الأوّل).

اليوم فكّرت أن أتجنّب شركة «سفريات شرق الأردن» كي لا يراني سليم. شعرت بالقرف لمجرّد التفكير في أنّي سأراه وسيحدّثني مرّة أخرى عن حبّه لوبوف، وأنّه ينتظر منّي أن أتّخذ قرار السفر لروسيا بدلاً عنه. سألتفّ دائرًا حول الفندق.

بعد ساعة بدأ الجوّ يميل للبرودة بعض الشيء، ولم يعد العرق يغمر عينيّ، وجفّ قميصي تحت نسمات الهواء المنعشة. شعرت بالسعادة. إلى موسكو يا صديقي. . . ركضت نحو بوّابة شركة «سفريات شرق الأردن» وناديت مدفوعًا بالعبث: إنّني هنا!

الكورنيش بعد مبنى الشركة محاطٌ بشبكات من الأسلاك، ولذلك علينا أن نسير مسافة لا بأس بها إذا أردنا العبور للجهة الثانية. في وسط الشارع يقومون بإعداد شريط من النباتات، وهم على أبواب الانتهاء منه. على ضوء المصابيح الأنيقة تلمع رؤوس البخّاخات الملوّنة، وكأنّها لُعَب رمى بها الأطفال، وتفوح من المقاعد رائحة دهان حديث العهد. الصمغ يتجمّع على الخشب المكشوط حديثًا. وقد طوّقت أحواض الزهور بشريط معدني يذكِّر بالنمط الفرنسي للحدائق. كما غُرست على امتداد الرصيف، في حفر ليست عميقة، شجيرات تبدو كأعواد غُرست في الأرض، رُكِّبت فوقها كُرات.

ـ بيييبب. . . بيبب! ـ زمّرت سيّارة فورد حمراء، علمًا أنّنا كنّا نمشي على الرصيف وفقًا للنظام.

ـ سليم هل تعرفه؟

ـ لا . ولماذا تسألني؟

ـ لَمَ يزمّر إذًا؟

ـ لا بدّ أنّه ظنّك فتاةً.

غشّاش! انعطفنا في شارع جانبي. من الظلام بدت عمارات طويلة يشعّ منها لون البنفسج من التلفزيونات. وفي مقابلها فندقي. بالأمس عندما عدت كان البوّاب الفلسطيني الشابّ يشاهد في الاستعلامات فيلمًا لفتيات عاريات في قناة «پول سات» البولّنديّة.

ـ أهلاً بولندا! ـ كانَ دائمًا يكرّرها عندما يراني، وتابع، ما هذا؟ أتعودُ مرّة أخرى لوحدكَ؟ لا تعجبك بناتنا أليس كذلك؟ طبعًا! لديكم طبّونات... ولكنْ أنتَ هنا منذ... دقيقة... دقيقة، منذ عدّة أشهر، صحيح؟ لا يمكن احتمال ذلك. انتبه كي لا تملأ الحيطان بالبقع... (هنا مدّ يده للمفتاح) أتريد أن تتفرّج، وبالمناسبة تشرح لي ماذا يقولون؟

لمْ أكن على ما يُرام. يضايقني أنّني رجل، واحد من أولئك الذين يَحلبون ذَكَرَهم وهم يشاهدون أفلامًا خلاعيّة. استلقيتُ في فراشي لأنام، وأنا على يقين أنّ حبيبتي تنتظر عودتي، وأنّني أُظهر بطولة في الإخلاص لها.

لم يكن سالم يسكن بعيدًا عن الدكّان. وتحت منزله كان يتبادل أطراف الحديث مع جنود الدوريّة، بلهجة لا أفهمها إطلاقًا. شددنا على أيادينا بحرارة، علمًا أنّنا نرى بعضنا لأوّل مرّة. وقفتُ جانبًا.

واحدًا... وحيدًا.

عن الأيّام الأولى في حلب قلتَ في العقبة هكذا:

ـ الرجال هنا يسمحون برؤية العالم بعين واحدة. آخ. المرأة في الشرق... كانت لديك دائمًا ميول نحو التعليم. في معركة الكلمات لمفهوم التربية مكانه. بدأتَ تقرأ في حلب وكأنّكَ أصبحت طالبًا من

جديد. خلال عدّة أسابيع، بالكاد، خرجتَ من مكتبة القنصل أو المعهد الثقافي أو من الجامعة.

هل تذكر؟

ليس من اللائق للمرأة هنا أن تقابل رجلاً غريبًا أبيض. الرجل الضعيف لا يستطيع مقاومة الجمال. كيف نساعده؟ نحن اخترعنا تحرير المرأة، فقد جرّدناها من جاذبيّتها وقتلنا فيها العواطف. هناك مخرج آخر. يمكننا أن نربّي الحبّ ونقيّدَ مجالاته إلى الأفعال، كأنْ لا يخرج من البيت.

لا يمكن تغيير الطبيعة الذكوريّة. لنتصوّرْ شارعًا لا حجاب فيه... كانت الصقور ستنقضّ على تلك البطّات البرّيّة، ولوقفت زهرة التوليب لتتفقَ مع النرجس، واختلط السكّر مع وريقات الوردة. نشوات الحبّ إعدادٌ للخلود. كما كان يردّد العقيد. لكنّ الأرض ليست الجنّة وهناك الكثير ممّا يغوي نحو الخطيئة، عندما يتنافس المجتمع مع الحبّ. من أين تأتي الفوضى؟ عندما تسقط الأسرة والعادات؟ تولد المآسي عندما يهمل العشّاق الثّمِلون المحيط... والصلاة. الأفضل إذًا تعدُّدُ الزوجات. حين تتقاسم النساء الحبّ لا يضاجعن رجلاً.

غير أنّ الربّ نظر إلى خِرافه: تنشغلون بي على الأرض لحمدي ومجدي، ولكنْ بعد الموت تنتظركم المتع بين أحضان العذارى والغلمان، وليس هناك من يحتاج للصلاة في السماء. ما هو للجنّة يذهب للجنّة. ورجاء لا حاجة للقاءات غير ضروريّة!

تصمت.

كانت الزميلات أحيانًا يغضضن الطرف، وأنت تستطيع في المكتب السياحيْ أن تتكلّم مع الموظّفة اللطيفة. فإذا دخل أحد من

أهل البلد تبدأ المسرحيّة: ربّما يعرف زوجها؟ وبسرعة تختفي رعشات الانفعال ويبدأ الواقع يكشّر عن أنيابه. وحين يُصرف هذا الدخيل يبدأ الخوف يسمّم الأجواء كفَسْوَة كريهة الرائحة في حجرة مُكيّفة. حان وقت الخروج. كان صمت الزميلات يُشترى بفضول لا حدود له وأقاويل لا تنتهي. في الشارع سحابة من الذباب ثقيل الظلّ تتبع جسدك الذي يتصبّب عرقًا، والفتيات يبتسمن لك.

تلقائيّتكَ المضطربة حرمتكَ من الوضوح في رؤيا الأمور. فالنظرات والإشارات التي كانت طبيعيّة لحدّ الآن قادتك نحو الضياع. فالخطيبان هنا نادرًا ما تراهما معًا. أفهمكَ. أنت وسيم وتلفتُ انتباه الفتيات. أوّلاً تسأل المعلّم؟

الأمير الأبيض جيّد ونقيّ كالحليب.

كنتَ تتخفّى خلف نظّارتك السوداء ممّا منحكَ شيئًا من الجاذبيّة، ولكنْ، هل الأمير من الباحثين عن الحقيقة؟ التعامل بأمانة مع نساء العرب دون التنكّر لهنّ (لنتعرّف على بعضنا... ولكن دون أيّ أمل ثم تحت ذلك وبحروف صغيرة (السرّيّة مضمونة)).

أيّها المريض بسيقان النساء المرفوعة المُشرّعة! هنّ يعرفن أنّني أتكلّم معهنّ للحفاظ على المظاهر فقط. لذا كان لا بدّ من العرض أن يكون خفيًّا، ومقروءًا في الوقت نفسه. خطيبان مستغرقان ببعضهما حول كأس شاي في مقهى منوَّر... بإمكاننا تحمّل الإزعاجات، بشرط أن يكون بالإمكان التنفيس قبل ذلك. لحسن الحظّ هناك الكثير من الرجال الراغبين، وقد تجد بعض المطلّقات الرحيمات.

المَلَكِيَّة والاشتراكية نظامان يُرْفِقان بالغرباء، فالحرّيّات المستوردة تنتشر فيهما كالوباء. والرهان يتمّ على الأمير الأبيض. لطيف أن نشبع

فضولنا، لكنّ الضغط في الخصيان لا علاقة له بالوطن. هيّا... هيّا! فقد تكون البنت الثانية أسرع.

عزائي في هذا أنّ الأمر يقتصر على قلب الإذعان الأنثوي. التلفزيون يعوّض عن التجارب للفتاة المحبوسة في بيتها. انتظروني وسألقّنكم درسًا. فلتسقط التحاملات، فلتسقط التفرقة الجنسيّة. مبشِّرٌ بذكوريّة أخرى!!

كنتَ ستكتشف. وكانت الفجوات ستنفرج وتدعو لعالم آخر... اختلاق خطيبة!! فكرة جيّدة!! خطبنا بعضنا منذ فترة قريبة ونحبّ بعضنا كثيرًا. لم نتمكّن من السفر سويّة، لكنّنا نتراسل يوميًّا، بفضل عصر الإنترنيت الرائع. ماذا تريد أنْ تُحيِكَ بعد؟ تنظيف الأسنان أمام صورة فوتوغرافيّة مُلصقة بالمرآة في حمّام الفندق. كانت تستيقظ لتعدّ لكَ رقائق كلّ صباح. هنا لا تزال تأكل لوحدك.

بحثتُ كثيرًا كي أحصل في دمشق على الشوفان. حكاية عن العشق، أشياء كهذه تجذب النساءَ، وكنت تظنّ أنّكَ بفضلها ستحوز على ثقتهنّ. فصلُ الجنسين يقويّ من الإخلاص، الذي هو عدوّ التحرير.

تقول.

نادرًا ما خدعتُ الناس، ولم أكن متعوّدًا أن أفعل ذلك بانتظام.

بفضل الحكاية كنتَ تعوّل على العفويّة والتلقائيّة. سلامةُ الحبكة أي كيف تصطاد الحقيقة بطُعْم كاذب. يا لها من ديدان! وجرّكَ الخداعُ للعبته فورًا. نظمت ماضيكَ تربطُ بين ما حدث لك مع النساء وبين الأحلام بتلك اللواتي لم تنجح مساعيك معهنّ. وبسرعة لم تعد تنزعج من الخداع، وخلعتَ على كلّ ما تتعطّش له شيئًا من الواقعيّة،

وأصبحتَ الشخص الذي أردتَه دائمًا.

نادُوني بـ يان.

كنت تتسلّى ببطلكَ، بنفسك، وسحرْتَني. المنامات ترى فيها بنتًا تحبّها دون أن تبادلك الحبّ، تتقدّم، تحضنكَ وتهمس في شعرك متسائلةً إذا كنتَ تريد أن تصبح صاحبها. وصارت هذه المنامات قصّةَ اللقاءِ الأوّل. ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحدّ، لأنّ الأريحيّة التي تمتّعت بها لم تسمح لك أن تقرّر عن مظهر خطيبتك، خاصّةً وأنّ الجميلات كثيرات! كان عليّ أنْ أتنبّه كي لا تدفعكَ الأحلام نحو وجوه تتبدّل من حين لآخر.

تحدّث معلّم اللغة العربيّة عن محطّة باصات في إحدى مدن الشرق. عن أناس يغضّون من أبصارهم. كان ذلك في عصر لم يكن التلفزيون موجودًا. في مرّة من المرّات ظهر البائع، ونشر بسطة فارغة بلوحة كُتب عليها، للبيع: حكايا طازجة، مُجرَّبة وحقيقيّة.

قال المعلّم: من افتقر للتجارب الحياتيّة، وشدّه عجزه إلى السرير، أو أَجبرَتْه مصالحه على السفر، في يوم حدث فيه في المدينة شيء فوق العادة، وهو ما تناقله الجميع لأسابيع، سيساعده البائع على الخروج من المأزق، ولم تكن الأسعار مرتفعة.

بائع الحكايات... يا له من تعبير جميل... صنعتُ ماضيَّ من أجل الآخرين الذين صنعوا ماضيهم لي. شعرتُ أنّي ندٌّ لهم، وأنّي في أمان أكثر من أيّ وقت مضى. الإغواء بأحداث جميلة. قضاء وقت ممتع وتسلية. وأجواء تجعل المستمعين يحلّقون عاليًا، ومعهم الراوي نفسه. أحيانًا هدف ما، لطيف يكون هامًّا. لا يمكن البحث عن الحقيقة في سيرة الناس.

قال المعلّم: المعرفة والكتمان والتملّق لها جذر واحد هو درى.

مصنع للأحلام أنا صاحبه. سيّداتي سادتي إنّه إغواء بأحلام جميلة، ولكنْ هل يان إنسان شرقيّ؟ بائع الحكايات أو ذلك الفارس الذي يبحث في الأراضي المقدّسة عن الكأس المقدّسة.

ـ هذا الطويل هو من أقربائي، قال سليم، بعد أن ذهب الجنود، وتابع: لم أعرّفكم على بعضكم، لأنّهم لا يستطيعون الكلام مع الغرباء أثناء المهمّات، فهذا ممنوع. سأفعل ذلك في المرّة القادمة، ماشي...؟

لا عليك، لدينا وقت ـ كذبتُ عليه ولم أقل إنّي أعدّ نفسي لتأليف كتاب.

كانت شجرة تين أمام العمارة العالية، تسلّق إكليلها الكثّ البلكون فحجب صحن التلفزيون الفضائي. شعرتُ بالحزن لأنّي لم أستطع أبدًا أن أربّي أوراقًا خضراء رائعة كهذه.

ـ انتظرْني قليلاً، قال سليم وهو ممسك بكتفي وأضاف: عفوًا.

تسكن أسرته في الطابق الأرضي. كان الباب المفتوح يؤدّي إلى عتبة. ستارة تحجب الغرفة. اختبأتُ وراء التينة ونظرت من النافذة. على الأرض كانت تجلس أمُّه وأخته. يبدو أنّهما مستعدّتان لاستقبال ضيف، لأنّهما تلبسان حجابًا. كانت الأمّ في ثوب رماديّ مهترئ وسخ. وكانت الابنة قصيرة وسمينة، تتدلّى من تحت حنكها طيّات شحميّة، في سروال سبور أخضر، مكتوب عليه «نايك» ممّا زاد من عدم تناسق جسمها.

أمرَ سليم أخته بأدب بالاختفاء، وأعطى أمّه بعض الوقت لترتّب هندامها. كانت البنت تطلّ من المطبخ، وعيناها الدافئتان البرونزيّتان تثيران الاستلطاف.

ـ تعال! ـ صاح سليم من خلف الستارة.

خلعتُ حذائي، وفي الغرفة حييتُ أمّه، رغم أنّه لم يقدّمني إليها، وكانت متمدّدة على الأرض، هاجمها الكِبر قبل الأوان. نظرتْ إليّ مليًّا، وردّت التحيّة بصوت خفيض، مستسلمةً تمامًا. قال سليم دون أن تعرف هل يتكلّم معي أم مع أمّه: لن يأتي أبي، سيعود متأخّرًا من العمل.

مرّة أخرى: امرأة متمدّدة على الأرض، هاجمها الكِبر قبل الأوان، رحّبتْ بي بمبالغة وصبّتْ عليّ سيلاً من الأسئلة.

قطعة أثاث ضخمة في وسطها يقبع جهاز تلفزيون. في المسلسل، كانت السيّدات من القرن الثامن عشر يتمشّين مستندات إلى رجال في باروكات بيضاء، وياقات مطرّزة وبناطيل ضيّقة وغيرها من أشياء كانت موضة في ذلك العصر. كان شعرهنّ مرشوشًا بالبودرة وخصورهنّ مشدودة بقوّة بالكورسيه، فتُنحّفهنّ بشكل ليس طبيعيًّا. كان المشهد يدور بين شجيرات تبدو كأعواد غُرست في الأرض، رُكِّبت فوقها كُرات، تسعى جاهدة أن تقلّد الحدائق الفرنسيّة. هاجم المتنزّهين شلّة من الصعاليك، وهم يصرخون بشعارات لم يفهم أحد منها شيئًا.

ذهبنا للغرفة الثانية، وهناك أشار سليم إلى أخيه قائلاً: أقدّم لك أخي فاتح. فاتح أقدّم لك يان. قال فاتح: جميل، وانتفض من الكنبة وتابع: وهذا صديقي، أتريد رشفة؟ كانت على الأرضيّة زجاجات بيرة، وزجاجة من الويسكي الرخيص فارغة تقريبًا. أجبتُ: شكرًا، وأشرتُ أن يجلسا، خاصّة وأنّ الوقوف يتعبهما.

ـ أنت اجلس يا يان، سأجلب الكراسي حالاً. ـ في الأثناء خرج سليم إلى البلكون.

كان هناك تلفزيون آخر على خزانة ذات أدراج مكشوطة ومخربشة تستند إلى قرميدة، وكان ڤيديو كليب من قناة أم تي ڤي صاخبًا بشكل يغطّي على أصوات الصعاليك.

مرّة أخرى: ڤيديو كليب من قناة أم تي ڤي صاخب بشكل يغطّي على أصوات الصعاليك.

ـ شكرًا. أنتما لطيفان للغاية، قلتُ ذلك وأنا أبتسم.

شعيرات السجّاد تحكّ الأقدام بشكل لطيف، والحجرة خالية من الأثاث. كان الحرّ شديدًا. وبسبب النافذة المفتوحة كان هدير جهاز التهوية مسموعًا، ومع ذلك كان الهواء يلتصق بالجسد، ومرّة أخرى طفح العرق في عينيّ وشعّ وجهي بالشحم. عند مدخل الغرفة عُلّق لوح خشبي مع آيات من القرآن، وإلى جانبها صورة للمسجد الحرام في مكّة مرشوش بالبرقة ومحاط بهالة من النجوم. أمّا في التلفزيون فكانت مغنّية شبه عارية تنساب بين الراقصين في صالة افتراضيّة.

بطّة... قشطة قال فاتح.

طرقت أخته الباب، ودون أن تظهر مدّت صينيّة عليها طعام، حينها نادى أخوها عليها أن تجلب الكؤوس. كانت الجبنة لذيذة جدًّا والحمّص كان مُشترى في المركز التجاري، ولم يكن لذيذًا جدًّا. اعتذر سليم مرّة أخرى لعدم وجود شيء آخر. فقلتُ له أن لا يهتمّ بالموضوع البتّة، وأنّ الطعام لذيذ وأن يشكر أمّه باسمي.

بعد أن أكلنا أخذت الأخت الصينيّة وجلبت الشاي بشكل لا يكاد يكون ملحوظًا. أخرج سليم صورًا من صندوق على أرضيّة الغرفة وقال: انظر! كانت الصور لفتيات في ستوديو التصوير نفسه. وقد اختار المصوّر خلفيّات تتناسب مع لون العيون. كان الشابّ دائمًا يقف

في الخلف، بينما الفتيات جالسات. العديد منهنّ تجاوز الخمسين. عدّةُ صور أُخذت في الصحراء مع جِمال، أو أمام نادي الغطس.

ـ تعجبكَ الناضجات... أليس كذلك؟

في هذه اللحظة بدأت المغنّية تثب راقصة بين الأعمدة.

ـ مهلاً... مهلاً قلتُ لك إنّنا جميعًا قانطون. ـ خبّأَ سليم الصور وتابع: ما قولك أن نتمشّى؟

ـ لحظة! أنتهي من شرب الشاي.

وعلى هذه الشاكلة يمكنني أن أقصّ عليك كيف أقضي الليلة الأخيرة في العقبة، وأذكر فيها قصّة الهدهد وسليمان النبي. وعن البرقيّة السعيدة لسليم، التي قد يستلمها بعد خروجنا من البيت مباشرة، وأتكلّم على كيفيّة عودتي إلى دمشق وذهابي إلى الحمّام العامّ، وهناك ربّما أقابل الفنّان جيروم، أو فتاة هامّةً جدًّا لي، بل أهمّ الناس على الإطلاق، والتي بدونها لم يكن ما كان، بما فيها هذا الكتاب، على سبيل المثال، ولا كان شمعون العمودي، ولماذا وقف سنوات فوق العمود، ولماذا دوائر الهجرة ليست مُريحة، رغم أنّه يمكننا أن نتعلّم كثيرًا منها، خاصّة حين يكون المرشد قزمًا ذا وجهين. يمكنني أن أقصّ كلّ هذا، ولكن لننتظر. الفرحُ بدايةُ كلِّ الأشياء. فلنفرحْ معًا مع العروس الرائعة الجمال، وكذلك مع العريس رغم أنّه ليس في عمر العرسان. لنفرح معًا، كلّنا معًا هذه المرّة.

فليقولوا.

سليمان أو أصوات ليست ربّانيّة فحسب

يقول ميريك في اليوميّات:

مرّت إجازتي التي استغرقت شهرين بسرعة. يوم الأحد تبديل طواقم العاملين. لم يبق إلّا أن أحضر العرس وأعود. أقرأ مذكّرات امرأة أوروبيّة، زوجة أحدِ الوجهاء المصريين منذ مئة سنة. ذهبتْ إلى عقد قران، أرعبها لأنّ العروس كانت طفلة في الثانية عشرة من عمرها. ألبسوها ثياب العرس وتنقّلوا بها من صالة لصالة، يعرضونها على النساء وكأنّها دمية. غدًا سنحتفل معًا، وهذا ليس بالشيء القليل. بشيء من النفور أفكّر بالعودة إلى الموقع. قبل أن تبدأ إجازتي بيوم واحد كنت في حفلة. ذهبنا معًا للسباحة في مياه كبريتيّة من عين كلسيّة مُتكهّفة. كنّا خمسة رجال لا أحد منّا اهتمّ بهندامه. إنّها بلدة رأس العين. متعة حياتيّة. وشخير في حاوية مستعملة... من الأحسن ألّا أرجع؟

تتذكّر؟

أسير بجوار أسوار المدينة القديمة ظهرًا. السوق والحمّامات والمساجد تتستّر بين مباني المدينة. تبدأ التحصينات من عند الفندق وتسير نحو أسفل تلّ تنتشر فوقه المدينة القديمة التي تبعث في النفس الدفء رغم انعدام المُكيّفات فيها إلّا أنّي أستطيع أن أفتح الحمّام، وأدير الحنفيّة وأبرّد نفسي بتيّار من المياه الباردة.

دخلتُ إلى حلب عبر بوّابة دمشق.

تمتدّ المدينة القديمة صاعدةً حتى تلّ يبدو كبركان صنعته يد الإنسان. على جوانب فوهته تنتصب أسوار غير منتظمة، هي ما تبقّى من القلعة. مجموعة من البوّابات مرتبطة بجسر حجري يؤدّي إلى الداخل، حيث بُنيَ مسجد على الخرائب وعدد من المخازن والحوانيت ومسرح. وقد هدّم المغول القاعة، وكانوا قبل ذلك قد أحرقوا بغداد، وفتحوا دمشق في القرن الثالث عشر. تخترق البوّابة الضخمة كتابة دقيقة تزيينيّة. في أسفل القلعة خندق كان يومًا مليئًا بالمياه. في مبنى صغير إلى اليسار توجد دائرة الهجرة.

هنا حانت فرصتي.

إلى الأسفل جدار مهدَّم بارز، انحرف عن مساره فكشف عن المدينة الجديدة وعن أقواس بوّابات السوق في الأسفل، أمام مداخل الأنفاق تجد من يصلّح الأحذية على ماكينات (سينجر) القديمة، أو تاجرًا يبيع الفواكه على عربة، وتسمع ضجيجًا على امتداد مداخل الشوارع يختلط بتحيّات الأطفال وزعيق القطط التي تتناهش بقايا أكياس القمامة... ومن بعيد يأتيك صوت مزمار. طبلة وخشخاش خشبي غطّيا على لحن المزمار بإيقاعات بسيطة تتصاعد بهدوء.

جلستُ على حافّة الجدار.

مقابلي محطّة نقل صغيرة. تنطلق الباصات منها واحدًا بعد الآخر، ولكن لا يبدو أنّ الناس مستعجلون. عزف المزمار المنفرد يتفتّق ويصعد الأسوار، ويبدأ اللحن يلتفّ متّجهًا نحو المسجد. على حائط خَرِب تقبع قبّة. في مبنى لا زخارف فيه، ترى بوّابة معبد مزخرفة، مشرّعةً تنادي الزائرين.

شعرتُ بالقشعريرة.

رغم الشمس، هناك شيء من البرودة. قشعريرة تسري على امتداد العمود الفقري لتصل الصدر ثم تنتشر نحو أسفل الورك، مخلّفةً وراءها حيرة عجيبة. أهو البرد الذي يخترق معطفي؟ أو قد يكون المعبد القديم يتقبّلني برعشة الكمال؟

قِطّ يتمسّح بي، والأطفال يتجمّعون...

يقول ميريك في اليوميّات.

صارت الأقلام كابوسًا. بالقرب من كلّ مكان أثري تجد سربًا من الأطفال، يطالبونك بالهدايا من مسافات بعيدة. أخذتُ معي عدّة مرّات حفنة من الأقلام، ولكن عدد عدم الراضين يظلّ الأكبر. من يحصل على الهديّة يأخذها ويهرب على الفور، ومن يبقى منهم يصبح أكثر عدوانيّة.

... ويتهامسون فيما بينهم، يجرّ واحدهم الآخر، وينظرون إليّ بانتباه. أسأل هؤلاء الصغار عن أسمائهم وأكتب اسمي بالأبجديّة العربيّة.

ـ اسمي يان. ي.ا.ن.

بنت صغيرة ذات ضفيرة تحكّ ركبتي، وهي تنظر للآخرين بزهو.

فجأة تمسكني من أنفي، فأنقاد للعبتها وأمسكها من أنفها، والبقيّة يضحكون.

ـ ي. ا. ن.

تخرج امرأة من أحد البيوت فتهرب الفتاة الصغيرة، أنحني للمرأة الرائعة وأنا ألهث. تبدو تحيّتي مضطربة. عدم النضج لا يزال يخيّم في الجوّ كفسوة كريهة، لا تعرف هل تعتذر بسببها فيتنبّه حينها الحضور إليها.

يجب التعوّد على الطعام هنا.

المرأة تبتسم بعذوبة. من تحت منديلها، وبشيء من الغنج تظهر خصلة من شعرها. عبيق برتقال طازج. تعود البنت الصغيرة، لكنّها لا تتجرّأ على الجلوس. أحدهم في إحدى الشقق يكسّر الأطباق، فتنفجر مشاجرة.

حين أقفُ تزداد حيويّة الأطفال ويوصوصون، يركضون، يمسك عدّة أولاد بأيديهم ويسدّون الطريق أمامي.

ـ ياااااان! يااااان! ـ أحد الصغار يقفز على ظهري.

ـ يااااان! يااااان!

عند البوّابة يتوقّف الأطفال، وينادون لمدّة طويلة، علمًا أنّي غبتُ عن أنظارهم.

افعلْ ذلكَ بِنَفسك

فيما يلي تمارين الخيال (سنترك للقارئ مجالاً ليضع ملاحظاته):

كيف سيكون شكل الكتاب، لو لم يكتبه يان ولم يتذكّر البائع الحكايات.

ماذا؟ لا؟! هل تَنْفَر من التمارين؟ عندكَ هنا المعلومات والحوارات، أي كلّ قراءات ميريك.

مشهد

صالة رحبة. شمس. نور يدخل من نوافذ تأتي من خارجها أصوات المتحملقين. كراسٍ بلاستيكيّة مصفوفة كالمقاعد في الكنائس. ممرّ عريض يُوصِل إلى منصّة عليها أريكة ذات حوافّ مذهّبة وتنجيدة خضراء، وحولها سِلال من الزنبق والبابونج والكبّوسين. جانبًا طاولة صغيرة تقليد للنمط الباروكي، مليئة بالطعام. طاولاتُ حدائقَ ملاصقةٌ للجدران، عليها مأكولات وأغطية للاستعمال لمرّة واحدة. نراجيل. لا يوجد خمور. الجوّ خانق رغم أنّ النوافذ مفتوحة.

تأخّر موكب العروس، اكتمل ضيوف العريس. يقف القاضي جانبًا، وبيده أوراق جاهزة للتوقيع. ليس هناك من شخوص تظهر على المنصّة. متفرّجون يكتفون بتصوّر الأبطال، ولكنّ كلامهم مسموع. من الخلف تتردّد أصوات الرقص والأكل.

الأشخاص

كريم، العريس، وتعني النبيل. يُقال إنّه جاء من بلد بعيد. هو أحيانًا سَلَمون الحاكم الذكي أيّ سليمان الحكيم، أو لعلّه الناسك سمعان العمودي، أي الدرويش الذي انسحب من الحياة وعاش على عمود، وقد يكون كريم شخصًا آخر.

جميلة، العروس، وتعني الرائعة التي تكشف عن جمالها فورًا. يقال إنّها لبنانيّة من طرابلس، تسكن في الأردن وتدرس في دمشق. هي أحيانًا ملكة سبأ أي بلقيس أو السوداء الرائعة، التي عشقت سليمان أو ربّما سمعان العمودي، وقد تكون شخصًا آخر.

مليحة، أخت العروس، وتعني التي تكشف عن جمالها ببطء. يقولون إنّها إرترية من أسمرة تسكن وتدرس في دمشق. هي أحيانًا زوجة وأميرة وأحيانًا زوجة من الدرجة الثانية. وقد تكون شخصًا آخر.

وليد، شقيق العريس ويعني الطفل، يقولون إنّه صعلوك مُتسكّع كسول من العقبة. قد يكون الخليفة ـ الشاعر، أو المرتدّ المقتول بسبب تجديفه وتفسّخه الخلقي، ورغم أنّه كان ينظم شعرًا جيّدًا، إلّا أنّه قد يكون شخصًا آخر أيضًا.

هارون، شقيق العريس، ويعني آرون وهو الخطيب. يقولون إنّه بوّاب بفندق في دمشق، يحدث أن يكون خليفة ـ إمبراطورًا. يحترمه الجميع، علمًا أنّه قتل أخاه، وكان زير نساء، في زمنه بدأ أفول الإمبراطوريّة، ويحدث أن يكون شخصًا آخر.

سليم، شقيق العريس ويعني الصحيح والعادي. يقولون إنّه أردني يعشق «الحبّ». لا أحد يَحْزُرُهُ، فأحيانًا يودّ أن يكون سليمان، أو سمعان، أو هارون، أو وليدًا. ربّما يريد أن يكون شخصًا آخر أيضًا.

ميريك، شقيق العريس. بلغة البلد البعيد يعني «مُمَجّد السلام». يقولون إنّه جيوفيزيائي، وإنساني، يكتب يوميّاته وينسج ذكرياته. يريد أن يكون أحيانًا سليمان، أو سيمون أو هارون أو وليدًا، ومن يدري؟ ربّما يريد أن يكون شخصًا آخر أيضًا.

يان، شقيق العريس، بلغة البلد البعيد يعني «الربّ يتحنّن». يقولون إنّه بطل الرواية وإنّه مشرّد يفكّرُ بدلاً من فعل أيّ شيء. هو الشخص الذي يريده، ويحدث أن يكون شخصًا آخر أيضًا.

بائع الحكايات وهو بشكلٍ أو بآخر كلّ واحد منكم.

رشيد بالعربيّة يعني العاقل.

العقيد المتقاعد وأسرته.

فاتح شقيقُ سليم، ويعني الذي يفتح والغازي.

رفيقه

ميكواي مدرّس اللغة العربيّة.

أمٌّ مستاءة.

سوداء العينين وحمراء الشعر.

بنتٌ سمراء عيناها عسليّتان.

شقراء عيناها زرقاوان.

شعرها أسود وعيناها خضراوان.

نحيف أشيب.

أحمر الخدّين بدين.

راعٍ قزم.

ناشط ثقافي متحمّس.

والدان مُعذّبان.

أطفال يلهون.

شخص ذو عضلات قويّة وذو وشم.

بائعان صوماليّان.

أربعة عراقيين.

عراقيّان آخران.

خديجة أمٌّ جميلة.

الشابّ محمود.

معلّمةُ اللغة العربيّة الصبيّة وأمّها.

عامل إلكتروني وعائلته.

سكّير.

شيخ وابنه.

مَرِن ويعني بالعربيّة ليّن.

ولد زنجي ووالداه.

علي أكبر ويعني بالعربيّة الكبير والجذر (ك ب ر) يتضمّن أن يكون الشخص ضخمًا، جبّارًا.

غراسين.

راقصات.

خطباء.

رُواة.

قرد.

نعامة مُروَّضة.

شعراء، شعراء كثيرون جدًّا.

بوّابون، بوّابون كثيرون جدًّا.

العمّ إبراهيم ويعني أبراهام.

خليل الله والملقّب بآكل العشب للاحتقار.

زُهّاد.

مشعوذون.

أشباح.

بيادق.

وغيرهم.

وكلّهم إخوة وأخوات.

الحوار الأول

صوت يقول: قُمْ يا يان وارقص معنا!

صوت يقول: القدم اليسرى أوّلاً!

صوت يقول: اليسرى!

صوت يقول: اسمع الإيقاع! واحد!

صوت يقول: يسار!

صوت يقول: بسرعة! لاه لاه لاه. . .

صوت يقول: عدّ! واحد اثنين. . . يسار!

صوت يقول: صحّ!

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: يسار!

صوت يقول: اليدان! يان، أرقص!

صوت يقول: إلى اليمين، والآن بشكل دائري.

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه

صوت يقول: واحد اثنان... يسار!

صوت يقول: أين العروس؟

صوت يقول: أين السوداء الرائعة؟

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: إن لم تكن هذه فتلك.

صوت يقول: إلى الأمام!

براڤو! تصفيق وتصفير يُسمع لعشر ثوانٍ، أي بعدد كلّ الفصول: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة[1].

---

(١) يان سوبارت، بائع الحكايا، رواية شاعريّة عبر الثقافات، وارسو ٢٠٠٩، القرن ٢١.

الحوار الثاني

صوت يقول:

لا شيء يكون كما يبدو عليه[1].

براڤو! تصفيق وتصفير يُسمع لعشر ثوانٍ، أي بعدد كلّ الفصول: واحد، اثنان، ثلاثة... عدّوها بأنفسكم.

(١) داڤيد لينتش، اتبعني أيّها النار، فرنسا/ الولايات المتّحدة الأميركية، ١٩٩٢ القرن ٢٠.

الحوار الثالث

يقول الصوت:

كان قدرُكَ الكذب والبهتان (. . .) حين كنت تخترع الأشياء، تخترعها غير حقيقيّة، لكنّها صارت كذلك (. . .) أنتَ نفسكَ عشقتَ أوهامك، فكتبت رسائل لم يكتبها أحد، ويذوب كلّ من يقرأها إعجابًا، حتى تلك التي كانت تطلب منك كتابة هذه الرسائل (. . .) وفي إحدى المرّات أردت أن تفعل شيئًا حقيقيًّا ولو لمرّة واحدة (. . .) انتكستَ. صنعتَ شيئًا يفوق التصديق، شيئًا لا أحد يريده. فخليق بكَ أن تتقوقع في عالم أعاجيبك، هناك يمكنك أن تقرّر إلى أيّ مدى ستكون أعاجيب[1].

(١) أمبيرتو إيكّو، باودولينو، وارسو ٢٠٠١ (عن الإيطاليّة نقلها إلى البولنديّة آدم شيمانوفسكي) القرن ٢٠.

براڤو! تصفيق وتصفير يُسمع لعشر ثوانٍ، أي بعدد كلّ الفصول: واحد، اثنان، ثلاثة... عدّوها بنفسكم.

الحوار الرابع

صوت يقول: قُمْ يا يان وارقص معنا!

صوت يقول: القدم اليسرى أوّلاً!

صوت يقول: اليسرى!

صوت يقول: اسمع الإيقاع! واحد!

صوت يقول: يسار!

صوت يقول: بسرعة! لاه لاه لاه..

صوت يقول: عدّ! واحد اثنين... يسار!

صوت يقول: صحّ!

صوت يقول: لأه لاه لاه لاه!

صوت يقول: يسار!

صوت يقول: اليدان! يان، أرقص!

صوت يقول: إلى اليمين وبشكل دائري.

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه

صوت يقول: واحد اثنان. . . يسار!

صوت يقول: أين العروس؟

صوت يقول: أين السمراء الرائعة؟

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: إن لم تكن هذه فتلك!

صوت يقول: إلى الأمام!

براڤو! تصفيق وتصفير يُسمع لعشر ثوانٍ، أي بعدد كلّ الفصول: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة[1].

---

(١) يان سوبارت، بائع الحكايا، رواية شاعريّة عبر الثقافات، وارسو ٢٠٠٩، القرن ٢١.

الحوار الخامس

صوت يقول: عاشق يأتي إلى بيت محبوبته ويطرق الباب.

صوت يقول: من هناك؟

صوت يقول: أنا عشيقك!

صوت يقول: يبقى الباب مغلقًا. لكنّ العاشق لا يزال يطرق الباب كلّ يوم. في أحد الأيّام جاء وطرق الباب من جديد.

صوت يقول: من هناك؟

صوت يقول: هذا أنت!

صوت يقول: وانفتح الباب فورًا[١].

(١) حكايا سمعها المؤلّف وصدّقها فترجمها.

براڤو! تصفيق وتصفير يُسمع لثلاث ثوانٍ، بعدد الفصول: أربعة خمسة، ستّة.

الحوار السادس

صوت يقول:

وسمعتْ ملكة سبأ بخبر سليمان، فأتتْ إلى أورشليم لتمتحن سليمان في بعض المسائل وبموكب عظيم جدًّا وجِمال حاملةٍ أطيابًا وذهبًا بكثرة وحجارة كريمة. فأتت إلى سليمان وكلّمته عن كلّ ما في قلبها. فأخبرها سليمان بكلّ كلامها ولم يُخفَ عن سليمان أمرٌ إلّا وأخبرها به. فلمّا رأت ملكة سبأ حكمة سليمان، والبيت الذي بناه، وطعامَ مائدته، ومجلسَ عبيده، وموقفَ خُدّامه وملابسهم، وسقاتهِ وملابسهم، ومُحرقاته، التي كان يُصعدها في بيت الربّ، لم تبق فيها روح بعد.

صوت يقول: لرائحة أدهانكَ الطيّبة اسمكَ دهن مهراق. اجذبني وراءكَ فنجري. لا تنظرنّ إليّ لكوني سوداء. أخبرني يا مَن تُحبّه نفسي

أين ترعى. أدخلني إلى بيت الخمر!

صوت يقول: قامتكِ هذه شبيهة بالنخلة وثدياك كعُناقيدها. قلتُ إنّي أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها. فيكون ثدياك كعناقيد الكرم ورائحة أنفكِ كالتفّاح.

صوت يقول: اجذبني وراءكَ فنجري. أدخلني الملك إلى حجاله.

صوت يقول: هلمّي معي من لبنان يا عروس، من لبنان تعالي واقتربي. قد سبيتِ قلبي يا أختي العروس. قد سبيت قلبي بإحدى عينيك، بقلادة واحدة من عنقك. ما أحسن حبّكِ يا أختي العروس. كم محبّتكِ أطيب من الخمر، وكم رائحة أدهانك أطيب من كلّ الأطياب. شفتاكِ يا عروس تقطران شَهدًا. تحت لسانك عسلٌ ولبن. ورائحة ثيابك كرائحة لبنان. أختي العروس جنّة مغلقة عين مقفلة وينبوع مختوم. أغراسك فردوس رمّان مع أثمار شهيّة فاغية ناردين. ناردين وكُركُم. قصب الذُّريرة وقِرفة مع كلّ عود اللُّبان. مُرٌّ وعودٌ مع أفخر الأطياب. ينبوع جنّات، بئرُ مياه حيّةٍ، وسيولٌ من لبنان.

صوت يقول: رأتها البنات فطوّبنها. الملكات والسراري فمدحنها. من هي المشرقة مثل الصباح، جميلة كالقمر، طاهرة كالشمس، مُرهبة كجيش بألويّة؟[١]

براڤو! تصفيق وتصفير يُسمع لخمس ثوانٍ، أي بعدد الفصول: واحد، ثلاثة، أربعة، سبعة، ثمانية.

---

(١) توليف لمقاطع من سفر أخبار الأيّام الثاني ونشيد الأنشاد من الكتاب المقدّس، دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط.

الحوار السابع

صوت يقول:

وتفقَّد الطَّير فقالَ ما لي لا أرى الهُدهُد أم كان من الغائبين. لأُعَذِّبَنَّهُ عذابًا شديدًا أو لأَذْبحنَّهُ أو لَيَأتينّي بسلطان مُبين. فمكثَ غيرَ بعيد فقال أحَطتُ بما لم تُحِطْ به وجئتكَ من سبأٍ بنبأ يقين. إنّي وجدت امرأة تملكهم وَأوتيتْ منْ كلّ شيء ولها عرشٌ عظيم. وجدتُها وقومَها يسجدون للشمس من دونِ الله وزيّن لهمُ الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألّا يسجدوا لله الذي يُخرج الخبء في السموات والأرض ويعلمُ ما تُخفون وما تُعلنون.

فلمّا جاءتْ.

صوت يقَول: ادخلي الصَّرح.

صوت يقول: فلمّا رأتْه حَسِبتْه لُجَّةً وكشفت عن ساقيها. قال إنّه صَرحٌ مُمرَدٌ من قوارير. قالت ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سليمان لله ربّ العالمين.

صوت يقول: ومنَ الجنّ مَنْ يعملُ بينَ يديْه، بإذنِ ربّه، ومن يزِغْ منهم عن أمرنا نُذِقْه من عَذاب السعير[1].

برافو! تصفيق وتصفير يُسمع لستِّ ثوانٍ، أي بعدد الفصول: واحد، ثلاثة، ستّة، سبعة، ثمانية، تسعة.

---

(١) قرآن كريم، آيات من سورة النمل وسورة سبأ.

الحوار الثامن

صوت يقول:

واختلف العلماء في أمرها بعد الإسلام، فقال أكثرهم: لمّا أسلمت بلقيس أراد سليمان أن يتزوّجها، فلمّا همّ بذلك كره لما رأى من شدّة كثرة شعر ساقها، وقال: ما أقبح هذا، فسأل الإنس عما يُذهب ذلك، فقالوا: الموسى، فقالت المرأة: ما لمسني حديد قطّ، فكره سليمان الموسى، وقال: إنّها تقطع ساقها، فسأل الجنّ فقالوا: لا ندري، ثم سأل الشياطين فتنكّروا عليه، وقالوا لا ندري. فلمّا ألحّ عليهم قالوا: نحن نحتال لك عليه حتى يكون كالفضّة البيضاء، فاتّخذوا لها النورة والحمام[1].

(١) الطلبي، تاريخ الأنبياء، دمشق، بدون تاريخ. القرن الثالث عشر للميلاد.

برافو! تصفيق وتصفير يُسمع لخمس ثوانٍ، أي بعدد الفصول:
واحد، ثلاثة، أربعة، سبعة، ثمانية، تسعة.

الحوار التاسع

صوت يقول:

فقلتُ له إذًا أرقيكَ حتى ... تلين وربما لانَ الحديد

فلانَ وجاد لي بعد امتناع ... كذاك الله يفعل ما يريد[1]

براڤو! تصفيق وتصفير يُسمع لستّ ثوانٍ، أي بعدد الفصول: ثلاثة، أربعة، خمسة، ستّة، ثمانية، تسعة.

(١) ديوان أبي نواس، تحقيق محمود أفندي واصف، القاهرة ١٨٩٨، ص ٤١٨.

الحوار العاشر

صوت يقول:

قيل لبعض العلماء إنّ ابنكَ قد عشق فقال: الحمد لله! الآن رقّت حواشيه ولطّفتْ معانيه وملّحت إشارته، وظرّفت حركاته وحسّنت عباراته وجلّت شمائله فواظب المليح وجنّب القبيح[1].

براڤو! تصفيق وتصفير لخمس ثوان، أي بعدد الفصول: واحد، أربعة، خمسة، ستّة، تسعة.

(١) ابن قيّم الجوزيّة.

الحوار الحادي عشر

صوت يقول:

إنّكَ لقليل الرأي مصاب البصيرة إذ تحبُّ من لم ترَه قطّ، ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت أعذر[1].

براڤو! تصفيق وتصفير لأربع ثوان، أي بعدد الفصول: ثلاثة، أربعة، خمسة، ستّة.

---

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، مكتبة عرفة بدمشق، ص ١٨.

الحوار الثاني عشر

صوت يقول:

أضحى فؤادك يا وليد عميدا صبًا كليمًا للحسان قيودا

من حبّ واضحة العوارض طفلة برزت لنا نحو الكنيسة غيدا

ما زلت أرمقها بعينيْ وامقٍ حتى بصرت بها تقبّل عودا

عود الصليب فويح نفسي من رأى منكم صليبًا مثله معبودا

فسألتُ ربّي أن أكون مكانه وأكون في لهب الجحيم وقودا[1]

برافو! تصفيق وتصفير لأربع ثوان، أي بعدد الفصول: واحد، ثلاثة، ستّة، تسعة.

---

(١) ديوان الوليد بن يزيد، جمع وترتيب المستشرق الإيطالي جبربالي، دمشق ١٩٣٧، ص ٤٠.

الحوار الثالث عشر

صوت يقول:

أمن ميّة الطلل الدارس ألظّ به العاصف الرامس

فلم يبقَ إلّا شجيج القذال ومستوقدٌ ما له قابس

وحوضٌ تثلّم من جانبيه ومحتفل دارس طامس[1]

برافو! تصفيق وتصفير لثلاث ثوان، أي بعدد الفصول: سبعة، ثمانية، تسعة.

---

(١) بديع الزمان الهمداني، المقامة الغيلانيّة.

الحوار الرابع عشر

صوت يقول: سأل نحويّ أعرابيًّا: ما الحبّ عندكم؟

صوت يقول: النظر بلا انقطاع، وعندما يصير قُبَلاً يصير جنّة.

صوت يقول: ليس حبًّا عندنا.

صوت يقول: ما الحبّ عندكم إذًا؟

صوت يقول: عندما تفتح ساقيها وتدخل فيها.

صوت يقول: آه! أنت لا تحبّ بل تريد أن تُنجب أطفالاً[1].

براڤو! تصفيق وتصفير لثلاث ثوان، أي بعدد الفصول: واحد، أربعة، خمسة.

(١) مؤلّف مجهول عن فيبكي فالتير، المرأة في الإسلام، عن الترجمة البولّنديّة، القرن التاسع.

الحوار الخامس عشر

صوت يقول:

قد خلعتُ ثوبي فكيف ألبَسُهُ. قد غسلتُ رجليّ فكيف أوسّخهما. حبيبي مدّ يده من الكوّة فأنّت عليه أحشائي. قُمتُ لأفتح لحبيبي ويداي تقطران مُرًّا وأصابعي مرٌّ قاطر على مقبض القفل. فتحتُ لحبيبي لكنّ حبيبي تحوّل وعبر. نفسي خرجت عندما أدبر. طلبته فما وجدته. دعوته فما أجابني.

صوت يقول: وأحبّ سليمان نساء غريبة كثيرة، من الأمم الذين قال عنهم الربّ لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنّهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبّة. وكانت له سبعمائة من النساء السيّدات وثلاثمائة من السراري، فأمالتْ نساؤه قلبه

وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الربّ[1].

براڤو! تصفيق وتصفير لخمس ثوان، أي بعدد الفصول: ثلاثة، أربعة، ستة، ثمانية، تسعة.

---

(١) مقتطفات من نشيد الأنشاد ٥: ٣ ـ ٦ وأصحاح الملوك الأوّل ١١: ١ ـ ٥.

الحوار السادس عشر

صوت يقول: قُمْ يا يان وارقص معنا!

صوت يقول: القدم اليسرى أوّلاً!

صوت يقول: اليسرى!

صوت يقول: اسمع الإيقاع! واحد!

صوت يقول: يسار!

صوت يقول: بسرعة! لاه لاه لاه..

صوت يقول: عدّ! واحد اثنين... يسار!

صوت يقول: صحّ!

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: يسار!

صوت يقول: اليدان! يان، أرقص!

صوت يقول: إلى اليمين وبشكل دائري.

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: واحد اثنان... يسار!

صوت يقول: أين العروس؟

صوت يقول: أين السمراء الرائعة؟

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: إن لم تكن هذه فتلك...

صوت يقول: إلى الأمام!

برافو! تصفيق وتصفير لعشر ثوان، أي بعدد كلّ الفصول: واحد، اثنان، ثلاثة... عدّها بنفسك![1]

---

(١) يان سوبارت، بائع الحكايا، رواية شاعريّة عبر الثقافات، وارسو ٢٠٠٩، القرن ٢١.

الحوار السابع عشر

صوت يقول:

عندما تتحدّث إلى فرد فإنّك تحدّق قبل كلّ شيء في وجهه. فعندما أتحدّث إلى شخص ما فأنا لا أنظر إلى هيكله ولا حتى إلى أفعاله، ولكن قبل كلّ شيء إلى تعابير وجهه. والأمر ذاته يحدث بالنسبة لدراسة المجتمعات. فأنا أعرف أنّ خلف تعابير الوجه يوجد ذلك الشيء الذي يحرّكه ويبقيه، شيء حقيقي كالذي أدركه في البداية، وهو تبادل النظرات والنفس بيننا... أفكّر بالشيئين سويًا على أنّهما يشكّلان كائنًا واحدًا أو ربّما كائنين متبادلين، يتقدّمان وينسحبان ويعودان إلى الالتحام مرّة أخرى كالفرسان العرب في العهد الرومانسي[1]

---

(١) جاك بيرك، في كتاب «الإسلام في الفكر الأوروبي» لألبرت حوراني، ترجمة انس عبد الرواق مكتبي، السعودية ٢٠١٠، ص ١٩٦.

براڤو! تصفيق وتصفير لخمس ثوان، أي بعدد الفصول: ثلاثة، أربعة، خمسة، ستّة، تسعة.

الحوار الثامن عشر

صوت يقول:

أؤمن بسلسلة من الأزمان اللامتناهية، وفي شبكة معقّدة من الأزمان المتقاربة والمتباعدة والمتوازية. هذه الحبكة من الأزمان التي تقترب وتفترق وتتقاطع والتي لا تعرف نفسها عبر القرون، هي التي تشمل كلّ الاحتمالات[1].

براڤو! تصفيق وتصفير لأربع ثوان، أي بعدد الفصول: ثلاثة، سبعة، ثمانية، تسعة.

---

(١) خورخي لويس بورخيس، حديقة الدروب المتشعّبة.

الحوار التاسع عشر

صوت يقول:

إذا كانت المرأة أحبولة الشيطان، فهي مؤشّر يدلّ على المعرفة. فالمرء العاقل يصل عبر حبّ المرأة إلى معرفة خالقها، لأنّ الأهداف الحقيقيّة تكمن في الأسباب الواضحة[١].

براڤو! تصفيق وتصفير لستّ ثوان، أي بعدد الفصول: واحد، أربعة، خمسة، سبعة، ثمانية، تسعة.

(١) داود الأنطاكي، من الترجمة البولّنديّة لكتاب فيبكي فالتر تحت عنوان «المرأة في الإسلام»، وارسو ١٩٨٢، القرن ٢١.

الحوار العشرون

صوت يقول:

ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أُكْلها في كلّ حين[1].

براڤو! تصفيق وتصفير لثلاث ثوان، أي بعدد الفصول: ثلاثة، ثمانية، تسعة.

(١) القرآن الكريم، سورة إبراهيم ٢٤ ـ ٢٥.

الحوار الحادي والعشرون

صوت يقول: قُمْ يا يان وارقص معنا!

صوت يقول: القدم اليسرى أوّلاً!

صوت يقول: اليسرى!

صوت يقول: اسمع الإيقاع! واحد!

صوت يقول: يسار!

صوت يقول: بسرعة! لاه لاه لاه..

صوت يقول: عدّ! واحد اثنين... يسار!

صوت يقول: صحّ!

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: يسار!

صوت يقول: اليدان! يان... ارقص!

صوت يقول: إلى اليمين وبشكل دائري.

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: واحد اثنان... يسار!

صوت يقول: أين العروس؟

صوت يقول: أين السمراء الرائعة؟

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: إن لم تكن هذه فتلك!

صوت يقول: إلى الأمام![1].

برافو! تصفيق وتصفير لعشر ثوان، أي بعدد كلّ الفصول: واحد، اثنان، ثلاثة... عدّها بنفسك!

---

(١) يان سوبارت، بائع الحكايا، رواية شاعريّة عبر الثقافات، وارسو ٢٠٠٩، القرن ٢١.

الحوار الثاني والعشرون

صوت يقول:

دنيا هي كما تراها، فاجتهد واربح زمانك

كلّ يوم، كلّ ليلة، لا تخلّي مهرجانك

واشتفي عليه من قبل أن يجيء الموت في شانك

ليس ذي عندك مصيبة أن تموت والدنيا حيّا[1].

براڤو! تصفيق وتصفير لثلاث ثوان، أي بعدد الفصول: واحد، ستّة، تسعة.

---

(١) أبو بكر ابن قُزمان.

الحوار الثالث والعشرون

صوت يقول:

الحبّ مُكلف فلا تطلب الكثير...

لأنّك قد تخسر ما تشاهده اليوم(١).

برافو! تصفيق وتصفير لأربع ثوان، أي بعدد الفصول: ثلاثة، أربعة، خمسة، تسعة.

(١) MEHMED، كتابُ الحبّ، عن الترجمة البولّندية، القرن الرابع عشر.

الحوار الرابع والعشرون

صوت يقول:

فـقـضِّ الـعـمـر تـشـبـيـهًـا عـلـى الـنـاس وتـمـويـهـا
أرى الأيّـام لا تَـبـقـى عـلـى حـال فـأحـكـيـهـا
فـيـومًـا شـرّهـا فـيّ ويـومًـا شِـرّتـي فـيـه[1]

برافو! تصفيق وتصفير لخمس ثوان، أي بعدد الفصول: واحد، ثلاثة، سبعة، ثمانية، تسعة.

---

(١) مقامات الهمداني، المقامة الأزاذية.

الحوار الخامس والعشرون

صوت يقول:

هو والعبّاس بن الوليد في مجلس هشام أخبرني محمّد بن الحسن الكندي المؤدّب قال حدّثني أبي عن العبّاس بن هشام قال: دخل الوليد بن يزيد يومًا مجلس هشام بن عبد الملك وقد كان في ذكره قبل أن يدخل، فحمقه من حضر من بني أميّة. فلمّا جلس قال له العبّاس ابن الوليد وعمر بن الوليد: كيف حبّك يا وليد للروميّات، فإنّ أباك كان بهنّ مشغوفًا؟ قال: إنّي لأحبّهنّ؛ وكيف لا أحبّهنّ ولن تزل الواحدة منهنّ قد جاءت بالهجين مثلك ـ وكانت أمّ العباس روميّة، قال: اسكت فليس الفحل يأتي عبسه بمثلي، فقال له الوليد: اسكت يا ابن البظراء! قال: أتفخر عليّ بما قُطع من بظر أمّك. وأقبل هشام على الوليد فقال له: ما شرابك؟ قال: شرابك يا أمير المؤمنين؛ وقام

مغضبًا فخرج. فقال هشام: أهذا الذي تزعمون أنّه أحمق! ما هو أحمق، ولكنّي لا أظنّه على الملّة[1].

براڤو! تصفيق وتصفير لأربع ثوان، أي بعدد الفصول: واحد، ثلاثة، ستّة، تسعة.

(١) عن الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (بتصرّف)، القرن التاسع والعاشر الميلاديين.

الحوار السادس والعشرون

صوت يقول:

آه.. ليت جسدي يستردّ قلبي

آه.. ليت قلبي يستردّ جسدي[1].

برافو! تصفيق وتصفير لثلاث ثوان، أي بعدد الفصول: سبعة، ثمانية، تسعة.

---

(١) ربيعة الكوزدري، ترجمها من الفارسيّة للبولنديّة دفلينبا.

الحوار السابع والعشرون

صوت يقول:

عندما يولد في الشرق القمر

فالسطوح البيض تغفو

تحت أكداس الزهر..

يترك الناس الحوانيت ويمضون زُمر

لملاقاة القمر!

يحملون الخبز والحاكي إلى رأس الجبل

ومعدّات الخدر..

ويبيعون ويشرون خيالاً

وصور...

ويموتون إذا عاش القمر!

ما الذي يفعله قرص ضياء

ببلادي..

ببلاد الأنبياء..

وبلاد البسطاء..

ماضغي التبغ وتجّار الخدر،

ما الذي يفعله فينا القمر[1]؟

براڤو! تصفيق وتصفير لأربع ثوان، أي بعدد الفصول: واحد، ثلاثة، ستّة، تسعة.

---

(١) نزار قباني، «خبز وحشيش وقمر».

الحوار الثامن والعشرون

صوت يقول:

الأماكن والمدن تُفرز روائح كالحيوانات، وما عليك إلّا أن تقتفي أثرها بإصرار، حتى تعثر على الأثر والمخبأ. يجب الإلحاح في الاقتراب منها على مدار الليل والنهار، فإذا قذفنا المللُ من هذا الباب نحاول من ذاك[1].

براڤو! تصفيق وتصفير لستّ ثوان، أي بعدد الفصول: اثنان، ثلاثة، خمسة، ستّة، سبعة، تسعة.

---

(١) ساشوك أندجي، دوكلا، ١٩٩٧.

الحوار التاسع والعشرون

صوت يقول: قُمْ يا يان وارقص معنا!

صوت يقول: القدم اليسرى أوّلاً!

صوت يقول: اليسرى!

صوت يقول: اسمع الإيقاع! واحد!

صوت يقول: يسار!

صوت يقول: بسرعة! لاه لاه لاه..

صوت يقول: عدّ! واحد اثنين ...يسار!

صوت يقول: صحّ!

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: يسار!

صوت يقول: اليدان... يان، ارقص!

صوت يقول: إلى اليمين وبشكل دائري.

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: واحد اثنان... يسار!

صوت يقول: أين العروس؟

صوت يقول: أين السمراء الرائعة؟

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: إن لم تكن هذه فتلك!

صوت يقول: إلى الأمام!

براڤو! تصفيق وتصفير لعشر ثوان، أي بعدد كلّ الفصول: واحد، اثنان، ثلاثة... عُدّها بنفسك[1]!

---

(١) يان سوبارت، بائع الحكايا، رواية شاعريّة عبر الثقافات، وارسو ٢٠٠٩، القرن ٢١.

الحوار الثلاثون

صوت يقول:

من المؤسف أيّها الناس الغربيّون أنّكم عندما تريدون أن تعبّروا عن شهوتكم تفعلون ذلك عبر الإيماءات. في ثقافتي، فإنّ الرجال يبدأون يتحادثون عن تفاصيل رغباتهم الجنسيّة. الكلمات ليست خجولة[1].

براڤو! تصفيق وتصفير لستّ ثوان، أي بعدد الفصول: واحد، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستّة، سبعة.

---

(١) يجي كوشينسكي، الموْعد الأوّل، كراكوف ٢٠٠٣.

الحوار الحادي والثلاثون

صوت يقول:

نحن اليوم لسنا مستقلّين، أي بالغين؛ فنحن لا نغتني باستمرار من تجاربنا ومعرفتنا للعالم، بل نحن نتراجع إلى حالة بعض الناس الذين يشكّل العالم لهم شيئًا مجهولاً وجديدًا وغريبًا ومسدودًا تمامًا، أي إلى وضع الأطفال[1].

برافو! تصفيق وتصفير لأربع ثوان، أي بعدد الفصول: ستّة، سبعة، ثمانية، تسعة.

---

(١) أودو ماكارد، نقلاً عن فرانسيسكو كاتالوتشو في كتابه: عدم النضج مرض زمننا.

الحوار الثاني والثلاثون

صوت يقول:

ومع ذلك لم يكن هناك شرق كهذا.

ولا.. ولن يوجد أبدًا[1].

برافو! تصفيق وتصفير لثلاث ثوان، أي بعدد الفصول: أربعة، سبعة، تسعة.

(١) ناظم حكمت، إلى بيير لوتي.

الحوار الثالث والثلاثون

صوت يقول:

تكريمًا لأوروبا، هناك في الشمال في وسط بهتان الاحتشام الكاذب، يمكننا ـ بالطبع بعد أن نغضّ النظر عن مختلف أنواع المجازر ـ أن نشكّ دون يقين بفظاعة إخوتنا. لكنّ هذه المادّة البيضاء المتفسّخة النتنة تطفو بكامل أبّهتها على السطح، عندما تتواجد في المناطق الاستوائيّة الحامية. حينها يفكّ أزراره ويتعرّى دونما حياء فتنتصر هذه الدناءة وتتمدّد. هذه حقيقة بيولوجيّة. عندما لا يقف العمل ولا البرد سدًا، وتبدأ القبضة بالتراخي. حينها نستطيع أن نشاهد ما يتبقّى من هؤلاء البيض، كالشاطئ الجميل الذي نشاهده بعد عمليّة الجَزْر. . . ماذا نجد هناك؟ الحقيقة، بُرَك من المياه الآسنة الفظيعة

والسرطانات، والجيف والغائط[1]!

برافو! تصفيق وتصفير لسبع ثوان، أي بعدد الفصول: واحد، ثلاثة، أربعة، خمسة، سبعة، ثمانية، تسعة.

(١) لويس فرناند سيلين، سفر إلى أطراف الليل.

الحوار الرابع والثلاثون

صوت يقول: قُمْ يا يان وارقص معنا!

صوت يقول: القدم اليسرى أوّلاً!

صوت يقول: اليسرى!

صوت يقول: اسمع الإيقاع! واحد!

صوت يقول: يسار!

صوت يقول: بسرعة! لاه لاه لاه..

صوت يقول: عدّ! واحد اثنين... يسار!

صوت يقول: صحّ!

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: يسار!

صوت يقول: اليدان... يان، ارقص!

صوت يقول: إلى اليمين وبشكل دائري.

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: واحد اثنان... يسار!

صوت يقول: أين العروس؟

صوت يقول: أين السمراء الرائعة؟

صوت يقول: لاه لاه لاه لاه لاه!

صوت يقول: إن لم تكن هذه فتلك!

صوت يقول: إلى الأمام[1]!

براڤو! تصفيق وتصفير لعشر ثوان، أي بعدد كلّ الفصول: واحد، اثنان، ثلاثة... عُدّها بنفسك!

---

(١) يان سوبارت، بائع الحكايا، رواية شاعريّة عبر الثقافات، وارسو ٢٠٠٩، القرن ٢١.

يختفي المحملقون ووجوههم تعلوها الخيبة من النوافذ. تنطفئ الأنوار. تُسمع أصوات الذين يظهرون على خشبة المسرح والمُحيين. لا نراهم في الظلام. التصفيق أو عدمه! تبقى مسألة ذوق.

افعل ذلك لوحدك

حكايا تحت الطلب. ما يُمكن أن يكون لو لم تكن هذه الحكايات؟

هل يوجد؟ بسطة ولوحة. . .

بعد حفلة العرس استقال ميريك من شركة غاز ـ سيك انك.

بدأت المغامرة حقًا

ننصح بالقراءة بصوت عالٍ.

هارون: أي بين النقاوة والسياحة

قُم. . . وتعالَ، فقد ولّى الشتاء ومرّ المطر وزال. تفتّحت الزهور وحان أوان القَضْب وبدأنا نسمع صوت اليمامة في أرضنا. التينة أخرجت فِجَّها وقُعالُ الكروم تفوح رائحتها. قم يا صديقي يا جميلي، قمْ. . . وتعالَ، لأنّ صوتكَ لطيف ووجهك جميل.

عندما قادتني قدماي إلى أحد الفنادق في دمشق كانت الدنيا ربيعًا. نعم، قم يا صديقي. . وتعالَ، لكن إلى أين؟

تعرّفت على جميلة عن طريق هارون البوّاب. ما كنتُ لأكون لولا جميلة. لولاها ما كانت أشياء كثيرة لتكون! هذا الكتاب على سبيل المثال. . . أحنيت رأسي شاكرًا.

قبل أن أستلم مفتاح الغرفة ملأتُ خمس استمارات للإقامة. هكذا يفعلون هنا. خمس صفحات مكتوبة بخطّ ناعم. يسار الصفحة

بالإنكليزيّة، من اليسار لليمين. ويمينها باللغة العربيّة، من اليمين لليسار. في وسطها نقاط. النقاط كانت تبدأ من اليمين أو من اليسار لا فرق. قدّم هارون واحدة من هذه الأوراق، فيما بعد، إلى دائرة الهجرة، والثانية إلى مركز الشرطة، والثالثة إلى المخابرات. الورقة الرابعة لـ...! والخامسة وضعها في مصنّف ضخم، في خزانة حديديّة فيها دولارات تجيء من أمثالي لقاء المبيت. قلتُ إنّي سأبقى شهرًا، ثم وقّعتُ في سجلّ النزلاء وأخذت الشراشف.

قال لي هارون: اعتبرْ بيتي بيتكَ.

ماذا؟ هل قال بيتي؟ ولكنّه فندقي! فندقي.. فندقي... فندقي...، فأنا مَنْ جاهد من أجله، وبقواي الذاتيّة اخترعته، وحزتُ على إعجابي بنفسي.

ماذا؟ وماذا عنه...؟ انتظرْ سأثيرُ إعجابك فأخترعك مع فندقك.

لا شيء البتّة. أبدعتُ، لأنّ الشتاء فرّ خائبًا. إنّه فندقي، وليس فندقك. يا لها من صلافة!...

تابع هارون البوّاب: اعتبرْه بيتَ أبيكَ أو بيت أمّك. لن أسمح لكَ بالخروج بدون فطور، وأرجوك أن تتناول الطعام الذي أعدّه لك.

يا لها من شطارة لأنّ سعر الفطور في الفندق يعادل ثلاثة أضعافه في المطاعم مقابل الفندق.

رأيته مرّة أخرى بعد الظهر. على السطح توجد شرفة من الخرسانة، وبار وعدّة كراسي بلاستيكيّة. وضعتُ حذاء (الأديداس) جانبًا وتلفتُّ من حولي. كان الدرابزين غير مجصّص ويرتفع هنا وينخفض هناك بارتفاع قرميدتين لا أكثر. بدا الدرابزين وكأنّه عليّة في

عمارة من النمط الواقعي الاشتراكي، فحيث يجب أن تكون مرتفعة تكون منخفضة والعكس.

قبل أن تجفّ الخرسانة وتصبح قاسية صارت مسرحًا لحفلة كبيرة من الأحذية التي داستها وتركت آثارها، فمنها الأحذية العالية العربيّة وأخرى الأديداس الأبيض. كان الوضع مختلفًا فيما مضى. كنّا نرى مختلف أنواع الأحذية معًا... وهكذا مرّةً لم تتحمّل الأحذية. وربّما لم تكن مرّة واحدة، فربّما لم تكن الأحذية معًا لمرّة واحدة فقط.

واحد... اثنان... بدأ الأديداس يطارد الصندل. طارده... وطارده حتى طرده، فسقط صندل عتيق ناشف، كان حتى وقت قريب فوق السطح المجاور. واحد... اثنان... ثلاثة... قامت الصنادل بإزاحة الأحذية الجبليّة التي كانت نادرة، وداست الأحذية الجبليّة على أحذية الموكاسّين التي كان يدوسها الكلّ. في الوقت نفسه كانت السماء صافية زرقاء.

دعاني هارون إلى طاولتِه وهي ليست للزبائن... كان برنامج الفندق ألفي مستمرًّا: نساء بثياب تقليديّة يرقصن بالجِرار. على منصّة موقّتة يعزف الموسيقيّون: دقّات على العود الملكي، ورعشات على الناي الفلّاحي، وعلى هذه الدقّات والرعشات يتصاعد الغبار نحو المصابيح ويسقط.

كان هارون يتميّز بتصرّفاته اللبقة. شابّ ذو عينين وديعتين وقوام رائع، فصيح في كلامه، صديق مرغوب به في الحبّ بسبب حدّة لسانه، هذا في إطار الأحلام العظيمة، صبور غير عنيد لا يفصح عن أفكاره بسهولة. سريع البديهة مهذّب يشعّ رزانة وكبرياء، يمدّ يد العون كلّما اقتضى الأمر لذلك. انحنى على أذني ورائحة العطر الطيّبة قد

غطّت على رائحة عرقه، وقال: يا صديقي أنت تسافر لوحدك أليس كذلك؟

نفذتْ كلمات هارون فيّ كدخان مُعطّر يفوح الجسدُ بفعله بحلاوة عشبيّة. جاء وقت الاستراحة...

خفّة كأنّك على بساط طريّ من الجنّة وقد بلغتْ النشوة أصابع الكفّ والقدم.

أجبتُ هارون بنعم، ولم أرغب بالحديث في هذا الموضوع. أطلق مربّي حمام صفرةً من أحد السطوح، وطَرقاتٍ على قِدْر: بم.. بم.. بم، بحيث طغتْ على الآلات الموسيقيّة، وتوقّفت النساء ولم يصمد الموسيقيّون. وكانت تصفير مربّي الحمام وطرقاته على القِدْر تحاول أن تطغى على صوت المكبّرات.

اختبأ الفنّ في ملحق البناء.

في عُمق الشرفة التي لم يكتمل بناؤها بعد... ما عمق الشيء غيرِ المُكتملِ؟ أتقول غير المُكتمل؟ هذا لا يملك عمقًا؟ أيمكن التخلّي عن إكماله؟ تؤلّف كتابًا ولا تُتمّه، وتنشره مع عمق عدمِ النضوجِ الذي قد يبدو ناضجًا.

مرّةً أخرى: في عمق شرفة لم تكتملْ، ترك صبي والده الساخط وذهب إلى القدر الفخّاري. طفل جبان في سنّ رياض الأطفال ترك فخذ أمّه. انبسطت أسارير ذات العينين الخضراوين، السمراء، بسعادة: آوه! وتمطّت بسعادة، أوي!! واغتبطت الأمّ النزقة بملء شدقيها، ومن الأذن اليمنى التي حرقتها الشمس حتى أذنها اليسرى. هل كان عندها حقّ أن تحدّق في الأشيب النحيل مقابلها، مُهملةً زوجها الملول.

ـ هارون! انتهى فحم النرجيلة ـ قلتُ لهارون.

ـ انتظرْ

ـ هذا لطف منك، قلتُ له.

ـ هذا شرف لي، أجاب.

حيّا عريفُ الحفلة الناشط ومحرّكها في آن واحد الوَالِدِين المُرهقين، وبنى هرمًا من الجِرار، ففرح الأطفال وهم يقفزون بهجةً.

ـ هير! بوي! لايت ماي فاير. ـ البدين المُحمّر يطبطب على بطنه برأس النرجيلة، والبوي يتقدّم، ينحني، ينفض الرماد من الرأس ثم يضع الجمرة.

تابع هارون حديثه بصبر قائلاً: ولكن هناك حيث تسكن، عندكَ صاحبة أليس كذلك؟ هي تنتظرك؟

بدأت الشقراء ذات العينين الزرقاوين، تفرك الحبوب على جبينها فيخرج القيح. كشف ثوبها عن صدر مترهّل، آخ من الثديّ المتدلّي! ويا له من صدر، والشعر المصبوغ... ومع ذلك تلمّس هارون النقاوة فيها. علمًا أنّ ذا العضلات كان يجلس قربه. عضلات منتفخة بفعل الستيرويد، عليها وشم «I love You» وليت «You» تمنعه من مغازلة المراهقات!

حتمًا كانت في جعبتي حكاية جاهزة لمثل هذه الحالات، فقلت لهارون:

ـ إنّها تنتظر. كان لديها الكثير من الأشغال، لذلك لم نتمكّن من السفر معًا. تعرّفنا على بعضنا في المدرسة، وأحببنا بعضنا فورًا، ولا نزال نحبّ بعضنا. نحبّ بعضنا جدًّا. (زلّتِ الحكاية عن مسارها

فجأة): نحن لا نرى بعضنا، ولا نسكن معًا كي لا نُضرّ حُبَّنا بأضرار العيش معًا. نحن أحرار لا يشغلنا شيء، نقضي إجازتنا مُستقلّيْن لا يشغلنا أحد، ونعود إلى مسكنيْن مستقلّيْن لا يشغلهما أحد. نحبّ بعضنا.

ـ مساكنكم فارغة، عقّب هارون.

كان ذو العضلات أيضًا يدخّن. انهزم العُرف الغريب أمام العادة. عُرْف غريب يحبس العضلات ولا يسمح بالجلوس براحة. جاء النادلون بالشاي. فاحت رائحة نعناع اصطناعي. قِطَعُ البقلاوة الغاطسة في العسل كانت تشبه صورة ضريح للحلواني الذكي الذي اخترعها قبل قرون.

شرع عرّيف الحفلة وهو يشير إلى الوالدين المتعبين، وعاد الأطفال المرحون يقفزون إلى المقاعد المهزوزة:

ـ سيّداتي سادتي، يُرجى السكوت. ـ كانت نظرته المتوقّدة العاقلة الفاحصة أقوى من أن تكون لعرّيف حفلة. كان وكأنّه يبشّر بواحدة من أمراض الحبّ، وبافتراء كمُخبر كان يهزأ من أشياء هامّة، كالذي يدمّر الأرواح السليمة بأدوية سامّة. تابع الكلام: الآن لحضراتكم... لحضراتكم أيّها الأعزّاء... أقدّم أعظم نجومنا! النجم المشهور في حلب والقدس! ها هو ذا أمامكم! أقوى وأشجع وأجمل الرجال... علي أكبر! الجبّار كالجسر! برافو... وانهمك العرّيف بالتصفيق نحو الميكرفون، وتضاعف الصوت في المكبّرات، وضجّت الصالة بالتصفيق.

ـ تك... تك، فركت الشقراء جبينها، تك... تك، وصار جلدها أكثر احمرارًا، وانفعلت، عندما بدأ ذو العضلات يطرق على

الطاولة بم... بم... بم... برم... برم.

صرخ عريف الحفلة من على خشبةٍ تزعم أنّها خشبة مسرح: علي أكبر هو نمر الشرق.

بدأ البدين المحمرّ يعرق جرّاء شربه للشاي. كان شعره من الأمام محلوقًا كشعر القنفذ ومن الخلف تدلّت خصلة تعاند القنفذ، فوق فانيلا التصقت بجسده الذي حكّه برأس النرجيلة.

ظهر علي العظيم بوقار، بكتفين متوتّرتين قويّتين مدهونتين بالزيت، وبصدر مُشعِر هائل يلمع بسيف النبي ذي الرأسين... ويا له من سيف! عاد هارون البوّاب للكلام، ونظره طوال الوقت مصوّب نحو الشقراء. أعرف بنتًا جميلة، تعرّفْ عليها، لا يوجد في دمشق كلّها بطولها.

اهتزّ المقعد فجأة. آه! الحرارة شديدة. نرجيلة. فندقي. رنّة... وطنّة! روائح. عربيّات ذوات أجساد تُجاري الأرابسك في جمالها... ممتاز! القالب المُخاتل لا يريد أن يتكيّف.

ـ براااااڤو! براااااااڤو! ـ صرخ الأطفال الجالسون على رُكَب الوالدين. ـ براااااڤو! براااااڤو! ـ من المكبّرات. بُم.. بُم، مربّي الحمام طَرَدَ الطيور والآن برااااااڤو، براااااڤو! بُم.. بُم! كان يضرب في القِدر بإيقاع لدعوة الطيور للعودة مرّة أخرى. ـ بُم! ـ مرّة أخرى. أو بكلّ بساطة التحق بركب المُصفّقين.

علي أكبر يُحيّي. صوت أبواق. مدّت السوداء الرائعة رأسها من الملحق. ثوب فضّيّ ممزّق عند الرّدن. تلفّتتْ واختبأتْ. أرخى علي أكبر يديه فسكتت المكبّرات... صمت. وقف قليلاً وجال بنظره وانحنى، ولم يرفع رأسه حتى وصل إلى قدميه.

ـ هيي يو! لايت ماي فايير تو. ـ صرخ أحدهم من خلفنا.

نفذتْ كلمات هارون فيّ كدخان مُعطّر يفوح الجسدُ بفعله بحلاوة عشبيّة. وصلت الغبطة حتى...

ـ عندي صاحبة ولا أريد أن أتعرّف على غيرِها.

انتظر العريف المتحمّس ذلك، فتوقّف عن التصفيق، وبدون أدنى صوت توجّه نحو الجمهور الذي ليس بجمهور، ووضع إبهامه على فمه بالعرض وثبت في هذه الوضعيّة.

ردّ هارون بهدوء تامّ ووقار: نعم.

مدّدت السوداء الرائعة لوحة المسامير. بدأت الشمس تتسرّب عبر الظلّة، ولمعت المسامير المنتصبة على اللوحة. انبهرت عينا الشقراء، وكان هارون يراقبها طِوال الوقت. فجأة توقّفت عن فركِ جبينها. تَكْ تكْ تكْ! واستدارت نحونا. استدارت بجبينها نحو جبيننا...

ـ يجب ألّا يبقى الرجل لوحده لمدّة طويلة، قال البوّاب. بدأ الظلّ يسقط على خشبة تزعم أنّها خشبة مسرح. الرائعة تجرّ اللوحة وتُخفي الوميض، وتضع لوحة المسامير بالعرض. وقف علي الأكبر.

آه آه آه!

اسكتْ هذا لا يؤلم بعد. طوّف بنظره الوديع، سيّر عينيه ورفعهما يقودهما القَدَر وبقوّة سماويّة تجعل منه سيّد المسامير المدقوقة في اللوحة.

تابع هارون: زرتُ يومًا أخي في هولندا، كان في عمله يومَ قدومي، لذلك لم يأت لاستقبالي في المطار. تبادل الناس التحيّات، أمّا أنا فلم يعرفني أحد، فتنحّيت جانبًا، وطغى عليّ شعور عارم بالألم

جرّاء وحدتي، ولم أسيطر على دموعي فبكيت بمرارة. توجّه إليّ أحدهم من تلك المدينة قائلاً: حين أدركتُ أنّك غريب الدار، ولا أحد يستقبلك ولستَ من هذه البلاد، عقدتُ الرأي أن أخاطبك بروح الصداقة، لأنّي عرفت سبب كربك، ثم هلّل بي مرحّبًا. وفي الطريق إلى المدينة بادلني أطراف الحديث كصديق. عثرت على بيت أخي وصافحتُه وحيّاني. اللهمّ وفّقْ هذا الإنسان.

ـ برااااڤو! برااااڤو! ـ وميض ضعيف... هدأت الضجّة.

جلس علي أكبر القرفصاء، أفرد كتفيه فاختفت المسامير كظلّ يختفي في الظلّ بتأثير الوميض. كان يقاوم. أحقًّا يقاوم. أجل. شاهدت ذلك بنفسي. كان يقاوم كي لا يلمس لوحة المسامير. رفع عينيه وجال بهما وَصال، رغم أن الظُّلّة حجبت الكثير من القوّة السماويّة. بِصَمتٍ، وبصمت تامّ بدأ ينزل. هائل. نزل أكثر... وأكثر. آخ! صدرت منه أنّة. ونزل أكثر مرتكزًا على يديه وكأنّه يقوم بتمرين الضغط. أَفْلتَ ضرطة كريهة. ونزل بكلّ حجمه على صفّ المسامير. هل فَلِتَ؟ أجل. هبط... على المسامير... البارزة!

كان عريف الحفلة يقفز على الخشبة كأنّه في حلبة مصارعة. هل انغرستِ المسامير؟ هل هذا استهزاء؟ حذار... حذار! من يستهزئ هنا؟ لا أحد يستهزئ من أحد. كلّ شيء جدّي. المنصّة بأكملها تصطنع الجدّيّة بصمت، بصمت عميق. بين لحظة وأخرى كان يلتفّ ويلوّح بإبهامه. يجب إنهاء القضيّة. لم تعد الكتفان تقاومان. قدمان رشيقتان وصدر سقط، لكنّ المسامير لم تنغرسْ... ماذا؟ تبسّمت أعضاؤه بوداعة وودٍّ؟!!

استطرد هارون: لن تجد لا في البرّ ولا في البحر أشدّ حساسيّة

أو نعومة من صديقتي جميلة. . . ممشوقة القامة، بضّة التقاطيع، شعرها أجمل من الأحجار الكريمة وعيناها سوداوان. إذا نظرتْ تحسدها الظباء والغزلان، وحين تتمايل في مشيتها تحسدها أغصان الصفصاف وتخجل من نفسها. فإذا كشفتْ عن وجهها انطفأ القمر والشمس خجلاً. ضخمة الردفين، دقيقة الخصر، مكوّرة الصدر، تروي غليل الظمآن، وجهها كالشمس إشراقًا غير أنّها أجمل من الشمس. ـ أخذتُ رشفةً من الشاي. انزلق الماء المحلّيّ الخفيف في فمي كالجيلاتين. ـ ليس في مقدور أيّ كائن أن يتفادى سحر هذه الغزالة اليانعة.

بدأ ذو العضلات يشدّ من عضلاته. بببفووو! لم يُفِد الستيروئيد بشيء. ترهّلت عبارة «I love You» وتراخت وسال العرق على اللوحة المُستهلكة. تك. . . تك. . . تك على الجبهة؟ المَشَاهِد معكوسة على الجبهة.

ـ سيّداتي. . . سادتي! ـ كم كانت نظراتهم وحَمْلَقَتهم متعطّشة للدماء، مفترسة!! وساد تحت الظلّة البيضاء صمت لا نهاية له. . . هل هو منته؟ لا بدّ من مقاطعة النقاوة! الجميع يحسده لأنّهم ليسوا كما هو. كم أثار إعجاب الوالدين المُتعبين، والأطفال اللّاهين كم تلهّفوا. يا له من إعجاب بِـ علي! هناك النقاوة وهنا التغضُّن، هناك الحيويّة وهنا التراخي. . . أهذا عُقم؟ نفخ وشدّ عرّيف الحفلة جسمه وقال: تقدّموا! ولم يتقدّم أحد منه.

ـ أوه! ـ أنّتْ الأمّ النزقة وتلاشت ببهجة منحرفة.

فجأةً سُمع صفير دموي. مدّ عرّيف الحفلة يده للميكرفون. انزلق واصطدم باللوحة.

ـ ماذا؟

مرة أخرى: اصطدم العرّيف باللوحة.

ـ ماذا؟

طنين دموي.

هل كان هنا أم إلى جانبنا فوق السطح المجاور؟

نظرت مقابلي. كان مربّي الحمام على الشرفة وفي السماء حمامة. هاجم الطائرُ وليَّ نعمته. لم يصمد أمام التلهّف. على وليّ النعمة؟! أجل! رأيت هذا بنفسي. يا له من نكران للجميل. حيوانات مسعورة!

مسعورة؟

تلفّظ علي متضرّعًا في لغة غير مفهومة.

ـ برافو. . . ـ اضطرب العرّيف الناشط، وألقت السوداء الرائعة نظرةً على ساعتها. ضبط نفسه. ارتباك تامّ. ابتسم ولكنّها كانت نصف ابتسامة. وأخيرًا اتّخذ مكانه وصفّق، ثم. . . قفز وصفّق. برافو! بعدها قفزة. برافو! بعدها قفزة. برافو دوّت نحو الخشبة التي ليست خشبة مسرح.

علي أكبر. جسده يلمع بصفاء. ينظر بوداعة. هم ينظرون. ورغم الوميض ينظرون الظلّ. كان الدم يرشح ويسيل من جرح في قدم الولي. برافو! ـ دم. ـ برافو! ـ دم. واختفى علي أكبر داخل الملحق.

ـ سيّداتي العزيزات سادتي الأعزّاء ـ شرع عرّيف الحفلة ـ أبحثُ عن سيّدات جريئاتْ. لا تخفن يا سيّداتي الجميلات! سَيُرينا عليّ

أكثر... أكثر... وأكثر.

توجّه نحو سيّدة سمراء قائلاً: أنتِ سيّدتي ألا تقدرين؟

نظرت السمراء إلى زوجها فقال لها باللغة الفرنسيّة: إن أردتِ لَكِ هذا، لا تكوني جبانة، اذهبي ـ ولوّح بيده. ـ لم أمنعكِ من شيء أبدًا ولن أفعل ذلك. أنت حرّة... تريدين، إذًا اذهبي. ـ يا له من زوج!

جرّ العرّيف ذات العينين الخضراوين قائلاً: شكرًا.. ولا تخافي. صفّقوا لها. ـ ودندت المكبّرات. ـ مَن السيّدة الأخرى؟ ـ وأشار إلى السمراء متّجهًا نحو الصالة. ـ علي ينتظر... لا تخافوا. أنتِ سيّدتي! ألا تقدرين؟ مدَّ يده نحو إحداهنّ ـ نعم أنتِ!

تجاهلت الشقراء الدعوة وكأنّها موجّهة لشخص آخر. ولكنّ الطاولة خلفها كانت فارغة. دون ريب بدأ الوشم يتضخّم، ولكن بريبة. هل يحبّ؟ بدت العضلات بضّةً قليلاً ومترهّلة قليلاً. أرخاها.

ـ سيّدتي العزيزة ـ وأمسك العرّيف بها ـ السيّد بنفسه يريدك. ستُعجبين بعلي الرائع.

جلبت السوداء الرائعة لوحة المسامير الثانية. ماذا جلبت؟ كفى! لقد سال الدم على المسرح. حيوانات!

لسنا نحن، بل هم من الشرفة الغريبة. كان الصندل العتيق في مكانه يجفّ.

علي أكبر بضماد رماديّ. من جُرْح في قدم الولي رشح الدم. قرفصَ. الصدر النقي بلا شائبة... من أدار اللوحة بشكل يُظهر الدم؟ جلس برخاوة كأنّه على سجّاد أكبري ليّن، مستندًا في الظلّ على مرفقيه فوق لوحة مليئة بالمسامير. يا له من مكان رائع للاستراحة.

قال العرّيف للسيّدتين: تقدّما من فضلكما.

تعرّق قفاه المكشوف. هنا خيوط من الدم وهناك مسمار مكسور. وضعت السوداء الرائعة لوحة المسامير الثانية بالعرض على مؤخّرة علي. وصارت اللوحة أرجوحة مساميرها على مؤخّرته ومخدّتها من الوجه الثاني مقعدًا للسيّدتين تتأرجحان عليه. إنّها أرجوحة رجّاليّة لأرداف نسائيّة أحرقها الهواء العربي الساخن.

أخذ العرّيف بيد السمراء: أنتِ هنا. وتوجّه للشقراء: والآن أنتِ.

صوت أبواق.

ـ تفضّلا قِفا ظهرًا لظهر يا حبيباتي ـ وبينكما علي. ـ والآن فلنجـ... لسْ، تفضّلي يا حبيبتي ـ ودفع العريفُ الناشط الشقراءَ ـ ارتاحي يا حبيبتي! ـ أفردت السمراء رجليها، تستعدّ للجلوس دافعة بمؤخّرتها إلى الخلف. كوني شجاعة يا حبيبتي. اجلسي يا حبيبتي!

كان عريف الحفلة يقفز على الخشبة كأنّه في حلبة مصارعة. هل انغرست المسامير؟ هل هذا استهزاء؟ حذار حذار! من يستهزئ هنا؟ لا أحد يستهزئ من أحد. كلّ شيء جدّي. المنصّة بأكملها تصطنع الجدّيّة بصمت، بصمت عميق. للشقراء: تفضّلي. أفلتتْ تغنّجت...

ـ موسيقى! ـ وهدرت من المكبّرات أغنية أوروبيّة من نوع الديسكو. الظهور متساندة والأرداف مُعلّقة. نظرت الشقراء والسمراء ثقُلتْ، وأخيرًا انغرزت المسامير... أوففففف هبوط من اليسار وانتفاش من اليمين. كادت السمراء تنزلق لو لم يدفع العرّيف بالشقراء نحو مقعدها لتجلس. قال هارون وهو ينظر إليها: الحمد لله الذي جعل من جسد المرأة مصدر أعظم اللذات، وصنع جسد الرجل لها

لترتاح أعظم الارتياح. هو الذي زيّنها بالنهود والرقبة وورّد وجنتيها ووهبها عيونًا تؤجّج رغبة الرجل، وأهدابًا أدقّ من ورق العشب. كما وهبها الله الشفة والفم واللسان، وهي كأثر حافر الغزالة على رمل صحراوي. لنحمد إذًا ولنمجدْ ذلك الذي خلق المرأة بسحرها ووميضها الغاوي وعلّم فنون الجماع التي تثير الرغبة. الحمد لله الذي بفضله لا يستطيع رجل أن يهرب من عشق المرأة الجميلة...

أرداف فوق الأرجوحة فوق مسامير، فوق عليّ. عادت الأرجوحة إلى توازنها. وضجّت الشرفة وغرقت بالدخان. بُمممم بُممم بُم! فجأةً بُم. تبدّدت النقاوة، وبشكل يثير الإعجاب، سالت قيحًا ودمًا.

ـ سيّداتي الجميلات سادتي الوسيمون، أمامكم أقوى وأشجع وأجمل ـ وسطَ الدخان هائل كجسر. ـ نقرت الشقراء لحنًا ورفعت يديها ثم رجليها وبدأت تدقّ برجليها على اللوحة، تلقّفت السمراء ذلك، وصوّحت: ببيففففوووو. حمّرت القفزات الخدود وصلّبتها المحفّزات... ـ إنّه جسر التفاهم، جسر الاتّحاد، وسطَ الدخان! النقاوة كامنة بيننا.

ـ ما الطبل إلّا جلد، لكن صوته يخيف الجميع ويرعبهم. ـ وأنهى هارون قصّته ـ حتى أفضل وصف للجنة سيكون بعيدًا عن الحقيقة.

مزّقت الشمس الدخان وظهرت ابتسامة الدرويش. كانت ابتسامة مقلوبة رأسًا على عقب. أغنية: قف. لا يمكننا فعل أيّ شيء لطالما كان الدرويش مفكّرًا، ولطالما «فكّر» تعني بالعربيّة أن يستخدم المرء عقله.

صمت، صمت تامّ... وانهال التصفيق. المدخّنون الغارقون في

سبات والآباء والأمّهات المتعبون والأطفال المرحون كلّهم كانوا يدقّون الأرض بأرجلهم ويصرخون. براڤو! براڤو! بدون مكبّرات وميكروفونات براڤو! براڤو لتقاطيع نقيّة، تثير الإعجاب. براڤو للشقراء الرائعة وبراڤو للفاتنة السمراء. خدود محمرّة. شقراء رائعة وسمراء جريئة! مرحى.. مرحى للسيّدات.

وقف قليلاً، واستمع، وأخيرًا انحنى، ولم يرفع رأسه إلى أن لامس جبينه قدميه.

الناشط المتحمّس: إلى اللقاء غدًا، وانسابت من المكبّرات موسيقى شرقيّة راقصة. الشقراء ذات العينين الزرقاوين تثب بهمّة، أمّا I love you فقد اشتدّ بدون ستيرويد. على خشبة تزعم أنّها خشبة مسرح وبشكل نقي انطلقت الأكتاف والأفخاذ والصدور والأرداف، بنعومةٍ كسجّاد أكبري الناعم، في ظلّ نشوة، على المرافق والمخدّات. يا له من مكان رائع للاستراحة!

ودّع ضوءُ المساء النهارَ بغنج كعشيقة مشتاقة. وتوجّهت السوداء الرائعة نحو الكاتدرائيّة. كان ثوبها الفضّي بلا هندام والدموع تلمع في عينيها.

يقول ميريك في اليوميّات:

في غرفتي بالفندق كان يفصلني عن الجيران جدار من الخشب الرقائقي مُغطًّى بورق جداري كبقيّة جدران الغرفة، المزيّنة بخطوط عموديّة بينها صفوف من زهور صفراء صغيرة من التوليبان. والحوافّ ملوّنة بالبيج تذكّرك بأعمدة معابد لآلهة لم يعد أحد يتذكّر أسماءها. وكأنّ حريمًا غريبًا، منسيًّا وسط حقول من التوليبان الهولّنديّة وُجد في هولندا. كان هارون قد خيَّرني بين غرفة ببلكون يطلّ على الشارع،

لكن بحمّام مُشترك مع الآخرين، أو غرفة مع منفذ تهوية على الردهة، ولكن مع حمّام . فاخترت المرحاض.

ـ أهلاً بولّندا، يقول كعادته عندما يشاهدني. «بكلّ بساطة سأذهب معك وأدلّك». خربش بالإنكليزيّة على طاولة الاستعلامات وبالعربيّة «الحرم». الوافدون لا يراعون المقدّسات. فيقرأون الحريم. الحريم! والنقاوة تسيل قيحًا ودمًا.

ـ انظرْ! قالها ونحن نقف قرب النافذة. الأحياء العصريّة تحيط بدمشق القديمة وبالمُنخفض، وإلى الغرب، تتسلّق هذه الأحياء السفح نحو برج التلفزيون. وتابع: إلى الأسفل مغارة. هناك ولد إبراهيم، خليل الله وصلّى موسى وأيّوب ولوط. أتعلم بأنّ قايين قتل أخاه هنا. . . بعدما قدّما قرابينهما، وقُبلت من واحد منهما ورُفضت من الآخر؟ الثلج يسقط هنا في الشتاء.

في هذا الوقت من السنة ينام البوّاب على أريكة في الرواق، ويقضي أماسي عطلة آخر الأسبوع في مشاهدة البرنامج التلفزيوني البولّندي «من يربح المليون».

ـ نحن أيضًا لدينا مالكو الملايين. أعيش في أخصب بلاد الدنيا حيث الفواكه بأنواعها، وينابيع المياه والخضار الكثيف. ولدينا كذلك الكثير من النُّسّاك القدّيسين وغيرهم من العظام الذين نذروا أنفسهم لله. ولكن في تلفزيونكم يُظهرون عُريًا أكثر. ـ تعلّم هارون عدّة كلمات باللغة البولّنديّة.

ـ سأتكلّم معهم عندما يأتون إلى هنا. سيأتون أليس كذلك؟ أليست دمشق بوّابة الشرق وبداية لهب المشرق اللامع؟ إنّها عروس المدن تتحلّى بعطر الرياحين وخضرة الحدائق. هنا الكثير من الأشجار

والأنهار التي لا تجفّ أبدًا. في المدينة أسواق فاخرة وحمّامات ومساجد كثيرة. أنظر هناك! مسجد المدينة الرئيسي. مُنتهى الكمال والجمال الذي لا يوصف. فهو الأعظم والأفخم في الدنيا. لا مثيل له ولا شيء يضاهيه. زُخرف بالذهب ويستند على دعامات من حضارات قديمة. أتعرفُ قصّته؟ ذات يوم كانت هنا كنيسة، وعندما فتح المسلمون دمشق اتّفقوا على أن يشغلوا نصف الكنيسة، وبنوا فيه مسجدًا، وبقيت الكنيسة في النصف الثاني وفيها قبر يوحنّا المعمدان الذي يسمّيه المسلمون النبي يحيى.

هارون أيضًا كانت له خطيبة. تعرّف عليها عند خاله واستغرق الحديث أقلّ من ساعة. أمّهما كانتا قد تفاهمتا في الأمر منذ كان هارون وخطيبته صغيرَيْن. والآن يعمل هارون ليجمع تكاليف العرس.

ـ تسكن خطيبتي في غرب سوريا. هناك قرى مسيحيّة وأديرة. يستقبلون أيّ ضيف يحلّ عندهم سواءً كان يهوديًا أم مسلمًا، ويطعمونه الخبز والجبن والزيتون والكَبَر والخلّ والقبّار.

صاحب الفندق كان خاله، لذلك فسح له المجال أن يعمل ليجمع تكاليف العرس، حتى لا يقتفي الابن الصغير أثر الابن الكبير. في أوقات الفراغ كان هارون يتعلّم اللغة الروسيّة. كان عنده كتاب محادثات، وأحيانًا كان يسأل عن بعض العبارات.

ـ حبيبتي أوكرانيّة، اسمها لوبوف وهي راقصة تعمل في نادٍ ليليّ. أودّ لو تكلّمت بلغتها. ستكون مفاجأة.

كان هارون يشاهد القناة التلفزيونيّة البولّنديّة «بولسات» ثم يمارس العادة السرّيّة، وعلى الفور ينام حتى إنّه لا يقفل التلفزيون. كنت أسمع هذا من منفذ الهواء كلّ ليلة، وكنتُ أحتار هل أسدّ النافذة ليلاً وأنام

لوحدي أم أنام برفقته ورفقة بولسات.

ـ يشتهر الدمشقيّون بأنّهم لا يسهرون ولايقيمون الولائم لوحدهم. الوجهاء منهم وزوجاتهم يدعون الأصدقاء والراقصين والدراويش. ويفعل الشيء نفسه التجّارُ وغيرهم من الأثرياء والأقلّ ثراء، بل حتى البدو. يجتمعون في بيت واحد منهم أو في المسجد ويجلب كلٌّ منهم طعامه ويحتفلون معًا.

ـ كلّ هذا الجمال يأتي ليتسلّى ـ قال هارون بحسرة ـ الهولّنديّات والكنديّات والفرنسيّات... العين لا تشبع من البصر، ولا الأنثى من الذكر. فقط حبُّ الرجل لأمّه لا يعرّضه للسخرية. وأنا مَدين لها لأنّها ترعاني. وضعي الماديّ لا يسمح لي بالتعاطي مع النساء. في الفندق أتعرّف على اللغات. سيأخذني أخي إليه يومًا. أنا كهارون الرشيد العظيم، فما الشعر إلّا حبّ فاشل...

ـ وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمشاهد. والأوقاف في دمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها، فمنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها، لأنّ أزقّة دمشق لكلّ واحد منها رصيفان في جنبيه يمرّ عليهما المترجّلون ويمرّ الركبان بين ذلك (...) ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهنّ وهنّ اللواتي لا قدرة لأهلهنّ على تجهيزهنّ. ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزوّدون لبلدهم.

ليس في برامج التلفزيون مسابقات أو برامج معرفيّة عن البلاد، بل توجد نشرة إخباريّة كذلك. لم يرد هارون أن يتحدّث عن الأكراد في سورية. هكذا درجت العادة.. الأفضل الكلام على صدّام حسين الذي أرسل لأقربائه أثداء نساء مقطوعة في صناديق للأحذية.

والأحسن على إسرائيل وكيف تلِد النساء المسلمات تحت عيون الجنود اليهود الذين يفتّشون سيّارات الإسعاف الفلسطينيّة طويلاً.

ـ انظر إلى هؤلاء الفلسطينيين، فهم لا يتجاوزون المليونين. عصابة من المتخصّصين في الألعاب الناريّة. عليهم اللعنة! نحن ستّون مليونًا وليس لدينا دولة. لكنّنا لا نضرّ أحدًا فلا أحد يهتمّ بنا.

أبيع حكايا طازجة، حقيقيّة، مُجرَّبة.

ـ مرّة أخرى ستقضي المساء لوحدك؟

تملّكني الألم بسبب وحدتي فلم أتماسك نفسي، وسألتُ عن جميلة. قال هارون وهو يبتسم:

ـ عندي عدّة أصحاب في الفنادق المتاخمة وهم معجبون بها. كانوا يرتدون أجمل الثياب ويتعطّرون ويخرجون لملاقاتها. كانوا يتربّصون حين تذهب للتسوّق. قالوا لي عن صفع عجيزتها. هاه... هاه... هاه!... ـ كان يتكلّم معي بأريحيّة تامّة، بسبب العلاقات الحميميّة التي ربطتني به. فتًى يافع يتصرّف بلباقة. كانت كلماته أثمن مساعدة، فقد كانت تحذيرًا وقَدَرًا سعيدًا. لذلك كانت تكبح بشكل مثير للعجب اندفاعات النفس وتشدّ من إزرها برقّة، كانت سبب نشاطها وقوّةِ انفعالاتها. ـ عاد هارون لحديثه: كانوا يظنّون أنّ المسألة بسيطة، لأنّها كانت تبتسم للجميع... كلّهم اتّصلوا بي ليقولوا إنّهم فشلوا. لم يكن أيٌّ منهم يعرف شيئًا عن الآخر، كما لم يعرفوا أنّني أعرفهم جميعًا. كنت صامتًا كالقبر. صدّقني. كنت أتابع القضيّة أوّلاً بأوّل. وكنت أتسلّى بذلك. وأخيرًا عرفوا، وبدأت الرهانات. أتعرف؟ لم يكسب أحد الرهان. ـ نظر هارون نحوي وتابع: لا... لا! إنّهم شبّان بسطاء. أمّا أنا أيّها الصديق العزيز فلم أحاول... اقتصرت على

جمع الرهانات... ها ها ها! لا أبدًا إنّها لا تثير اهتمامي أبدًا، هي نحيفة أكثر من اللزوم... خُذني بحلمك ولا تزعلْ! هي ليست سيّئة، ولكنّها ليست على ذوقي. اسمعني فقد سكنتُ سنتين في أثينا. النساء هناك يتصرّفن مثلها، لكنّ هذا لا يعني أنّهنّ يمارسن الجنس مع أيّ كان... كما قلت لك لم ينجح أحد. اطمئنْ هي امرأة طيّبة.

صمتٌ... صمت تامّ...

عندي صاحبة ولا أريد أخرى!

أحبّ هارون السائحة من كلّ قلبه، لم يكن يتصوّر غيرها وهجر الأخريات من أجلها. كانت أعجوبة في الجمال والفتنة والقامة والتقاطيع البضّة. ثقيلة الأرداف دقيقة الخصر، كأنّها إلهام لشاعر. كان هارون يجالسها الليالي ويشرب من شهد رضابها، ووهبها قلبه المليء هيامًا، وأشبع شهواتها. وجاء موعد الرحيل الذي لا يستطع أحدٌ أن يؤخّره أو يؤجّله ولو لساعة واحدة، فاستيقظ هارون وحيدًا.

ـ أسير على الدرج وكفّي تربت بين أثدائهنّ وتتّجه يدي بين الأفخاذ، حتى تتحرّك دواخل القطنيّات. بما أنّها إرادة الله فأنا حين أنظر إلى قامة امرأة، أنتصب وأستطيع أن أُنهي عذريّتها. الفندق يشبه قصر هارون الرشيد الذي لا مثيل له من حيث البنيان، ومن حيث الكتلة المدروسة بدقّة. منظر حُجره يبدّد الهموم. مَن أنا حتى أرفض هؤلاء النساء؟ لديّ مفاتيح كافّة الغرف، وأنا على استعداد لتلبية أيّ طلب.

جاء موعد الرحيل. أحبّ هارون السائحة من كلّ قلبه، لم يكن يتصوّر غيرها، وهجر الأخريات من أجلها.

ـ خرررررر.. خررررر! ـ ينام النزلاء ليلةَ الربيع في الشرفة.

التلفزيون يهدر. وإذا كان خطيبها نائمًا إلى جانبها؟

يقول هارون: استقبلتهما بكلّ سرور واحترام. أكلا معي الطعام الذي أعددته، استراحا في الظلّ في قلب المبنى بعيدًا عن أنظار الغرباء، ولم ينقصهم أيّ شيء. قاسموني مكان أكل الوجبات والاستراحة. حقًّا عشنا في مساحة واحدة، وصنعت الكثير، وأستحقّ لقاء ذلك جائزة. مع ذلك فخطيبها صديقي. ألم يقال ليس من اللائق أن تتعامل مع المرأة بشكل غير عادل؟

حينها كان الباسل يعاني، وهارون يشرح للصَّلِف أنّ هذا غير جائز. ولكنّ الأعور لا يسمع، فيرتفع الشرشف فوق المُكتشِف. من غير الممكن بدون المُنقذ! وتركّزت القوّة في الماحي وتحرّكت الرحّالة المشتاقة باتّجاه اللصّ. في أيّ مكان من القصر سأستقبل المُحرِّر؟ ستر هارون على السبّاح وجاء بالقارب. وأخيرًا تقابل الطاعن مع المُفعمة بالحياة في ساعةٍ ينسى فيها أباه وأمّه التي ولدته.

عندما عادا، أهانه الخطيب وشتمه على دناءة فعلته وعلى ندرة فضائل الوليّ، أمّا هو فلم ينبس ببنت شفة. وما إن انتهى من سبابه ضحك هارون وقال:

ـ الويل لك أيّها الغبي، فقد دخلت بيتي، وأكلت من طعامه وشربت نبيذًا أعددته لك، فمن تُدينُ أيّها القوّاد؟ فالطّوبى والسلام الأبدي لأولئك الذين يعرفون كيف يقبّلون الوجنات برقّة، وبطريقة ملائمة يضغطون على الخصر ويُظهرون القضيب للمهبل، ويدلقون عليهما العسل.

ولكنّ هارون كان يؤدّي واجباته كشخص مخلص بأمانة. أليس من العيب أن ترتكب الفاحشة مع فتاة مسيحيّة في الهواء الطلق، بما لا

يرضي الله سبحانه وتعالى فتجلب لنفسك نار جهنّم؟ لأنّ الأشياء التي احتكّت ببعضها تبقى ملتصقة ببعضها، حتى بعد فصلها عن بعضها، ومن هنا سترتبط النظافة بالقذارة. جرّ الفزعُ المُكتشفَ ولم يعترف الخجول للصامتة. قفزة للأعلى قفزة للأسفل... للأعلى للأسفل... ومن أجل الوفاق انهارت قوى البصّاق المترهّل. عند الفجر، المُتعطِّشةُ انتظرت اللاسع حتى يخرج الخطيب ويرحلون.

ـ خذ منّي نصيحة يا صديقي ـ كان هارون دائمًا ينجح في دور المذيع ـ المرأة كالفاكهة التي تفرز الحلوَ إلى أنْ تدعكها بين يديك. انظر إلى غصن الريحان إذا لم تفركه بيديك لن يفوح بالرائحة. الشيء نفسه مع المرأة. إن لم تنعشها بالدعابات والغزل المختلطة بالقبلات والقرصات واللمسات لن تحصل منها على ما تصبو إليه، ولن توقظ في قلبها الميول نحوك أو الاهتمام بك. عامل إذًا المرأة كغصن الريحان إذا أردت أن تمنحها الرضى.

نادى المؤذّن من المسجد المجاور، واخترق صوته الشارع... تبعه مؤذّن ثانٍ ثم ثالث وتداخل الأذان ببعضه. سيطر عليّ شعور بالحنين أفقدني السطيرة على كلامي!

الحرارة شديدة. نرجيلة. فندقي. رنّة... وطنّة! روائح. عربيّات ذوات أجساد تُجاري الأرابسك في جمالها...

تركت حذاء الأديداس في الرواق.

جميلة واليوميّات والسرعة المخاتلة للجمال

هل تتذكّر؟ حكايات تحت الطلب.

ـ تك تك!

في الجبين تك تك، وازداد احمرار جلدي المحروق. تك تك. . . وازداد نزقه.

لا، كان هذا عند بابي في الغرفة في الفندق في دمشق عندما كنت أرطّب جسمي بالدوش وأجلي غبار الأزقّة الشرقيّة منه. ششششش. . . ششششش! أتغسّل وأتحرّر من الروايات التي تجرّني وراءها. فكّرتُ: هذا صحيح. المرأة الطالحة تسوق أمامها الرجل، وعليه سأعيش شيئًا في الحقيقة لا الخيال.

ـ مَن هناك؟ ـ سألتُ وأنا أخرج من الحمّام. كانت الغرفة مليئة

ببخار دبقٍ كغزل البنات الذي يذوب في الفم كما الفتنة الحلوة.

ـ تك تك!

إنّها جميلة. ظنّتني بحاجة لمنشفة فجلبَتْها خصّيصًا لي، مُنعشةً ملوّنةً تفوح عطرًا، وكانت قد رأت منشفتي المهترئة التي نشرتُها على الشرفة لتجفّ، وهي صغيرة، لصبي كبير، مثلي. فهي تتبلّل قبل أن أجفّف جسمي بها. لو فتحت لها الباب لنشّفتْ شعري ومسّدتْ رأسي بعد أن تكون قد غسلتْ قدميْها. كانت ستهيّجني، وكنّا سنتحدّث. بعد ذلك سترتدي فستانًا. ولو حدث انفراج نفسي كنّا سنذهب لنأكل شيئًا.

ضغطتُ على مقبض الباب عندما... لمحتُ لوحةً لجيروم. لم تكن هنا من قبل. لا بدّ أنّ البوّاب أراد أن يُفرحني عندما نظّف الغرفة فعلّقها. حدّقتُ. زنجيّة بخلخال تفرك ظهر سيّدة بيضاء. ششششش... ششششش... الحنفيّة في الجدار تقطر.

ـ تك... تك...

ـ شكرًا لك. ـ أجاب الأمير الأبيض بعد مرور بعض الوقت. خطوة في الضباب. عارٍ ذو خصلات شعر تقطر ماء. إنّه مسكين، أرثي له.

حدث كسوف للشمس في دمشق آنذاك...

ألا تصدّقوني؟

تفضّلوا... سأساعدكم بالتواريخ: ١١/آب/١٩٩٩، بعد عدّة أيّام من عيد ميلادي. وجّهتِ الصحفُ نداءً للناس كي لا يخرجوا من بيوتهم. وأُعلن هذا اليوم عطلةً وأغلقت المقاهي والدكاكين وتوقّفت وسائل النقل، لكنّ التلفزيون كان يبثّ برامج جذّابة.

ششش... ششششش... رغم التشويش. حينذاك لم يكن للإنترنيت وجود ولا للفضائيّات. بشكل عامّ مثل هذه الأشياء كانت نادرة. بدون جميلة الكثيرُ من الأشياء ما كانت لتكون، وهي التي جاءت فيما بعد. وعليه فإنّ ذلك قد حدث في شتاء ٢٠٠٣ وربيع ٢٠٠٧. هذا ما بحوزتنا من المعلومات. وهي معلومات لا بأس بها لعمل أدبي غامض كهذا. وأحذّر هنا البيروقراطيين التوّاقين للاستطلاع، فالبقيّة تعرف أنّها مسألة تعدّد الأصوات.

قبل ذلك بأسبوع كان من الممكن شراء نظّارات خاصّة ذات إطارات كرتونيّة، فيها بدلاً من الزجاج سيلوفان، كانت النظّارات تبدو كسكاكر على بسطة بيّاع. ولم يتحمّس السكّان المحلّيّون لوضعها على أعينهم. من المخيف النظر نحو السماء في يوم الكسوف. خللٌ في الطبيعة. والأفضل عدم النظر والاستدارة وعدم المشاهدة. كش... كش! أيّها العيّار. حينها سيختفي لوحده.

وهذا ما حدث.

بلا شمس وبلا منشفة وبلا جميلة... يا أطياف الحمّامات انقلعي! وتقيّد سكّان البلاد بالتعليمات. الأفضل عدم فتح الأبواب وعدم الخروج في وقت الكسوف، فإن اقتضت الحاجة فلا يطول أبدًا. فالخروج يتمّ بسرعة والوصول للمكان والاختباء، وفي كلّ الأحوال ستكون المدينة فارغة كما في أزمنة الوباء حيث لا وقت للحبّ بسبب الذعر.

لم أنتصح.

يا للرعب! عندما انطلقتُ قبل الظهر نحو الشوارع لم أرَ فيها سيّارات أو مارّةً على الأرصفة. مرّ شرطي بخطوات غير واثقة، وبدلاً

من أن أمضي مع المارّة، لعلّ أحدهم يكلّمني أو يسير معي مسافةً ما، طغى عليّ القلق فورًا ولازمني من باب الصُحبة. ظِلٌّ مُبهم عند الشروق يزداد كثافةً مع استمرار السير واقتراب الشمس من كبد السماء ويبدأ يصغر. ظلّ يزيح كلّ وميض ويرمي به إلى الظلّ. كان خوفي يزداد مع اقتراب الكسوف فقد استسلمت للقلق على ما يبدو.

كش... كش!

تحرّرت من هذه المشاعر بعد أن اجتزت البوّابة. كان يتربّص بي في حِنيّةٍ تفوح منها رائحة بيض فاسد وينتظر كي ينقضّ عليّ دون رحمة.

استرحتُ.

عند البوّابة المُشرّعة: بسطةٌ فارغة.

ـ أساعدُ في الخروج من الهموم كلَّ من يحتاج لخبرة حياتيّة خصوصيّة وكلّ من كبّله في بيته عجز غامض لا يستطيع تفسيره في وقت تجري في العالم الكثير من الأشياء... سأقصّ الحكايات... فالأسهل أن تكون بطلاً. أن تستمع. يا ميريك! أن تزور البلاد الأجنبيّة... أمّا أنتم فهل لكم بقراءة هذا الكتاب؟

كان البائع أيضًا مرعوبًا من الكسوف، وربّما كان حينها قد ذهب لجلبِ ذكريات وحكايات طازجة. يقف الآن بنظّارات ملوّنة في ساحة المسجد الكبير وينظر.

فكّرتُ إذا كان الأمر كذلك سأنوب عنه.

ـ يا أخ! صباح الخير، أهلاً! أنتِ سيّدتي! أتريدين أن أساعدكِ في التحرّر من الهموم؟ أو أنتَ سيّد؟ يا ولد!

ـ السعر ليس مرتفعًا. قلْ لي من فضلك كم كلّف هذا الكتاب؟

الإغراء بحكايات رائعة وقضاء وقت ممتع يخلقان جوًّا يجعل المستمعين والبائع نفسه يسبحون في الخيال.

ـ لا تخافوا! اقتربوا! ـ لا أحد يقترب. ولم يقترب أحدٌ من أحدٍ فقد كان الممرّ فارغًا. فقالب البسطة المخاتل لا يريد أن يتكيّف.

ـ أين المفرّ؟! ـ صرختُ وأنا أرمي نحو الأرض المفكّرة ذات الأوراق المصفرّة. اليوميّات تقول لك الحقيقة... وتساعدك على التمييز بين الحنطة والزّوان. من حسن الحظّ أنّ ميريك كان يكتب يوميّاته بانتظام، يومًا بعد يوم. ربّما لم يكن كذلك في آخرها...

أقولها بكلّ صراحة رغم أنّي أخجل من نفسي: بدأتُ رواياتي من يوميّاتي. إليكم يوميّاتٌ من النوع الكلاسيكي مأخوذة من واقع المشرق، بلا أيّة رتوش.

اقرأوا!

* * *

يوميّات ميريك: حكاية عن كيف تبدأ الحكاية

وأخيرًا وجدت مكانًا أستطيع فيه أن أكتب. ليس فيه من يريد أن يتعرّف عليّ أو يلحّ بأسئلته: هل أنا معجب بسوريا أم لا! أجلس في مقهى صغير عند الكاتدرائيّة إلى الجنوب من المسجد الكبير. إنّها المدينة القديمة، مكان للمسيحيين ذي الأغلبيّة المارونيّة. في المقهى قائمة الطعام باللغة الإنكليزيّة أيضًا وأسعار عالية للسوّاح، ولكنّ المكان فارغ الآن. بدأتُ بالكتابة بعد أنْ طلبتُ شايًا.

الصدفة وحدها قادتني إلى فندقي في دمشق. استغرقت رحلتي من حلب طوال الليل ووصلت لدمشق صباحًا مبكرًا. لم أكن أقوى على السير في المدينة والبحث. كانت جميلةُ وأمّها خديجة تقيمان هنا في إحدى الغرف، وكانت جاءت من عمّان وبقيت مع بنتها إلى أن تحصل على غرفة في بيت الطلبة. يُقال إنّها حصلت على الغرفة، لكنّها لا تزال تنتظر مفتاحها منذ عدّة أسابيع.

هناك برودة في الجوّ، رغم الشمس المشرقة طوال اليوم. فندقي صُمِّم للمقيمين في دمشق من الدول العربيّة الأخرى. الظروف فيه سيّئة للغاية. فرغم الليالي الباردة كانت الشوفاجات كالصقيع والماء من الحنفيّة كان باردًا كالجليد، والمالك يرفض حتى أن ألامس تشغيل التدفئة. وبفضل ذلك تعرّفت على جميلة، فقد جاءتني صباحًا وأقنعتني أن نتضامن في الاحتجاج قائلة: سنهدّد المالك بأنّنا جميعًا سنشتري مدافئ كهربائيّة. أثارت إعجابي. والأهمّ من ذلك نجح التهديد، فقد أخذتُ دوشًا ساخنًا بعد الظهر.

ذهبتُ بالمصعد للفطور مع سيّدة من جورجيا، تسكن منذ شهور في الفندق وتهرِّب الألبسة بين جورجيا وتركيا وسوريا. حدّثتني عن النزلاء، بعدها ذكرت أنّ جميلة تدرس الحقوق، ولم أستغرب من هذه المعلومة بعد عمليّة الاحتجاج التي نظّمتها. كما حذّرتني من أنّ العرب ليسوا طيّبين، وربّما كانت تغمز إلى معرفتي بجميلة. كانت الجورجيّة هذه جلفة، ومع ذلك فيها مسحة من الأنوثة، في الأربعين من عمرها تقريبًا، لكنّ الحياة تركت آثارها على وجهها.

ليس عليّ أن أفسّر تحذيرها بسوء نيّة. أحبّ نساء كهذه حتى لو عاملنني بتكبّر.

من الواضح أنّ الجورجيّة كانت تحبّ إسداء النصائح، فقد أرتني أين يمكنني أن آكل طعامًا لذيذًا، وأين أتسوّق، بل لقد تطوّرت علاقتنا لدرجة أنّها سمحت لنفسها بتوبيخي كأخيها الأصغر. كنّا نأخذ راحتنا مع بعضنا، خاصّةً ونحن نتكلّم الروسيّة التي لا يفهمها أحد. أسلوبها في الحياة ذكّرني بإحدى البلغاريّات من مدينة ڤارنا، كانت تربّي لوحدها ابنةً في سنّ المراهقة. وصدف أن سافرنا في سيّارة في رومانيا، ولكي تقتل النوم استمرّت تقصّ عليّ كيف كانت ولعدّة سنوات تسافر مرّةً شهريًّا تقريبًا إلى ألمانيا وتشتري هناك سيّارة مُستعملة. كانت تقوم بنفسها بالبحث عن السيّارة في أحد أسواق السيّارات، فتقودها بنفسها، ثم تبيعها لتعود بالحافلة مرّة أخرى إلى ألمانيا.

كانت المرأة الجورجيّة تسكن مع زميلتها في غرفة ليست بالكبيرة بالكاد اكتمل أثاثها في طابق تحتي مباشرة. في أحد أجزاء الفندق كان النزلاء يستطيعون استئجار غرفة فارغة وتأثيثها. غالبًا ما كنت أسمع وأنا أنزل الدرج كيف كانتا تتشاجران مع رجل عربي ليس من النزلاء. كان دائمًا الشخص نفسه.

في المصعد وبشكل لا يتّفق مع مشاعر الاستلطاف نحوها شعرت كأنّنا أصبحنا نتنافس. لا أعرف كيف حدث هذا. الكلّ هنا يتقوّل بترّهات حول الشعوب الأخرى، لكنّي لا أحبُّ ذلك. لن أتكلّم معها.

كان عليّ في اليوم التالي أن أذهب إلى الجامعة لمعرفة تفاصيل دورة اللغة العربيّة. الجامعة متّسعة وتقع في قلب المدينة، علمًا أنّ بعض الكلّيّات موزّعة على أطراف المدينة. لا أعرف المسؤول عن شؤون الأجانب لذا أتوقّع رحلة شاقّة. بَرُد الشاي والنادلون ينظرون بريبة نحو «أبيضانيْ» يجلس وحده ويخربش شيئًا دون أن يطلب شيئًا.

حان وقت الذهاب للفندق حيث يتنظرني الدوش. وقبل ذلك في الطريق سأتعشّى الحمّص الذي أحبّه كثيرًا في مطعم مقابلي حيث أسكن. قدّموا لي شايًا حلوًا يقدّمونه لأيّ سائح، في كأس كبير بأذن، تفوح منه رائحة نعناع اصطناعيّة. خطر لي أنّها رائحة سائل لغسل الأواني لم يغسلوه كما يجب.

* * *

يوميّات ميريك: حكاية الجامعة والدعوة للعشاء

حلّ المساء. أستلقي على الفراش. الدوش كان دافئًا ولكنّ الشوفاجات لا تعمل. الغرفة باردة بشكل رهيب. النوافذ تسرّب البرودة. سأغيّر الفندق. رغم البطّانيّات الثلاث فأصابعي متخشّبة من البرد وأكتبُ بصعوبة.

ذهبتُ صباحًا إلى الجامعة. وقبل أن أجد جدول الدوام، أقبل البعض يريد مساعدتي. وكلّ منهم يؤكّد أنّه سيكون سعيدًا للغاية في الحديث معي لأنّه سيحسّن إنكليزيّته.

أمام مبنى رئاسة الجامعة دخل طالبان في حديث معي استغرق في نهاية الأمر عدّة ساعات. ساعداني على رؤية الجامعة وأخْذِ موعد مع عميد الكلّيّة. ثم ذهبنا إلى المقهى الجامعي حيث اصطفّ طابور يحتاج لساعة من الانتظار. ورغم الزحام استطاعا أن يجدا طاولة نجلس إليها مع أصدقائهما. كنتُ الرجل الأوروبي الأبيض الوحيد. فتح الآخرون أمامي الدرب خجلين أنّهم لا يستطيعون أن يقدّموا للضيف ظروفًا أفضل. وبشكل عامّ كانت الصالة كلّها تنظر إلينا وارتفع قَدْرُ الذين يتكلّمون معي لدرجة كبيرة في نظر الآخرين. وجاء الشاي بسرعة البرق

للأمير الأبيض. بعد ذلك انضمّت إلينا بعض الزميلات المتشوّقات لمعرفتي ودار بيننا حديث لطيف.

الجامعة مترامية الأطراف فعلاً. وهناك مسافات واسعة تفصل المباني عن بعضها، وهي خليط معماري عجيب بين الرشاقة الشرقيّة وضخامة الواقعيّة الاشتراكيّة. ومن الغريب أنّي عثرت على الكثير من الحُجر الفارغة، بل كنت أجد أحيانًا أقسامًا بأكملها غير مُستخدمة. كانت تبدو وكأنّها بُنية جيولوجيّة لأرض صحراويّة اقتُطعت وتنتظر العودة إلى مكانها في أقرب مناسبة.

أوضحت كلّ شيء عند العميد باللغة الإنكليزيّة، لأنّ مهندسًا جلس في صالة الانتظار وتبرّع بالترجمة لي بكلّ سرور. وأعدّت السكرتيرة مذكّرة عنّي وقدّمَتْها لرئيسها الذي تكلّم معي بدوره وهمّش المذكّرة بتعليق وختمه وحوّل المذكّرة إلى عميد آخر لكلّيّةٍ في الجانب الآخر من الجامعة، بحيث احتجت إلى ساعة للوصول هناك. في المكتب خطّت السكرتيرة شيئًا على الورقة وقدّمتْها لرئيسها وهذا بدوره ختمها وأرسلني إلى الدكتورة المساعدة التي كانت غائبة فاضطررت للعودة للعميد فاتّصل هاتفيًّا هذه المرّة، وظهر تعليق جديد على الورقة. ضاقت الصفحة بالمكان فقلب الورقة وهمّش على ظهرها بخربشات لم أتمكّن من قراءتها. في نهاية المطاف خصّصوا لي فرّاشًا يرافقني. كان يعرج على رجله اليسرى، وله وجه ينضح بالبؤس وأظنّني أعرف الجامعة أحسن منه. لم أفهم لهجته على الإطلاق. والمشكلة كانت أنّني نفسي لا أعرف إلى أين يجب أن أذهب. ولم تفدني اللوحات على الأبواب بأيّ شيء.

في ممرّ الكلّيّة كانت الأبواب مفتوحة فترى في الداخل الموظّفين والكراسي الفارغة قرب الشوفّاجات. وأخيرًا تبيّن أنّ الدورة مؤجّلة

للصيف ويمكنني الاشتراك في دورة لغويّة خاصّة، إذا اتّفقتُ مع أحد الأساتذة بعد الدوام، وعلى العموم نصحوني أن أسجّل في دورة في مدرسة خاصّة.

المهمّ ألّا يُحبط الإنسان.

في كلّ الأحوال كان الوقت متأخّرًا ذلك اليوم. كنتُ قد تعرّفت على مهاجر قبل قدومي وكان قد طلب من أخيه في دمشق أن يُعدّ لي قائمة بعناوين المدارس. حصلت على عدّة نشرات وأخذت موعدًا عن طريق الهاتف. بعد حلب أُحسّ أنّني أفضل لغويًّا ويمكنني تسهيل أموري.

في طريق العودة بحثتُ عن فندق آخر ووقعت عيني على شيء. في اليوم التالي قابلت المدير للحديث في سعر الفندق. اسم الفندق «عند بدر باسم». كما أجريت محادثة لطيفة مع البوّاب هارون ـ مثل هارون الرشيد ـ الذي شرح لي أنّ بدر باسم من أبطال ألف ليلة وليلة، ويعني القمر المبتسم. وهو الملك الجبّار ابن أميرة البحر والملك الفارسي، الذي عشق أميرة لم تبادله الحبّ بل سحرته وحوّلته لطائر. وكان عليه أن يمرّ في الكثير من التجارب الخطرة ويعبر البراري والبحار، ولكنّه في النهاية ينجح في كسب ودّها. وعاشا عيشة هنيئة حتى آخر أيّامهما.

طلبتُ على العشاء شوربة مع لبن وطحينة وتُسمّى «فتّة» وهو ما نصحتني به الجورجيّة. لذيذة جدًّا!! وهم يصبّون عليها زيتًا ساخنًا ويضيفون كمّونًا ويقدّمون إلى جانبها بصلاً وخضروات مُخلّلة وأوراقًا من النعناع الأخضر. في السوق وفي محيط فندقي يوجد مطاعم مُتخصّصة بتقديم الحمّصَ والفول إضافة للفتّة. في الطِّشت الكبير

يضعون على الطاولة اللفت المخلّل والفليفلة الحادّة وماء بارد للشرب، والخبز ـ وتستطيع أن تأكل منه بلا حدود. وتُقدّم هذه الشوربة هنا على الفطور، لكنّي غير متعوّد على أكل شيء ساخن صباحًا.

وأخيرًا قابلت أمَّ جميلة في المصعد. دعتني للعشاء في اليوم التالي. كانت لطيفة للغاية. سألتني عن أحوالي وهل أتدبّر أموري في مدينة غريبة. وعدتها بالمجيء، فجميل أن يتعرّف المرء على أهل البلاد، خاصّة وأنّ ابنتها ليست أيّة فتاة فهي محامية قادمة.

ملاحظة: لست من المؤمنين بالخرافات ولكنّي أسأل هل من محض الصدفة أنّها تدرس القانون والشريعة، والشريعة بالعربيّة هي الطريق؟

نوري! نوري! هكذا كانت تناديها أمّها. فكّرتُ، إذا لم يدخلني إلى عالم الشرق الساحر شقّ أو باب فليكن طريقًا. طريق النور كم هي جميلة هذه العبارة.

* * *

يوميّات ميريك: حكاية عن مدارس اللغات الخاصّة ومعلّميهم

أذهب اليوم مع جميلة إلى العشاء لذلك أكتب اليوميّات بعد الظهر، فقد يفوت الوقت فيما بعد. أحاول دائمًا أن أكتب اليوميّات مساءً كي أسجّل كلّ ما حدث في اليوم أوّلاً بأول. فإذا حاولت الفانتازيا أن تدسّ شيئًا أقارنها بما لا يزال في ذاكرتي حيًّا.

أجلس في مخبز صغير للحلوى في مكان يوجد فيه عدّة مدارس للغات.

قبل الظهر قابلت معلّمة شابّة للغة العربيّة. أخبرتني السكرتيرة في المدرسة بأنّهم لا ينظّمون دورات للأجانب للذين يتكلّمون اللغة مثلي بعد الموسم الدراسي، لذلك تقترح عليّ دروسًا خاصّة مع الأستاذة لوحدنا. لطيف! ولكن متى نبدأ؟

جاءت المعلّمة إلى المدرسة برفقة أمّها وتبيّن أن السيّدة التي تعلّم العربيّة فتاة في التاسعة عشرة من عمرها. أخبرني المدير أنّها شابّة لكنّها تعرف الكثير عن وسائل الإعلام والمراسلات واللهجة المحلّيّة، أي كلّ ما أردته، أضفْ لذلك أنّ تجربتها المهنيّة مع الشبيبة طويلة رغم صغر سنّها. أظنّ أنّ الجملة الأخيرة كانت من باب الإطراء لشخصي. في كلّ الأحوال هل يعني أن تكون في التاسعة عشرة أنّك معلّم فاشل؟ ولكن أمّها هذه...

كانت المعلّمة طويلة ورشيقة. بنطلون الجينز المطّاطي ضبّ مؤخّرتها تمامًا، وقد أمضت حتمًا كلّ الصباح على تمشيط شعرها ناهيك عن الكحل الذي طوّق عينيها. كانت أمّها قصيرة بدينة ترتدي الحجاب ومعطفًا لحدّ الركبتين. قام المدير بعرض الموادّ بِحِرَفيّةٍ، وناقشنا ما أريده وما تقدّمه المدرسة، واتّفقنا أن يتّصلوا بي على تلفون الفندق ليخبروني بالبرنامج والشروط الماليّة لدورة تستغرق عدّة أسابيع، كما اتّفقنا على درس تجريبي مجّانيّ وأخذت إلى البيت عدّة اختبارات كي يستطيع الأستاذ أن يقدّر مستوى معرفتي باللغة.

في المدرسة الثانية كان ينتظرني سيّد في عمر أبي بل حتى اسمه مثل اسم أبي: ميكواي. كان ميكواي من أصل روسيّ. وُلد في سوريا من أبٍ مهاجر أبيض منذ الثورة البلشفيّة. وقد أظهر تحفّظًا اتّجاه أسئلتي حول التاريخ وربّما بالغت بأسئلتي منذ اللقاء الأوّل.

في طريق العودة مررتُ بمكتبة المعهد الثقافي واستعرتُ كتاب «بيتر بان». أحبُّ قراءة هذه القصّة وأحلم منذ طفولتي بالطيران. صبيان كبار لديهم مشاكل مع أُمّهاتهم... جيمس ماثيو باري مؤلّف القصّة كان لا يزال عاشقًا مأسويًا. وهنا لا بدّ لي أن أقول إنّي أتحسّر أنّي نادرًا ما أحلم.

بعد ذلك صادفتُ صاحب الفندق الذي اخترته مقرًّا جديدًا لإقامتي. اتّفقنا على السعر بلا أيّة مشاكل واخترت غرفة لإقامتي في دمشق. يتكوّن فندق «بدر باسم» من عدّة طوابق بدون مصعد بل بدرج حجري ضيّق. صُمّم على نمط البيوت العربيّة القديمة بما يشبه قصرٍ صغير مع ساحة وقسم الاستقبال والحريم. وطبعًا شرفات على السطح يُمكن النوم عليها. فيه ماء ساخن والشوفّاجات تعمل بأعلى طاقتها. اتّفقنا أنّني سأنتقل للفندق مع بداية الأسبوع، على أن أتذكّر أنّ بداية الأسبوع هنا تبدأ من يوم الأحد، وليس الاثنين.

أثناء خروجي صادفتُ هارون يقود امرأة هولّنديّة حاملاً حقيبة ظهر خلفها. حيّاني بابتهاج وطلب منّي أن أنتظره. عاد وألقى عليّ شعرًا عربيًا غزليًا يلمّح به للمرأة الهولّنديّة، بعد ذلك أخبرني أنّه في يوم الاثنين القادم في فندق يعمل فيه صديقه تُقام حفلة يشارك فيها فعاليّات فنّيّة. في برنامج الحفلة عروض يقوم بها الدراويش وكذلك رقص شعبي. يُقال إنّ صاحب الفندق طلب من هارون أن يجلب نزلاء من «بدر باسم» وسمح له بمرافقتهم. وألحّ هارون أن آتي لهذه الحفلة.

في المخبز الذي أجلس فيه الآن طلبت مقبّلات: لبن عيران مع فطائر. والفطائر يبقى اسمها هكذا بغضّ النظر عن حشوتها هل هي حلوة أم حادّة، أو هل هي زيتون، فليفلة مخلّلة، لحم أو جبن!

لا شيء بعد! يجب أن أتحرّك إذًا لأستحمّ قبل العشاء المُنتظر.

* * *

يوميّات ميريك: حكاية عن اللقاء الأوّل بجميلة

انضمّ إلينا على العشاء (أنا وجميلة وأمّها) عراقيّان متقدّمان في السنّ من أحدِ الطوابق المجاورة، وعرّفا بنفسيهما أنّهما صديقان منذ أيّام المدرسة وقد جاءا إلى هنا لاسترداد عدّة آلاف من الدولارات كانا قد سلّفاها، ولكن ومنذ عدّة أسابيع لم تنجح مساعيهما.

اجتمعنا حوالى العاشرة. ونظرًا لعدم وجود صالة مخصّصة للنزلاء فقد جلسنا في الممرّ. بين الفينة والأخرى كان البوّاب يخرج من المصعد سكرانَ ويطلب منّا أن نذهب للنوم. موظّف وهو شيخ عاجز قليلاً، يتكلّم بطلاقة بستّ لغات مستخدمًا تعابير متأنّقة. حين يشرب الخمر تختلط عليه الأفكار فيأتي وينسى ما كان يريد. كان يتردّد علينا ويأكل قليلاً من الجبن أو المكسّرات التي نقدّمها له، ثم ينحني احترامًا متمنّيًا لنا ليلة طيّبة ويعودُ للمصعد ليذهب للقبو ليوقف التدفئة، ثم يعود لمكانه محدثًا ضجّة في إغلاق الباب خلفه... حينها كان العراقي أو جميلة ينزلان إلى القبو مُسترقين الخطى كالهنود الحمر ليفتحا الغاز في مرجل التدفئة. وعندما بدأنا نتهكّم من طريقته الراقية في الكلام انهارت آخر الحواجز والرسميّات بيننا. ومع ذلك احتفظنا بالطعام له كي نستضيفه عندما يأتي مرّة أخرى.

كان العشاء بحدّ ذاته متواضعًا واقتصر على الخبز والزعتر والجبن والمربّى. وشربنا المتّي من كؤوس صغيرة مليئة بعشب مطحون. تعلّمتُ شربها في طرابلس في لبنان. ويتمّ هذا عن طريق مصّاصة

معدنيّة تنتهي بمصفاة مستوية نضعها في الكأس قبل أن نضع عشب المتّي ليصفّيَ المشروب. ومن لا يحبّ طعم الشاي الأخضر المرّ يَرشّ السكّر على المتّي ثم يصب الماء المغلي فيذوب السكّر على الفور. وتبقى أوراق المتّي تعطي مرّة بعد مرّة نكهة أفضل.

الأحاديث أثناء شرب الشاي تمتدّ لساعات. فعندما ينتهي الضيوف من شرب الشاي يضع ربّ البيت على النار إبريقًا جديدًا. ويُصبّ الماء من فمّ الإبريق من مسافة بعيدة عن الكأس ليقترب بشكل مفاجئ من الكأس فيقطع تدفّق الماء. في المساء سألت لماذا هذه الطقوس في صبّ الماء المغليّ؟ طغتِ الدهشة عليهم. وبعد تفكير قال العراقي: يغرف الماءُ وهو يندلق من بعيد الهواءَ فتصبح رائحة الشاي أكمل. أيّده الحضور وهم يتلمّظون موافقين على كلامه.

يعتمد فنّ شُرب المتّي على عدم حرق الشفتين بالمصّاصة التي تبرد قبل الكأس وفي الوقت نفسه ألّا تُشْرب المتّي باردة. في طرابلس واجهت صعوبة في ضبط الوقت الذي تبرد فيه المصّاصة المعدنيّة وكنت أحرّكها بارتباك في الكأس. انهزم العُرف الغريب أمام العادة. ففي لحظة من عدم الانتباه قلبتُ المصّاصة ودخَلَتِ الرواسب للداخل وشَرَقتُ وغصّ حلقي بالمتّي.

بالأمس راقبت بهدوء كيف يذوب السكّر في الماء، وبالمناسبة عرفت أنّ ذلك مقياس لدرجة حرارة المصّاصة. وعندما تأكّدت من نفسي تجرّأت وقصصت عليهم كيف لم أستطع أن أتوقّف عن الخلط في طرابلس، فضحكوا وبدأوا يتهكّمون من طريقتي الحذرة في الخلط وكيف أبصق أوراق الشاي. فقط جميلة كانت تضحك أقلّ منهم بل كانت تربّت على كتفي وتمدحني أنّي تعلّمتُ شُرب المتّي في مدينتها.

كانت جميلة وأمّها تتبادلان الكلام معنا طوال الوقت. حدّثتنا الأمّ كيف عطّلت بمساعدة ابنتها جهاز الاستقبال ونجحتا في ذلك، لأنّ الوالد لم يُرد أن يتفرّج الأولادُ على الأفلام الجنسيّة من القنوات الفضائيّة. ومن باب تقوية المعنويّات أضافتا: لم يمنعنا. وانتقلتا لمدح الأخ الأكبر. ربّما لذلك عرف الأب ذلك فبدّل «التونر»، بعد هذا الحديث تجرّأت جميلة وبدأت تمزح من أمّها التي لم تر زوجها منذ أسابيع وكيف تسرق منها وهي نائمة دميةَ دبٍّ وردي لتنام وهي تحضنه، حينها عرض العراقيّان المساعدة. فردّت خديجة: بَعْلي الأجمل بين الآلاف. عقصات شعره أغصان نخل سوداء كالغراب ثم إنّها لم تتعوّد أن تنزل من مستواها. ردّ العراقيّان: حسنًا لكنّ مؤهّلاتنا الأخرى أفضل فانفجر الكلّ ضحكًا.

كان العراقيّان مَرحي الطبع، ولم يهتمّا كثيرًا بالمال. كان السؤال عن الأوضاع في بلادهم يثير نفورهم. على أيّة حال كنّا نتجنّب السياسة في أحاديثنا. لكنّنا عوّضنا ذلك بالكلام على السوريّين بلا حرج، فكلّنا لسنا سوريّين. وبالنتيجة علمتُ أنّ الدمشقيين يعملون كثيرًا وهم مُحتالون، ولا يعرفون اللهو. وعرفت كذلك أنّ سوريا متخلّفة وسخة، والأنكى من ذلك أنّ السوريين نادرًا ما يقضون الوقت مع النساء. وللمقارنة تحدّثت جميلة عن عطلتها الأخيرة في العقبة وكيف تضجّ بالحياة، وكيف الناس يبتسمون هناك ويتحدّثون في الشوارع ويزورون بعضهم بعضًا... ومع ذلك تبقى بيروت في القمّة.

عند منتصف الليل نفدت المأكولات ولم يكن أحد منّا يريد النوم فقرّرنا أن نذهب لنشتري شيئًا. كان الفندق مغلقًا في الليل، وتوقّف البوّاب عن التردّد علينا ولم نرد إيقاظه دونما سبب وجيه خاصّة وأنّه بالكاد نام. لكنّ الأمور جاءت ميسّرة، فقد نادينا من البلكون على بائع

سجائر متجوّل رمينا له بالنقود بعدها وضع لنا في سلّة أنزلناها بحبل فرّوجًا مشويًا. واتّضح أنّ البائع كان لعشر سنوات يعمل في مطعم في مدينتي. منذ سنة ونصف السنة فَقَدَ عمله وعاد إلى سوريا. كان عنده في بولندا زوجة وأطفال، ويتكلّم قليلاً بالبولنديّة. لم يقل لي هل طلّق زوجته البولنديّة وتزوّج الأخرى أم أنّ الواحدة منهما لا تعرف شيئًا عن الأخرى. في كلّ الأحوال لم يكن راغبًا بالعودة لبولندا.

سألتُهم ما خبر الزوجات؟ ردّت عليّ محامية المستقبل بأنّه لا يوجد في سوريا قانون يُجبر على التحقّق فيما إذا كان العريس متزوّجًا في مدينة أخرى مثلاً فكيف في دولة أخرى! عندما تتّفق عائلتا العروسين على الشروط فلا يتدخّل أحد في أيّ شيء رسميًا. والقانون يسمح بأربع زوجات وواجب الزوج إعالتهنّ مع الأطفال، فإن لم يفعل أعطى مستمسكًا للطلاق منه، بل إلى إقامة دعوة قضائيّة ضدّه. ومن الممكن جدًّا أن يخسر فيها ثروات والديه اللذين يُعتبران مشاركَيْن في المسؤوليّة. فقط قلّة قليلة تخاطر. قالت جميلة إنّها لا ترضى بهذا القانون وتأمل أن يتغيّر بل ستسعى لذلك.

بسبب بائع السجائر انهالت عليّ الأسئلة حول بولندا: هل ينبت البرتقال في بلادكم؟ لا. كيف هي الأسعار؟ كم سعر كيلو البندورة؟ استغربوا أنّ الخبز لدينا ليس على شكل أرغفة. وانتقلوا إلى الأهمّ أي كم عدد المسلمين هناك؟ هل يوجد مساجد في العاصمة؟ أجبت بصراحة يشوبها الخجل أنّ مسجدًا واحدًا يوجد في أطراف العاصمة. أمرٌ غريب ففي دمشق الكثير من الكنائس. وعادوا لأسئلتهم: كم عدد البولنديين؟ أربعون مليونًا إضافة إلى الكثير من الذين يعيشون في الخارج. ضحكوا فالكثير من العرب يعيشون في الخارج.

كانت جميلة تمدح لغتي العربيّة مرّة بعد أخرى، وسألتْ إذا كان

لهذه اللغة شعبيّة في بلدي. والبقيّة أيضًا أُعجبوا بل كانوا فخورين بمعرفتي للغتهم. كانوا يكرّرون الكلمات التي لا أفهمها بكلّ صبر، وجميلة تجلس إلى جانبي وتربت على كتفي كما لو كنت من معارفها اللطفاء، بينما أمّها ذات الأسنان المنخورة تبتسم لنا. كان حضورها يُشعرني بالطمأنينة رغم أنّي لا أفهم لهجتها.

عندما استيقظت هذا اليوم كنت لا أزال شبعانَ فأردت أن أبدأ فورًا بالكتابة. على الدرج قابلت خديجة وأخبرتني أنّ جميلة لا تزال نائمة. هذا طبيعي. حين يسهر المرء طوال الليل، ينام كلّ النهار. وسألتني إن كنتُ أرغب في رؤيتها وأضافت أنّها ستفرح بأنّي أيقظتها. قلت: قبلاتي لابنتكِ وخرجتُ.

أجلس الآن في محلّ للحلوى على مقاعد عريضة مريحة. طلبتُ قطعة من البقلاوة، فقطّعها البائع من بين قطع متطابقة في الشكل. يعتمد فنّ صناعة البقلاوة على أن تنتفخ طبقات العجين بحيث تشكّل فوق بعضها ما يشبه القبّة. إنّها نسخ لا تنتهي لقبر الحلواتي تسخر من خلود الأهرامات. خطر على بالي أنّ مخترع البقلاوة كان فنّانًا من مدرسة «البوب آرت» سبق الفنّان «فارهول»، وحاز على الخلود في مزاد علني.

فعلاً: من باب التذكير. الشيء نفسه، مع شيء من التغيير في كلّ مرّة. هنا تكمن مجازيّة المشرق.

كتابة مُضافة عصرًا: دوّخني بعض الشيء العشاء وسهرة الأمس. ظاهريًا كلّ شيء على ما يرام، ولكن وكما يقول «ديڤيد لينش»: ليست الأشياء كما تبدو لنا. ماذا كنتُ أتوقّع؟

كانت جميلة تغطّ في نومها بينما كنتُ أتجوّل في المدينة. في

كاراج الباصات استمعتُ لأغاني يطلقها صاحب كشك يبيع أقراصًا موسيقيّة مضغوطة لاجتذاب الزبائن. كان الدلّالون يتصايحون على المسافرين والأطفال يقفزون بطاقة غير عاديّة إلى الباص ليبيعوا ما يشبه الفطائر ويعودون ثانية قبل أن يطردهم السائقون. قبل الانطلاق يتحقّق الشرطي من أوراق الباصات. رائحة حبّ الهال طغت على رائحة الزيوت والدخان؛ ففي هذه البلاد لا أحد يُطفئ المحرّك أثناء التوقّف أو الانتظار.

وبدلاً من أن يدفع جوّ الكاراج فيّ النشاط أدخلني في جوّ من الخَدر. اشتريت قليلاً من البزر وبدأت أفصّصه كأنّي من المنتظرين. بكلّ أسف، فشلتُ فشلاً ذريعًا في تفصيص البزر، وأخيرًا استسلمتُ وعدتُ أدراجي للفندق. لم أرغب بمقابلة أحد. انتظرت على الدرج حتى خيّم الصمت وتسلّلت لغرفتي. سأنتقل لفندق آخر غدًا، ومع ذلك ليس لديّ رغبة في ضبّ أشيائي. أغلقتُ الباب بالمفتاح. أريد النوم... تصبحون على خير.

* * *

يوميّات ميريك: حكاية عن جميلة وانطباعاتي عنها

المطر يهطل منذ الصباح. طلبت من الاستعلامات أن يأتوني بالفطائر لغرفتي. اتّفقت على أن أغادر الفندق بعد أن يصفو الجوّ.

اتّصلت المعلّمةُ الصبيّة بي لتخبرني أنّها لن تدرّسني لأنّ جدّها مرِض، وعليها أن ترعاه. أمّا الدرس التجريبي مع ميكواي بدوره كان ناجحًا رغم أنّه نعّسني بالمصطلحات الغريبة وبدأ من دروس صعبة.

ما شكلُ جمْيلة؟ هي بنتٌ سمراء متوسّطة الطول حوضها واسع

قليلاً كما يبدو لي، يسيطر على وجهها عينان سوداوان. علمًا أنّ الابتسامة المرِحة والصدر النافر الصغير جذب انتباه العراقيين. لديّ انطباع أنّ جميلة تريد أن تكون دائمًا في مركز الاهتمام وإلّا فقد تشتاط غضبًا.

لباسها على نمط واحد يتألّف من بناطيل جينز ضيّقة وبلوزات، لا تميّزها عن غيرها. قيل لي إنّ البناطيل أكثر موضة من الفساتين التي تُذكّر باللباس الإيراني المحافظ أو بجلّابيّات سائقي الشاحنات الذين يُعتبرون من الهامش الاجتماعي. بشكل عامّ العصريّة إطراء هنا.

لم تنجح جميلة في إخفاء البثور التي تنزّ قيحًا على خدَّيْها رغم الرتوشات الواضحة. قريبًا من أرنبة الأنف هناك مسامات كانت تعصرها فاتّسعت، علمًا أنّ طبقة البودرة تعطي البشرة انطباعًا بالنعومة والرقّة. أحمر الشفاه الوردي الجافّ يُظهر عدم التوازن في الشفة السفلى وهذه لمسة ريفيّة كما أرى.

شعرها الذي تفتخر به طويل منفلت دائمًا يصل إلى أسفل كتفيْها. تغسله يوميًّا وتمشّطه بعناية فتنتفش خصلاته، ضاربة بعرض الحائط كلّ أشكال النمطيّة. أثناء العشاء كانت مرّةً بعد مرّة تُنزل رأسها وتنثر شعرها بحيويّة، فكان يلامس وجهي أحيانًا. من الواضح أنّها لا تعرف المشي بالكعب العالي، فكانت وكأنّها في كلّ خطوة تسعى لاستعادة توازنها. وعندما كانت تذهب للقبو كنت أحمرُّ من الخجل.

ما يغيظني في صوتها هو الحشرجة وانعدام الجاذبيّة فيه، وبدلاً من أن تلطّفه، وتتكلّم بصوت خفيض كان صوتها عاليًا وسوقيًّا. كنت مُعجبًا أنّ جميلة تزداد نشاطًا مساءً، فقد كانت طوال العشاء نشيطة كأنّها جميلتان بل أكثر...

فيما يتعلّق ببشرتها المليئة بالبثور تذكّرتُ إحدى معارفي المُزيّنات الحلبيّات التي أخبرتني أنّ الكثير من النساء لديهنّ مشكلة مع البشرة. فالطعام هنا دسم ولا يوجد موادّ تجميليّة صحّيّة وفي الوقت نفسه لا يليق بهنّ ممارسة الرياضة، وبشكل عامّ يرون الرقي في ركوب السيّارات والإقلال من المشي.

أصل جميلة من طرابلس في شمال لبنان. هناك قضت طفولتها. بعد ذلك هاجرت أسرتها إلى الأردن، حيث حصل أبوها في عمّان على عمل جيّد، وبسرعة استقلّ وفتح شركة للنقل. وأصبح وضعهم جيّدًا، لذلك قرّر إرسال ابنته الكبرى للدراسة في دمشق.

كانت جميلة فتاة استثنائيّة، وكان هارون يردّد: شعرها أجمل من الأحجار الكريمة وعيناها سوداوان. إذا نظرتْ تحسدها الظباء والغزلان، فإذا كشفتْ عن وجهها انطفأ القمر والشمس خجلاً.

شكل اللبنانبّات يختلف تمامًا عن السوريّات، ولكنْ هل يمكن معرفة الأصل بناء على المظهر؟

بالأمس في طريق عودتي من كاراج الباصات سرت في شارع فيه أغلب المكاتب السياحيّة. قرأتُ إعلانًا عن رحلة إلى بيروت. ولجتُ للداخل فإذا بشيء لا يصدّق: وجدت جميلة تجلس خلف المكتب. هكذا إذًا!! هذا إذًا ما سمّته أمّها بالنوم طوال اليوم. شعرت بالأسى في داخلي. خرجت وبدأت أتظاهر بقراءة مواعيد المغادرة والوصول، لكنّي كنت أراقب جميلة. كانت بلوزتها أكثر أناقة وبنطال الجينز نفسه، العينان والأنف نفسها. هكذا إذًا.

هل حقًّا أعرفها؟ فعلاً! أين شفتاها؟

الموظّفة في المكتب كانت تصبغ شفتيها باللون الأحمر، وكانت

شفتاها صغيرتين وأكثر اتّساقًا. في كلّ الأحوال كنت أفضّل ألّا تعرف جميلةُ أنّي أبحث عنها، خاصّة وأنّي لا أبحث عنها. لا ينقصني إلّا أن يظنّ الناس أنّي أتتبّعها ـ وقد تكون هذه أختها التوأم من يدري؟ سأسأل في فرصة مناسبة.

أضفتُ عصرًا ما يلي:

بعد أن انتقلتُ تعكّر مزاجي. أردتُ مشاهدة فيلم. سيّدة غنيّة حلبيّة، تذهب إلى السينما في الفنادق الفخمة فقط، أخبرتني أنّ صالات العرض الأخرى تعرض لقطات جنسيّة. اشتريت تذكرة. أزحت الستارة. كان منظرًا جديرًا أن تراه. في الصالة رجال فقط. والأفلام تُعرض دون توقّف. عندما دخلت الصالة كانت فتاة تمثّل الجمال الهندي تختبئ في أحضان شريكها. لا بدّ من لمسة غربيّة، لذلك عندما انتهى الفيلم العاطفي جاء الدور لفيلم «الحركة» يقوم ببطولته جاك نوريس. في كلّ دقيقة كان شخص ما يمرّ من أمامك. رائحة العرق الكريهة تملأ الجوّ والصراصير تعبث فوق المقاعد. جلست في السينما إلى أن انتهى المطر، لكنّني لم أشاهد منظرًا جنسيًّا واحدًا. وبقيت الصراصير تدمدم برتابة كالمطر وهي تدبّ على مسكات المقاعد. فكّرت:

أظنّ جميلة وأمّها هما المرأتان اللتان أبحث عنهما. فقد استهوتني العلاقة المتناغمة بينهما. قد يبدو ذلك مضحكًا، ولكنّي شعرت أنّه عندما آخذ موعدًا مع الفتاة فإنّي آخذه في الوقت نفسه مع أمّها.

كنتُ قد تحدّثت أثناء العشاء عن خطيبتي التي بقيتْ هناك بسبب عملها، وقلتُ إنّي هنا لأتعلّم اللغة ولم أذكر شيئًا عن شركة غاز ـ سيك. لم تتعرّض خديجة للموضوع طوال السهرة، إلى أن تكلّمت

جميلة عن دمية الدبّ الوردي فانعكس الأمر. هل هذا نوع من تبادل الأدوار بينهما؟ أتكون الأمُّ مهتمّة بي وليس البنت؟

لا!! بكلّ بساطة هما صاحبتا المبادرة، فخديجة مهما كانت أكبر سنًّا وتتصرّف بانفتاح أعرفه من أوروبا وهذا شيء أهل بالثقة. إنّي فرح لأسلوبهما في الحياة، ولكنْ... هذه الأسنان السوداء... أين ليلى والذئب؟!... أرهقني السهر وأتعب تفكيري. حان وقت النوم.

إضافة أخرى:

كنتُ قد اشتريت جبنة محلّيّة لأحضرها على العشاء مع جميلة وهي تُذكّر بالقشقوان المملّح. شعراتها مضفورة على شكل جدائل وتوضع في سائل خاصّ في الثلّاجة. وتُعدّ للأكل بعد تصفية الماء وحلّ الضفائر وتؤكل مع الخبز. نسيتها في الفندق في الاستعلامات، غير أنّ البوّاب العبقري اللغوي سلّمني إيّاها.

بالأمس في الفندق عثرت على كتاب فيه الجملة التي استشهد بها هارون، وقد وُضع تحتها خطّ وانتهت هكذا: ليس في مقدور أيّ كائن أن يتفادى سحر هذه الغزالة اليانعة. وجهها كالشمس إشراقًا غير أنّها أجمل من الشمس. هل هذا ما أراد أن يقوله لي هارون؟

* * *

يوميّات ميريك: حكاية عن الفواكه والنرجيلة في المطعم مع جميلة

كنت على موعد مع جميلة لنتعشّى في المطعم، واتّفقنا أن نلتقي أمام حانوت للجلّابيّات في الساحة المجاورة. جاءت في الموعد

وارتمت في أحضاني قائلةً إنّها اشتاقت إليّ ونفد صبرها بانتظار اللقاء بي.

لم يكن المطعم بعيدًا. قادنا النادل إلى صالة منعزلة وأشار إلى طاولة جانبيّة. لم نكن جائعيْن فطلبنا نرجيلة وفواكه. كنّا قد تواعدنا أن نلتقي ثلاثتنا، لكنّ خديجة لم تأتِ بسبب مرض جدِّها واعتذرت. وقرّرت ألّا تخرج من الفندق وتكون على اتّصال بالمستشفى.

كان عُمّال المطعم يُكثرون من الانحناء لنا ويسألوننا إذا كنّا بحاجة لشيء حتى جاء أحدهم بطبق فوقه هرم من الفواكه الباردة. تين ورمّان ومانجو وأناناس وجوز الهند وقطع من الموز وأرباع من التفّاح وحزوز من البرتقال واليوسفي. لم أرَ تشكيلة كهذه قطّ. وظننت أنّنا لن نأكل نصف هذا الجبل من الفواكه. جلب لنا النرجيلة نادل آخر. كان على الطاولة صندوق من المناديل الورقيّة، لم يكن مفتوحًا كما يليق بمحلّ راقٍ، حيث يُقدّم لكلّ ضيف صندوقًا جديدًا.

بدا وكأنّ العاملين يعرفون جميلة فقد رحّبوا بها عند المدخل وتبادلوا معها عبارات فيها الكثير من الودّ. هكذا حدستُ من خلال تعابير الوجه لأنّهم كانوا يتكلّمون بلهجة خاصّة. أليس غريبًا أن يكون لديها مطعمها المفضّل؟ على أيّة حال وضّحت لي جميلة على الفور أنّها تأتي مع أمّها أحيانًا لهذا المطعم ومن هنا يعرفهما العاملون.

في الداخل التقينا بزوجين من معارفها، كانا قد هاجرا من لبنان إلى المكسيك بعد الزواج. يديران فندقًا في شبه جزيرة يوكاتان وهما الآن في إجازة. جلسا إلى طاولتنا وبدأنا نُنَكّتْ على الأميركيين الذين يرتعبون من المسلمين. هل شكلنا يوحي بالخوف منّا سألنا بعضنا ـ (رغم أنّي غير محسوب عليهم) ونحن نتهكّم من ذوي اللحى الطويلة

الذين نشاهدهم في التلفزيون.

بعد ذلك ودّعَتْهما جميلة حتى الباب. كان الضجيج يملأ الصالة. موسيقيٌّ يعزف على الناي لحنًا فيه حنين. لم أدخّن النرجيلة إلّا في الموقع حتى يومنا هذا. شعرت بالنشوة تتسرّب من أصابع يديّ حتى أصابع قدميّ وأنا مُحاط بالمخدّات آكل الفواكه.

لم يكن في الصالة نساء غير جميلة وزوجة اللبناني من المكسيك. حول خشبة العرض جلست مجموعات من الرجال يتكلّمون ويغنّون، بل كان بعضهم يتأرجح على وقع الموسيقى. لا يوجد خمور في قائمة الطعام. يُخيّل للمرء أنّ عدد العاملين أكثر من الزبائن. إنّه التسيّب الاشتراكي الممزوج بالثراء الشرقي.

كان الجميع ينظر إليّ. ثمّة شيء يتستّر بقناع من المودّة لا أستطيع تفسيره. كان العاملون يبتسمون بشكل غير طبيعيّ ويحدّقون طويلاً في عينيّ. ثمّة سرّ يختفي خلف تعابير وجوه توحي ظاهريًّا بالصداقة. أَهو التملّق لامرأة رائعة الحسن والاحترام لي لأنّي معها؟

رجعتْ جميلة وعادت تقول: اشتقت إليك وجميل أنّ اللبنانيين ذهبا وبقينا لوحدنا فلديّ الكثير لأقوله لك. فأنا أريد أن تعرف عنّي أكثر ما يمكن واسأل ما تشاء. كانت قد جلبت معها صورًا لعائلتها في طرابلس وبدأت تشرح: هذه صورة لأمّي والإخوة في عرسها. هنا جدّي وهو فلسطيني. هل يمكنني أن أتصوّره يتكلّم العبريّة؟ وكانت قد سافرت مؤخّرًا لإسرائيل الرائعة، الرائعة للغاية على حدّ قولها. كلّ شيء هناك عصريّ وملوّن بالبهجة، خاصّة في الأحياء اليهوديّة، لأنّ العرب (حتى هناك) وسخون ومتخلّفون. ولكن من الأفضل الحديث عن السفر لإسرائيل بضمير الغائب، فتقول: صديق كان هناك، لأنّه من

يدري من يستمع إلينا؟ وعليه فقد بدّل الصديق ـ (أي هي) جواز سفره كي تختفي أختام حدود العصريّة. وتابعت: أنظرْ هكذا أبدو في البطاقة الشخصيّة وهي صورتي قبل سنة وكان شعري أقصر قليلاً. وعندما اختلط المذكّر بالمؤنّث والأشخاص ببعضها، ناهيك عن قواعد اللغة، انحنت عليّ وهمست في أذني عن ذلك العالم الرائع الجديد، عن ذلك الذي سمّته «الصديق» كي لا تتباهى بذلك من باب الحذر. من جانبي نظرت لأوّل مرّة عبر فتحة صدرها فأحسست بموجات من العطور تعبق وكأنّها المُرّ والمسك، فاحت قويّةً بنكهة رجّاليّة اختلطَ فيها الجوري بالقرنفل، وحلوةً كثمرة نضرة كتلك التي أكلناها بتلذّذ. كانت تتكلّم طوال الوقت كيف أنّها قلقة على صحّتي ومزاجي، فأنا لا آكل كثيرًا. هيّا لنطلبّ مقبّلات على الأقلّ (طبيعي أنّها الداعية إليها) لأنّها تكلّمت مع أمّها ووصلتا لنتيجة أنّني نحيف للغاية وعليّ أن آكل أكثر. أعرفُ ماذا سنطلب. نطلب لحمًا مشويًّا ومعه سلاطات وخضار، خاصّة وأنّ هذا المطعم مشهور بصلصاته العطِرة التي يستخدمها في الشواء، وضروري أن نطلب عصير الرمّان، ولكن إذا كنتُ لا أستلطف المطبخ العربي فلا مشكلة مطلقًا فهناك العديد من المأكولات الأوروبيّة، من الهمبرغر والبطاطا المقليّة مع الكاتشاب. كما أنّ... دقيقة... شعرك خفيف للغاية. حتمًا تستعمل شامبو سيّئًا. وأنا أفهم في هذه الأمور. نستطيع أن نذهب لدكّان الموادّ التجميليّة وينصحونا بشراء اللازم ولن تخسر هذا الشعر الجميل.

وهكذا مضت عدّة ساعات. كانت رائحة دبس السكّر الياسمينيّة ـ التفّاحيّة المُنعشة تختلط بطعم فواكه، كلّما طال بقاؤها مُقطّعةً على الطبق تعرّقت وأفرزت قطرات من عصيرها. أكثر ما أعجبني، قطع الموز الباردة الناعمة وهي تدغدغ لساني.

لستُ من مُحبّي الفواكه وإذا كان لا بدّ لي من أكلها فمع الآخرين. حتى عصير الفواكه الطازجة لا ألتذّ به بدون السكّر. وبعض الفواكه تضرّني. ما العمل وقد نشأتْ معدتي على عصائر مُرقّقة بالماء والموادّ الحافظة وفي علب تراباك.

لم يكن العمّال ينفّذون طلبات الزبائن بقدر ما كانوا يؤدّون طقوسًا مُكرّرة مُعادة. علّمتني جميلة كيف أطلب تغيير الفحم في النرجيلة. نظرت إلى شابّ بثياب مُذهّبة، فتقدّم وانحنى ونفض الرماد باتّجاه صحن عنق النرجيلة، بعد ذلك أزال الفحمة المحترقة ووضع مكانها جمرة بواسطة كمّاشة من النحاس الأصفر.

ما إنْ بدأنا نملّ من النرجيلة، حتى كانت جميلة قد سدّدت الحساب من غير علمي ولم تنفع احتجاجاتي بشيء. انحنى لنا العاملون عند الباب مودّعين ولوّح الطبّاخون من خلفهم بأياديهم. قدّم لنا قهوجيّ قهوة عربيّة مُرّة دفعنا ثمنها.

في الخارج تأبّطت جميلة ذراعي. لامس كتفي ثديها وهي تبتسم لي. دُرنا حول الفندق عدّة مرّات. وقرّبت وجهها من خدّي وقبّلتني في الهواء مودّعة، كما يفعل الفرنسيّون. واختلطت رائحة أحمر الشفاه الجافّ برائحة السجائر الحامضة التي كانت طوال السهرة تبدّلها بالنرجيلة والعكس. تذكّرتُ غَسْل منافض السجائر الكريه، لأنّ الرماد يلتصق بالقاع بعد صبّ الماء عليه فيُخرج رائحة كتلك التي تأتي من فم المدخّنين. حاولت كثيرًا أن أدخّن لكنّ الدخان كان يتوقّف في حلقي كمنفضة سجائر مُبلّلة. ومع هذا تركتْ قبلتها آثارًا دفيئة.

* * *

يوميّات ميريك: حكاية عن انطباعاتي بعد اللقاء مع جميلة

سارت دروس اللغة العربيّة بشكل رائع. فقد توصّلت مع ميكواي إلى لغة مشتركة، رغم أنّه كان يطالبني بالكثير. أخبرتني السكرتيرة الصبيّة أنّها تتعلّم اللغة الإنكليزيّة لتعمل في خطوط الإمارات العربيّة الجوّيّة، وفعلاً في كلّ مرّة كنت أراها منكبّة على التمارين بحماس.

في طريق عودتي من المدرسة عثرت على نادٍ للعبة البيلياردو في قصر من نمط عصر الاستعمار. مشيتُ سيرًا على الأقدام وأنا أمرّ بسيّارات فاخرة كانت تقف في ساحة القصر. كادت تخونني الجرأة كي أدخل المكان بحذاء رياضي وبنطال عسكري مموّه. لحسن الحظّ يتمتّع الأوروبي الأبيض هنا بامتيازات تسمح له أن لا يجاري الذوق السائد. تبيّن أنّهم يقدّمون الخمر هناك. كان المكان مُنيرًا كما في كلّ المحلّات هنا. أخرجتُ يوميّاتي وها أنا الآن أسجّل بعض الانطباعات عن لقائي مع جميلة. فقد ترتّبت الأحداث في ذهني.

طوال اللقاء كانت جميلة تكرّر هل الطعام لذيذ وهل لديّ شهيّة لآكل شيئًا آخر؟ كان واضحًا أنّي لا أريد أن آكلَ إلّا أنّ طقوسيّة أسئلتها وبالطبع أجوبتي صارت تتكرّر كتعويذة. وترى جميلة أنّ المزاج هو نتاج الجسد. وأنّي شخصيًّا لا أستطيع أن أتعرّف على احتياجات الجسد من خلال الجنس. وليس المقصود هنا أنّي أظهر بمظهر الذي لا يعرف شيئًا عن الحِميَة أو موادّ التجميل، رغم أنّها تغمز لذلك، بل التأكيد على أنّ الرجل يحتاج المرأة لتكون دليلاً لجسده، ومشاعر الرعاية والفطرة لديها تخبرها أنّي أنتظر منها ذلك.

حاولتْ جميلة أن تصنع منّي رجلاً لَسْتُه ولا أريدُ أن أَكُونَهُ. لست طفلاً لهذه الدرجة! أحسستُ وكأنّي في قصّة ميلودراميّة تحكي عن

مُبشِّر في وسط قبائل بدائيّة. ومع ذلك توقّفت كثيرًا أمام عنادها. هل كنتُ رجلاً ناقصًا أو فيه عيب؟

ظننتُ أنّ جميلة من النساء اللواتي، بكلّ بساطة، يكرهن الصمت فيتحدّثن مع الرجال عن أشياء لا يريدون أصلاً الدخول فيها. ولم تتوقّع منّي أن أهتمّ بثرثرتها لأنّ أمّها وصديقاتها يفعلن ذلك. من ناحية ثانية كنتُ مرتاحًا لها لأنّها لم تطلب منّي أن أساعدها في الهجرة أبدًا. لم تَبُحْ بدواخلها، ولم تتذمّر أنْ لا أحد يفهمها كما لم تحدّثني عن صداقاتها وأنا بدوري لم أسأل. كان اهتمامها ينصبّ على شخصي وأظهرتْ عناية وحنوًّا نحوي. ولا أظنّها تتوقّع منّي أن أبادلها المشاعر.

وما أكّد صحّة ظنوني عمليّة الرصد التي أجريتها. ففي كلّ مرّة أحدّثها عن أيّ شيء كانت تشعر بسرعة بالملل. كانت تخلق انطباعًا بأنّها تستمع إليّ وكأنّهم علّموها أنّ الرجل يحتاج أن يفرغ ما بداخله وينتهي كلّ شيء بسلام عندما يُسمح له بالكلام، حينها تفرغ الجعبة كما كانت تردّد خطيبتي. أكره هذا التعبير.

ومع ذلك كنتُ ألتذُّ بأسئلتها سواء كانت مُصطنعة أو كاذبة. كانت جميلة تسأل بالضبط عن أشياء أريد الحديث عنها، بل كانت تحدس رغباتي قبلي. كنتُ أفتقد لحدس كهذا وسط أصدقاء يحزرون من أين أنا!

أحبّ قضاء الوقت وسط أناس يتّسمون بالجمال من الرجال والنساء لا فرق، لأنّي أعتقد أنّ أجسادهم الجذّابة تقوّي من مشاعري، وتجعلني أنفتح على العالم. كما في حالة مدعابات الآذان والرقبة فالكتف القوي يصبح حسّاسًا على اللمس وبالتدريج يوقظ حساسيّتها وبالنتيجة ينتزع منها المقدرة على مقاومة الألم. ولكنّه سلاح ذو

حدّين. فأيّ ضربة ضعيفة تصبح مُوجعة. وهذا ما كان مع جميلة. لم تتّصل بي هاتفيًا علمًا أنّنا اتّفقنا على ذلك. شعرت بالأسف.

مقاطع كُتبتْ بعد لعبة البليياردو: شبّان لطفاء دعوني للَّعِب. ربحت اللعبة ولكنّ شيئًا من الكآبة خيّم على الجوّ. إذا كانت جميلة تعرف كيف تتكلّم مع الرجال فهي قد أذلّتني إذًا. كان إيماني قويًا أنّ البشر مختلفون. هل أعاملها كدمية؟!

...ما هذا؟! نقص في الأوراق؟! يا لها من قصّة! لقد اقتُلعت الأوراق. فتّشتُ في البسطة ولم أعثر على شيء.

أو قد يكون «يان» بكلّ بساطة غير راغب في اختراع الحكايات؟ والكسوف يقترب بخطوات حثيثة.

سيّداتي الرائعات سادتي الرائعون هناك مغامرات رائعة حقًّا في الصفحات التالية:

أثناء عشائنا الثالث شعرتُ أنّ جميلة تحتقر الفرح الذي يتملّكني عندما تهتمّ بي. فالوعي الذي يقود تصرّفاتها، يمنحها الشعور بالقوّة نحوي. ولكي لا أفسح لها المجال لإذلالي سمحت لها بالكلام لأطول مدّة ممكنة. خشيتُ أن أفقدها وهي الوحيدة التي أستطيع أن أتلقّى الدفء منها ولا تطالبني مقابل ذلك أن أعلن نيّتي بالزواج منها.

وحدث ما كنتُ أخشاه. زادت جاذبيّةُ جميلة من مخاوفي لأنّ احتمال فقدانها يصبح أكثر ألمًا. كنتُ بحاجة لدفئها. لم أرِدْ أن أجعل من احتمالات الاحتقار الذي يطفو عندما أروي لها شيئًا وأظنّ أنّها تملّ، أنْ يدمّر إيماني بأنّ هذه البنت تحيطني برعايتها. لكنّها عندما كانت تتكلّم كنت أتجنّب الاحتقار، وفي الوقت نفسه أحمي الحساسيّة تجاه دفئها.

استوعبتُ أنّ الوصال يعتمد على التوسّع التدريجي في الإلفة والحميميّة. هو تبادل بين شريكين. وأردت أن أتبادل الدفء كذلك. قد يكون تبادل العواطف في هذا الجزء من عالمنا فكرة جامحة فرضناها على أنفسنا وتبدأ المآسي عندما نقتفي أثرها فلا نجدها. ومع ذلك لم أستطع التحرّر منها. سقطت في مصيدة. فالإحساس أنّها تمنحني الدفء دون مقابل كان يريحني، ولكن كنت أغضب لانعدام التوازن في العلاقة.

كلّ هذا وجميلة تترك انطباعًا أنها لا ترى أيّة مشكلة، فهي وبكلّ بساطة لا ترى في منْح الدفء من قبل الرجل تصرّفًا طبيعيًّا. فمحال أن تشعر به. ربّما هي ليست مهتمّة أن يكون منّي؟ كلّ الاحتمالات كانت سيّئة بالنسبة لي. كنت أفتقر لحنان جميلة.

يوجد هاتف عمومي بالقرب من الفندق. اليوم فتاة عاشقة مُحجّبة كانت تتكلّم مع حبيبها. من باب المزاح فكّرتُ بجميلة لأنّه وفي نهاية الأمر هي التي رتّبت لقاءاتنا. هي التي دعتني واتّصلت بي. إنّها العناية والدفء والتأكيد أنّها حين تراني تشعر بالسعادة وحين لا تراني تحنّ إليّ، أضف لذلك الشعور أنّها لا تريد أيّ شيء مقابل ذلك... وهذا يعني أنّها مهتمّة بي.

جميلة تسعى لكسب مودّتي! هذه هي الحقيقة العارية. فعلاً! راق مزاجي فورًا. علاقتنا اتّخذت شكلاً طبيعيًّا. لم أعد أفتقر للمشاعر المتبادلة، فالفتاة العاشقة هي التي تسعى لذلك. والقلق من الاحتقار بدأ يخفُّ، بل يمكنني القول الآن إنّها ملحاحة ومتعبة بشطحاتها. لا أخاف الألم بعد، وعاد كلّ شيء إلى مساراته المعهودة.

في لحظة سعادة طاغية تسلّقت برج قلعة دمشق. على أضواء

المساء الخافتة ودّعتِ المدينةُ النهارَ بدلع عاشقة مشتاقة لحبيبها. جميلة هي البنت التي كنت أبحثُ عنها طوال الوقت. سأسمح لها بالكلام وسأصغي إليها. فيها سأجد منفذًا ينفتح لوحده ويدعوني إلى عالم، دون أن يعاملني كسطلٍ تصبّ فيه غسّالات من الخَبَايا.

يعجبني هذا التعبير. غسّالات من الخبايا. وهذا يكفي تمامًا لتأليف كتاب. الآن أُغلق اليوميّات وأذهب لألعب البيلياردو.

* * *

يوميّات ميريك: حكاية عن اللغة العربيّة وعن من وكيف يفرض شروط الانضباط؟

كنت مشغولاً طوال اليوم بدروس اللغة. في المطاعم والأسواق يتعاطفون مع لغتي العربيّة، وقد يتجرّأ أحدهم فيحاول اصطياد هفوة لغويّة، لكنّه غالبًا ما لا يكون على حقّ. تنصحني جميلة ألّا أكترث أبدًا، لأنّ البسطاء من الناس غالبًا ما يضيعون في الإعراب لأنّهم لا يستعملون في لهجاتهم الإعراب.

أجدُ صعوبات في تعلّم العربيّة بتشكيل كامل للمفردات. الكلام المحكي هنا لغةٌ مختلفة تمامًا. فعندما تستخدم تعابير سليمة لغويًّا عند شراء شيء، تجد على وجوههم ابتسامة الإعجاب والاستلطاف وقد اختلطت بمسحة من السخرية. وقد يغضب أحدهم، لأنّه يظنّ أنّي أُعلّمه.

لم يتعوّد السكّان هنا على أجانب يتكلّمون بلغتهم. وبعضهم حتى عندما يحاول أن يتكلّم كما تعلّم في المدرسة، فهو يفتقر للمرونة، كي

يفهم بعض الكلمات المحرّفة أو التركيب الغريب للجمل.

ويصل الأمر ببعضهم عندما تكلّمه بالعربيّة أن يضطرب ويعتذر بلهجته المحلّيّة بأنّه لا يتكلّم الإنكليزيّة. لن تجد أحدًا مُستعدًّا لحالة كهذه. القليل يصدّق أنّني مُعجب باللغة العربيّة، ويردّدون أنّها لغة صعبة لا يمكن التمكّن منها وأنّهم أنفسهم لديهم مشاكل في إتقانها. وتتفتّق عبقريّة البعض أنّي عميل لمخابرات أجنبيّة، ممّا يذكّرني بتفكير جميلة: إذا لم يثبت الواقعُ النظريّةَ فالعيب يكمن في الواقع.

شعراء!

يجب التنبيه هنا بأنّ الوحدة اللغويّة العربيّة ما هي إلّا شعارات فارغة. فالمغربي يفهم اللبناني بصعوبة، وكلاهما يفضّل الحديث بالفرنسيّة. وتأتي قيمة اللغة العربيّة في مَنْع ترجمة القرآن للغات أخرى! وتأتي أهمّيّة الإنكليزيّة ليس لكونها تساعد في الحصول على عمل أفضل، أو في التفاهم مع الأجانب الغامضين، بل لأنّهم معقّدون من لغتهم الأمّ.

موسيقى اللغة العربيّة المتميّزة وبنيتها القائمة على الجذور التي تتحوّل إلى أفعال وأسماء وحروف تندثر بسبب الإهمال. وتستخدم بعض وسائل الإعلام اللغة الفصحى. المدارس فقط تعلّم العربيّة كما يجب، لذلك كان الشبّان يفهمونني جيّدًا والعكس أسوأ بكثير، فلا يمكنني التفاهم مع كبار السنّ. فنحن نتظاهر بأنّنا نتكلم العربيّة، ولكنّنا غالبًا ما نُزعج بعضنا في محاولاتنا كي نفهم بعضنا.

كُتبَ مساءً: كما أرى فقد عقدت العزم أن أكتب تأمّلاتي في اللغة العربيّة. ربّما أجمعها في المستقبل. اللغة العربيّة لا تعرف الحروف الصغيرة والكبيرة والصوائت فيها ليست حروفًا في الأبجديّة

العربيّة، كما لا تُسجّل بعض أواخر الكلمات أو علامات الترقيم وقديمًا لم تكن الحركات تُكتب. والخطّ العربي كثيرًا ما يُستخدم كعنصر زخرفي في العمارة وهناك صعوبة في قراءته إلّا إذا كان الشخص يعرف مُسبقًا النصّ المكتوب. وقارئ الخطّ الزخرفي العربي لا يعرف من أين يبدأ لعدم وجود الأسطر. وتشتبك حروف الكلمات وحركاتها فيما بينها. فبعضها يتّصل ببعضه وبعضه لا يجوز أن يتّصل بغيره والفاصل داخل الكلمة يشبه الفاصل بين الكلمات.

على الرّغم من الأشكال الهندسيّة للخطّ الزخرفي العربي فهو يستحضر الفنّان ؛ول كلي (Paol Klee). إذا لم يُشكّل الحرف فيمكنكَ قراءته بأشكال مختلفة وهنا تكمن واحدة من أهمّ مشاكل تفسير القرآن. فالكثير من التعابير تحتمل وجوهًا كثيرة ويمكننا أن نفهمها في سياقها الذي افتقدناه الآن.

اللغة العربيّة تعتمد الجذر الثلاثي والذي منه تُشتقّ الأفعال وغيرها من أقسام الكلام. وهذا يذكّر بالفنّ المعماري، ففي المساجد على سبيل المثال أي في الأماكن التي يتجمّع فيها الناس، فإنّ التصميم المعماري لا يفرض التراتبيّة. في الكنائس المسيحيّة نجد أنّ أجنحة الكنيسة وهيكلها ومذبحها تُري اتّجاه الصلاة فورًا. البنية المعماريّة تفرض ذلك حتى إذا كنتَ تجهلها. ولا تَجْهَرْ بصَلاتِكَ ولا تُخافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بينَ ذَلكَ سَبِيلا ـ كان العقيد يردّد الآية القرآنيّة.

واجهات المباني الأوروبيّة تتّسم بالترف والخيلاء لكنّ المباني الخلفيّة تستر الروائح الكريهة. البنية الإمبراطوريّة تفرض نظامها على العالم. ممّا يشكّل الضدَّ للقاذورات في الشوارع الشرقيّة التي تخفي البيوت وباحاتها المزيّنة. وهذا واضح لأولئك الذين تعرّفوا على البيوت، أو هم موقنون بذلك.

يفهم العالمَ أولئك الذين تفهَّموه قبل ذلك. هذه الفكرة العبثيّة قد تشكّل أساس الشرق.

* * *

يوميّات ميريك: حكاية عن السيّاح وعن جميلة التي كان من المفروض أن تأتي لكنّها لم تفعل

كان البرنامج الفنّي الذي أُقيم في فندق أحدِ معارفِ هارون مُخجلاً. عروض تتملّق السيّاح. ورغم أنّ الجميع متّفق على أنّ الحفلة مَسخرة إلّا أنّهم انجرّوا إليها. وتحوّل العرض التمثيليّ إلى مهزلة. من المؤسف عدم وجود مرايا هناك. راق مزاج السيّاح على حساب السكّان المحلّيين عندما أحسّوا بأنّهم أفضل، أمّا في حقيقة الأمر فهم كانوا مُضحكين، وتملّكني شعور أنّي أمام إخراج متقن لكوميديا من الأخطاء.

بفضل العرض تعمّقت علاقتي بهارون. جلسنا إلى طاولة واحدة وكان طول الوقتِ يلقي أشعارًا رائعة في الحبّ وكأنّه يُعلّق على العرض. فهمت منه أكثر ممّا كنت أفهم من العقيد، خاصّة وأنّ هارون كان يساعدني بصبر. لم أذكر له أنّي على موعد مع جميلة. لم تأتِ. وطبعًا لم تخبرني أنّها لن تأتي. أيكون قد علم بالأمر فواساني بالشعر؟

انتظرتُ جميلة أكثر من ساعة. لم تظهر البنتُ ولا أمّها في المكان المُتّفق عليه، أمام الدكّان. كنتُ مُمتعضًا جدًّا. تقاذفتني الأفكار. أتراها أرادت أن تجعل منّي ألعوبة، أم أنّي أخطأتُ في مكان اللقاء. نظرت داخل الدكاكين وفتّشتُ في الشوارع الجانبيّة بلا نتيجة. وخطر لي في نهايةُ الأمر أنّها تركت لي خبرًا في الفندق. ركضتُ إلى

هناك. لا شيء. أردتُ الاتّصال هاتفيًّا. ولِمَ أتّصلُ؟ في نهاية المطاف من لم يأتِ في الموعد أنا أم هي؟ في تلك الأثناء أخذني هارون معه إلى الحفلة.

استيقظت اليوم وأنا أظنّ أنّي خُدعتُ بهما. فالحقيقة أنّ جميلة ليست المرأة التي أبحث عنها. كيف سمحتْ لنفسها أن لا تأتي دون سابق إعلام. لقد انتهت العلاقة التي تطوّرت يومًا بعد يوم بشكل عنيف. تُرى هل كانت الجورجيّة على حقّ؟ أحسُّ بالأنشوطة تشدّ على عنقي.

عندما حاولت في الفندق استدراج هارون في الكلام متسائلاً هل ترك أحد رسالة لي، نظر إليّ ثم ابتسم ثم قال: أتعرف؟ تذكّرت جميلتكَ هذه. سكنتْ في البداية مع أمّها في فندق قريب في الشارع المجاور، بعد ذلك انتقلت إلى مربّع القلعة، بعد ذلك انتقلت إلى الفندق الذي تعرّفتَ فيه عليها. لديّ معارف في كلّ الفنادق ونحن أصدقاء. كانوا يتّصلون بي كلّ على حدّة ليقولوا: أتعرف؟ عندنا نزيلة من لبنان تسكن مع أمّها، وهي لطيفة تضحك كثيرًا وشكلها تمام التمام، والكلّ يكرّر أنّه حاول أن يلمسها لكنّه فشل لأنّها صدّتهُ، وكانوا يختمون كلامهم: حاولْ أنتَ، لربّما تكون أسعد حظًّا منّي. واستطرد هارون، لم أحاول طبعًا، ثم وجّه كلامه لي: على أيّة حال لا تقلق، لأنّ ما حدث مؤشّر جيّد.

صُدمتُ.

كانت مدرّسة الأدب تعلّمنا إذا لم نفهم القصيدة علينا أن نحلّلها من ناحية الشكل. طريقة قديمة مُجرَّبة... كانت رواية هارون خالية من الاستشهادات المنمّقة وكان يحدّثني دون كلفة ذكّرتني بأبطال

قصص الحبّ العربيّة. في الطُرُز الأُولى هناك شخوص تحيط بالعاشق من الصديق المخلص والغريم الغيور والمُفتري الخطير، حتى الشخص الذي ينصح وإذا اقتضى الحال يوبّخ كصاحبتنا الجورجيّة؛ ويحدّثنا ابن حزم عن أمثال هؤلاء بأنّهم «أفضل من كثير المساعدات وهي الحضّ والنهي وفي ذلك زاجر للنفس عجيب وتقوية لطيفة لها عرض وعمل ودواء تشتدّ عليه الشهوة. لا سيّما إن كان رفيقًا من قوله حسن التواصل إلى ما يراد من المعاني عالمًا بالأوقات التي يؤكّد فيها النهي وبالأحيان التي يزيد فيها الأمر والساعات التي يكون فيها وقفًا بين هذين.

إضافة بعد انقطاع قصير:

طلبني البوّاب للتوّ للهاتف. كانت جميلة. اعتذرت ألف مرّة كما يليق بامرأة شرقيّة وكما يليق بالرجل عليه أن يعذرها. أضف لذلك أنّها (كما قالت) اتّصلت قبل ذلك لكنّي لم أكن، وحتمًا لم يخبرني الأوغاد في الفندق بذلك ولا بدّ أن نلتقي غدًا. بعد ذلك سألتني كيف أُمضي الوقت وعن حفلة الفندق وهل كانت ناجحة؟ وكيف مزاجي العامّ وهل أحتاج لشيء؟ إذا صادفتني أيّ مشكلة عليّ أن أخبرها على الفور، لأنّها ستفعل كلّ شيء لمساعدتي. وبشكل عامّ هي تشتاق لي وترغب في رؤيتي بأسرع وقت.

طيّبْ، طيّبْ. لا أزالُ آكل قليلاً، ولا يزال شعري خفيفًا فالشامبو لا يريد أن ينتهي. ومع ذلك فرحتُ. فاللقاء الذي لم يتمّ ما هو إلّا مُنعطف على طريق (كما يقول يان سوبارت) يشبه ساق شجرة ضخمة تمتدّ أغصانها حتى السماء. لم تقل جميلة ما الذي منعها من القدوم، لكنّها تريد مقابلتي وهذا هو المهمّ، واتّفقنا أن تأتي للفندق لنلتقي صباح اليوم التالي.

سأنام. صبي في المدرسة... هل أحلم بالطيران؟ الأدب هنا مفتاح للواقع وليس العكس.

* * *

يوميّات ميريك: حكاية عن زيارات جميلة والمقايضة بالبنات

لا يستطيع السكّان المحلّيّون الدخول لفندقي إلّا بإذن خاصّ. بعد المكالمة الهاتفيّة مباشرة طلبتُ من هارون أن يُدخل جميلة.

طرقت الباب قبل ساعة من موعد قدومها. وصدف أنّي كنت آخذ دوشًا فطلبتُ منها أن تنتظر في الخارج، ريثما أرتدي ثيابي. قابلتني بترحيب ساخن وقالت مازحة إنّها جلبتْ لي منشفة ولكنّي كما يبدو لن أحتاجها. وهذا غير مهمّ، خاصّة وأنّها جاءت قبل كلّ شيء لتقول لي إنّ زملاءها ينوون السفر بالسيّارة إلى مدينة جبيل وستذهب معهم إن لم يكن لديّ مانع.

صُعقتُ.

قالت إنّها لن تذهب إذا لم أوافق.

ما الذي يدعوني ألّا أوافق؟ هناك أشياء جديدة سأقوم بها في الأيّام القريبة القادمة. لطيف منها أنّها جاءت لتخبرني. حين أعرف ماذا تفعلُ يمكنني الاستمرار بدونها بكلّ هدوء. وانقطاع رعايتها لن يضرّني بشيء. حضنتني وهي تودّعني قائلة أن أنتبه على نفسي ووعدتني بالعودة بسرعة.

مضت عدّة أيّام على ذلك وحدث الكثير لدرجة أنّني لم أتمكّن من فتح اليوميّات. تنفّستُ الصعداء. وحدث قبل ذلك أنّي فقدت

شهيّتي لجميلة. وعندما كان هارون يخبرني بمكالمة منها كنتُ أتناوم ولم أكن أتّصل فيما بعد. حتى إنّي في إحدى المرّات اخترعتُ قصّة مفادها أنّ عمّي من أستراليا الذي يدور حول العالم زارني بشكل مفاجئ ولذلك لم أتّصل بها. وأثّرتِ القصّة فيها كثيرًا، وكنت واثقًا أنّها لم تصدّقني. ومنذ ذلك الوقت بدأت تصغي إليّ نوعًا ما.

علمتُ من هارون أنّ أمّها خديجة عادت إلى عمّان، لأنّ ابنتها حصلت على مفاتيح غرفة في بيت الطلبة. في آخر لقاء ثلاثي أطعمتاني شوربة مع خصيان خروف وهما تبتسمان بملء شدقيهما. كانت تلحّ عليّ أن آكل وهي تغمز إلى ابنتها. بدا جلدها في ضوء المطعم الناصع أكثر تغضّنًا وذكّرتني بجدّتي ومنذ ذلك الحين ازدادت مكانتها في نفسي. عندما أكلنا الحلوى بعد الغداء ذهبت جميلة لدقائق فقالت لي أمّها إنّ جميلة بنت طيّبة فأيّدتها ولم نتحدّث عن ذلك أكثر. لم تتركْ خديجةُ انطباعًا أنّها ترمي ابنتها في أحضاني، إلّا إذا أغرقنا في تأويل خصيان الخروف.

في الطريق إلى طرطوس مررنا في قرية مع عدّة رجال. هناك قلعة فوق جبل تحصّن فيها الصليبيّون لمدّة طويلة بعد سقوط القدس في أيدي المسلمين. توقّفنا في مطعم تُقدّم فيه امرأة مع ابنتها «لحم بعجين». كان التنّور محفورًا في الأرض، وكانت الأمّ تراقب الأغصان التي تشتعل في القاع، بينما ابنتها كانت تُلصق الأرغفة المدهونة بعجينة من الفليفلة واللحم المفروم. ربّما كانت البنت في الرابعة والعشرين من عمرها. عيناها وحشيّتان ووجهها داكن مع ندبة صغيرة على خدّها. تتكلّم الإنكليزيّة بطلاقة. غير مُحجّبة لا هي ولا أمّها كأغلب الريفيّات.

همس أحد الرِّجال المسافرين معي، أنّه في القرية، مَنْ في عمرها

يتزوّج وعقّب لا بدّ من عيب فيها. شعرت الأمّ أنّي مُعجب بابنتها، رغم أنّها لم تكن تفهم الإنكليزيّة. عندما علمتْ أنّي درستُ وسكنت في أوروبا اقترحت عليّ أن أستريح عندهم وأستطيع أن أتابع سفري في الغد، وسأنام في غرفة أنيقة فيها كلّ شيء وفي الليل سيأتي أحد لزيارتي. في تلك الأثناء كانت البنت توزّع الأرغفة وتصبّ الماء وهي تبتسم. لم تعلّق على أقوال أمّها رغم أنّي كنت أتكلّم بالإنكليزيّة.

كلّما طال الفراق مع جميلة ازدادت قناعتي أنّ رعايتها لم تكن خدعة. ونظرًا لعدم وجود أحداث جديدة فقد قامتِ الذاكرة بتنظيم الذكريات. تصرّفات جميلة التي أذلّتني وآلمتني أكّدت لي مشاعر الودّ اتّجاهها. الودّ على الأقلّ... ولم يصدّها عنّي أيٌّ من حركاتي. قبّلنا بعضنا في آخر لقاء لنا في الفندق. ربّما لأنّ الأمور أفلتت من يدنا، وهذا ما يحصل في لحظات الوداع غالبًا. لم أشعر بأيّ التزام نحوها خاصّة وأنّها هي من بادر للقبلة. سنرى ما سيكون عندما تعود.

* * *

يوميّات ميريك: حكاية عن كيف خدعتْ جميلةُ ميريك

حدث الكثير مؤخّرًا، حتى إنّي لا أستطيع الكتابة في اليوميّات. أينما جلست، جلس شخص ويبدأ الكلام. أثناء تجوالي في المدينة أتواصل مع أشخاص مثيرين للانتباه، وتعلّم اللغة يمنحني سعادة ما بعدها سعادة. هذا بالضبط ما أريد فعله يا بابا! أن أقضي الوقت مع الناس وأُتقن العربيّة، كما في مصنع الأحلام الذي أملكه.

جميلة تؤرقني. لو كانت تشعر بشيء يشدّها لي لاتّصَلَتْ منذ زمن بعيد. قبل ذلك عندما كنت لا أتكلّم معها مساءً كانت تندب حظّها

التعيس أنّي أتركها وحيدة لمصيرها. والآن طالت «عدّة أيّامها» إلى أسبوعين، ولا أعرف أحدًا من صُحبتها ولا أعرف شخصًا في دمشق يمكنني أن أسأله عنها. حاولت الحديث مع ميكواي فتملّص ولو حدّثتُ هارون في الأمر لَسخر منّي وسألني هل ينقصني كسكوسات؟

سواء قلتُ إنّ جميلة عشيقتي، أو قريبة لصديق لي في بولندا أو أحد معارفي، فلا بدّ للقصّة أن تكون جذّابة. إذا كنتُ أفتّش عن مساعدة، لا بدّ أن أضع بنية مُشوّقة محدّدة للرواية. ولكنْ حينها سيكتسب كلّ واحد الحقّ في أنْ يغمزني من باب المُحاباة بأنّه يعرف أنّ القصّة مُختلَقة، والأسوأ من ذلك، يعرف الحقيقة بهدف الحصول على قصّة أخرى منّي تسدّ احتياجات أخرى.

ولكنْ من خلال الحكاية، وحتى لو حصلت على المساعدة، سأصبحُ جزءًا من الحبكة القصصيّة التي بدأتها بنفسي وهي مسألة حسّاسة بالنسبة لي. أردتُ تجنّب ذلك. ولفترة ما اعتمدت على نصيحة المدرّس من حلب بأنّ الوقت يمضي بشكل مختلف تمامًا بصحبة الآخرين. تصوّرت كيف تلهو جميلة وأنا في حالة نفسيّة فاجعة. عاد صُداع الشقيقة كما كانت في موقع العمل، ووجدت صعوبة كبيرة في النوم.

أحسّ أنّ جميلة خدعتني. بدأت الذاكرة تجمع قواها للعمل، وبدأتْ هذه المرّة ترتّب الذكريات آخذةً بعين الاعتبار الخديعة. هل كنتُ ساذجًا لدرجةِ أنّي صدّقتُ أنّ بنتًا عربيّة تدعوني للمطعم لأنّها بكلّ بساطة تحبّ أن تراني؟ ألا يكفي ما سمعته عن صبايا يرافقن ويعتنين بالشباب النواعم فقط ليجعلن منهم أزواجًا؟

وماذا إن جميلةُ لم تحدّثني عن الهجرة؟ كانت بكلّ بساطة تنتظر

حتى أكلّمها أنا. أرادت أن تكسبني، ولم ترغب أن تعرّض نفسها للصدّ من خلال سؤال بسيط. وماذا عن خديجة التي كانت نظراتها تبارك لقاءاتنا، في الوقت الذي تمنع الأمّهات بناتهنّ الخروج برفقة الرجال؟ كانت تعتقد أنّي الزوج المثالي لابنتها، خاصّة وأنّ جميلة بقيت لمدّة طويلة في كنف والديها. تُرى ماذا كانت تفعل في السنوات التي تفصل بين إنهاء المدرسة وابتداء الدراسة الجامعيّة؟

الحقيقة هي أنّ محاولات جميلة انتهتْ بقبلة اضطراريّة، لا يمكن لأيّ رجل أن يرفضها. كان السفر إلى جبيل صرخة يائسة، وكان المفروض أن أثور رافضًا لكنّي فرحتُ. فما الذي يجعلها تتّصل بي؟

لقد فهمتُ. رتّبت جميلة كلّ شيء ببرود. لم تتّصل لأنّها أخطأتِ الحساب. وتستحقّ ذلك، لأنّي كنتُ ضحيّة لدسيسة تسعى لتزويجي. كنت من النواعم للعينين واليدين وللحديث.

حسنًا! أعرف الكثير من الفتيات اللواتي يستطعن أن يقعن في غرامي. منذ اليوم تستطيع جميلة ألّا تتّصل بالقدر الذي تريده.

* * *

يوميّات ميريك: حكاية عن كيف يخاف ميريك على جميلة

حدّثني ميكواي أثناء الدرس أنّ صورة المرأة الأوروبيّة في جواز السفر في الخمسينيّات من القرن الماضي، كان يُنظَرُ إليها على أنّها خلاعيّة لأنّ الشعر يظهر فيها. ضحكتُ ورأيتها قصّةً مُضحكة، عبّرتْ على الأغلب عن مشاعر خبيثة ومبالغة في الوَجد المختلط بالاستياء لرجل من أصل أوروبي. زرعت الرواية الآن الخوف في نفسي. قد تتعرّض جميلة للسوء، فهي شابّة وحيدة في بلد غريب. الكلّ يعرف

هنا من لهجتها أنّها ليست من هنا، وأسرتها بعيدة من هنا. هل عندها أصدقاء هنا؟ لم تكلّمني عنهم أبدًا. بالكاد انتقلتْ إلى بيت الطلبة ولم تتعرّف على أحد بعد. إذا حدث لها شيء، ستمضي الأسابيع قبل أن يعرف أحد بذلك.

كنت بالأمس في مسجد شيعي. مقام حفيدة النبي محمّد، السيّدة زينب. فكّرتُ مليًّا بالأمر. القرميد الملوّن والتفاصيل الرائعة تغطّي المسجد ومآذنه. مئات الحجّاج يتدافعون كي يلمسوا القضبان الفضّيّة للضريح. من أحد الجهات نسمع نشيج وصرخات الرجال وهم يمسحون بأياديهم على الضريح في حالة من النشوة. من شقّ الستارة أبصرتُ النساء وسمعت نواحهنّ. كنّ يربطن الأشرطة ويرمين بحمّالات الصدر وغيرها من الأشياء النذريّة. وعندما خرج هؤلاء من المقام نحو الساحة كانوا يتحادثون ويأكلون مع أُسَرِهم، أو يتبضّعون في السوق أمام المدخل. في أحد المرّات رأيتُ طوافًا دينيًّا مع العقيد عندما كنت في موقع العمل، وأعجبني استشهاده بشعر يقول:

لا ترهقوا أنفسكم فأنتم لا تصلّون لأصمّ أو لغائب، نادُوا ذلك الذي يسمع ويرى كلّ شيء.

كان الحرّ شديدًا فاضطررت للعودة للفندق. القرع على الأواني وتصفير مربّي الحمام لم يسمحا لي بالنوم. خرجتُ للشرفة أتفرّج. ما إن يُستدرج سرب الحمام بالصوت ليحطّ على السقف حتى تجد الحمام يطردها. كنت منزعجًا جدًّا لذلك. شرح لي هارون أنّ هذه لعبة تعتمد على استدراج حمام من المنافسين وذلك بأن يقوم سربكَ بالتحويم في السماء حتى يدوّخ الحمامة المطلوبة ويجبرها على الهبوط فتمسك بها وتطالب مقابلاً لإعادتها.

مساءً بدأت أقلق على جميلة. حاولت أن أتذكّر الأشخاص الذين من المفترض أنّها سافرت معهم. لا أعرف شيئًا عنهم. أتذكّر سيّارة أرتني إيّاها أمام الفندق. فكّرت فورًا بأشغال العراقيين الغريبة، وفجأة بدت كلمات الجورجيّة وكأنّها نبوءة. لم تكن تُحذّرني بل تحذّر جميلة! ماذا كانت تعرف هذه الأمّ المُتعبة التي اختفت فجأة بقدرة قادر وصارت أثرًا بعد عين؟ الآن قصّة هارون أيضًا تتّخذ معنى آخر. فقد يكون أحد هؤلاء الذين رجعوا من عندها بخفّي حنين لم يكتفوا بذلك؟ وربّما كانت قصّة هارون المُضحكة محاولة لتغطية النوايا الحقيقيّة. لا بدّ من سبب جعل خديجة أن تأتي قبل نصف سنة إلى دمشق.

كنتُ أنانيًّا غبيًّا، ولم أنقل تحذيراتي في الوقت المناسب. اتّصل هارون باسمي مع أسرتها في عمّان وتأكّد أنّهما لا يعرفان شيئًا. قرّرت أن أفعل شيئًا. سأذهب إلى بيت الطلبة، ولكنّي لا أعرف لقبها.

تستطيعين أن تعتمدي عليّ يا جميلة!

ـ أين المفرّ؟! ـ صرخ البائع وهو يطرحني أرضًا. ـ هات اليوميّات!

أين أنتِ يا شمسي؟ انتهى الكسوف... ورمى السيّاح بنظّاراتهم وصارت الشوارع مزبلة للألوان.

ـ لكنّها يوميّاتي!

ـ لكنّها حياتي!

ـ سيّداتي الرائعات سادتي الرائعون! صار ميريك... ها ها ها عاشقًا.

ـ كش كش أيّها العيّار!

ـ أساعد في قهر الهموم! أروي الحكايات.

قمْ للمعركة أيّها الشاعر!

الحرارة شديدة. نرجيلة. فندقي. رنّة... وطنّة!
عربيّات ذوات أجساد تُجاري الأرابسك في جمالها.

مليحة أيّ الوقار في زمن الإنترنيت

تستطيعين أن تعتمدي عليّ يا جميلة!

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... أَعدّ الميكروباصات التي تمرّ. أين لي أن أعرف أيّ سرفيس، يجب أن أُوقِف؟

ـ فروووو ـ وطار السرفيس من أمامي بلوحة غير مقروءة، وأنا في كلّ الأحوال لا أعرف اسم الحيّ الذي أريد أن أسافر إليه، ناهيك عن موقف السرفيس الأخير. كلّ لحظة ترى شخصًا يؤشّر بيده فيتوقّف السائق بطريقة جديرة بمتزلّج على ثلوج جبال الألب يقوم بحركات بهلوانيّة ليتسمّر فجأة.

ـ عفوًا سيّدتي، أريد أن أسافر إلى الجامعة. أيّ سرفيس يذهب هناك؟

ـ آه! لغتكَ العربيّة جميلة! أين تعلّمتها؟

ـ شكرًا. هذا لطف منك. تعلّمتها هنا وبدأتُ في أوروبا. قولي لي من فضلك، إلى الجامعة...

ـ من أين أنت؟

ـ أرجوك أنا مستعجل... (أصوات جانبيّة: شباب هذا الزمان ليسوا مؤدّبين)

ـ لماذا تريد الذهاب هناك؟ الجامع عند الزاوية. اذهب مشيًا على الأقدام!

ـ كيف؟ الجامعة بعيدة من هنا.

ـ لا لا هو خطوتان من هنا. تريد أن تزور هذا الجامع؟ هو جميل جدًّا. سأريكَ إيّاه. أنت مسلم؟ (أصوات جانبيّة: عجوز خرفة)

ـ سيّدتي أريد الذهاب إلى أَلجَامِعَةِ، إلى بيوت الطلبة.

ـ آه. الآن فهمتك. بيوت الطلبة في مركز المدينة قريبة من الجامع. تعالَ لنعبر الشارع إلى الجانب الثاني.

إنّها وبكلّ بساطة ستذهب معك وتدلّك. ولكن على ماذا؟

(أصوات جانبيّة: كلمة جامعة هي نفس كلمة جامع ولكن في حالة المؤنّث. الآذان الأجنبيّة لا تراعي المقدّسات. وأريحيّة الشبيبة تُفسد المحيط.)

ـ اسمع ـ وتابع السائق ـ عليك أن تلفظها مع التاء المربوطة والآن انتبه «جَامِعٌ» و«جَامِعَةٌ». أقولها بكلّ صراحة رغم أنّي أخجل من نفسي، لكنّها الحقيقة، فأنا لا أسمع الفرق.

تحرّكنا من الموقف. تبيّن أنّ أحد الركّاب أستاذ جامعي يحاضر

في مادّة الأدب. وعدني بأن يُريني إدارة بيت الطلبة.

تستطيعين أن تعتمدي عليّ يا جميلة.

ـ هناك الكثير من السَّمراوات الجميلات وسط الطلّاب.

ـ أعرف هذا وأنا أفتّش عن جامعة لا عن معبد. ولا فتيات!

تحرّكنا من الموقف.

ما هذه القيادة؟ السائق يتنقّل من اليمين إلى اليسار كما يشاء. عند الزاوية خرائب أسوار المدينة ثم التقاطع وفيه برج للساعة من عهد الاستعمار، يمكننا الحصول هناك على رقائق الشوفان. هنا ضمّتني جميلة لصدرها أمام دكّان الجلّابيّات.

الزحام كبير.

سيّدات يتمشّين. سيّدات رائعات. الحمَّام العامّ مخصّص للنساء اليوم. فكّرت في الثبات. منذ مئات السنين الأمكنة... آخ... أفكّر... الحياة الأبديّة واللذّة هي في السماء. والحمّام؟! هنا يُدخلون لهذه الجنّة الصبيان غير الناضجين.

تحرّكنا من الموقف.

على الزاوية فطائر للفطور، ثم مدرسة اللغات. ميكواي يلوّح لي بيده من نافذة بعد نادي البيلياردو والذي في ساحته عزاء وهو يختبئ هاربًا من أعين الفضوليين وحيث القلب يدقّ بمسحة من البيتوتيّة بحيث يمكن للمرء أن يخرج ويمكنه أن يعود.

عدد الركّاب يخفّ.

بعد مبنى البريد الرئيسي نسير على جسر. شارع عريض يتسلّق مرتفعًا ثم يتفرّع. ليس الطلّاب من يقف وراء ذلك. المعماريّون

متآمرون. البسطاء منفتحون. سكّة للحديد. أحزن له، أمير أبيض وحيد، ملوّحة القطارات تهبط لأنّ قطارًا من حلب مرّ بسرعة. سأعود مرّة أخرى هناك.

تحرّكنا من الموقف.

مدرسة. في الملعب أطفال في زيّ موحّد... بيبيبيب! سائق مستعجل ومتحمّس رغم زحمة السيّارات... والله أكبر، انطفأتْ مشاعره الملتهبة وتنفّس الصعداء. لفحة هواء من نافذة الميكروباص... الله! لفحةٌ أخرى وانتبهت أنّ شيئًا غريبًا يحدث... يا إلٰهي! هناك تقصير من أحد، ربّما نسي أو لم يفكّر، على أيّة حال... يا إلٰهي! لماذا للعين رمش وليس للأذن؟

في صمت، آه، أخيرًا أستطيع أن أتمطّى وأستند لشيء... ببساطة... ما يمشي الحال.

نزلنا في الموقف.

أيادٍ صخريّة بحركات متعجرفة وسط النخيل والصّبّار. ترحيب الإدارة الاشتراكي.

يقول ميريك في يوميّاته:

تسكن الطالبات في مبنى مستقلّ، لا يستطيع الرجال دخوله. أمام الباب وقف عاشقان. لا يوجد ظلّ. يستخدم البوّاب قائمة بأرقام الغرف. بناء على طلب الضيف يضغط على زرّ، فتأتي واحدة من أربع بنات يسكنّ في الغرفة لتعرف لمن جاء الضيف.

عفوًا: هل كنتَ تتردّد كثيرًا هنا؟ لأنّك تعرف كلّ شيء بدقّة.

لا! يان كان يتردّد.

عندما سألتُ عن جميلة خُيّل لي أنّ البوّابة ابتسمت بشيء من التهكّم. نزلتْ من الغرفة مليحة وقالت إنّها تسكن مع جميلة ولكنّها غير موجودة منذ زمن بعيد. ولم تستطع أن تحدّد بالضبط منذ متى خاصّةً وأنّها عادت للتوّ من عطلتها.

اتّفاقيّتي مع دار النشر تلزمني بكتابة ٢٦٥ صفحة ونحن بالكاد تجاوزنا ١٠٥. رقم الخمسة العربي يبدو كدمعة حزن تسقط. المعذرة، سنتحدّث عن الحزن فيما بعد. نحتاج الآن للصفحات...

تصرّفت مليحة بلباقة، لم يَبدُ على وجهها أيّة تعابير ساخرة وهي تنظر للعامل هناك. تنزّهنا في محيط المباني وأخبرتها كيف تعرّفتُ على جميلة. شاءت الصدف أن أنزل في فندقها، بعد أن انتقلتُ إلى دمشق، وهناك ربطتنا صداقة وأحببتُ أمّها كثيرًا. كان يهمّني أن تعرف أنّ الصداقة فقط تربطني بجميلة وأنّ والديها يوافقان على لقاءاتنا. كرّرتُ ذلك وأنا أبتسم محدّقًا في عيني الفتاة بأنّه لا حبّ يجمعنا، لكنّها لم تُبدِ اهتمامًا بأنّنا كنّا نتلاقى ونذهب سويّة للمطاعم وندخّن النرجيلة وهذا كلّ شيء. إلى ذلك عندي صاحبة أعرفها من أيّام المدرسة وأحببنا بعضنا من أوّل نظرة ولا نزال نحبّ بعضنا، بل مرّة صعدتُ إلى برج في قلعة دمشق...

هنا وقعت في خطأ، لأنّ مليحة تعرف جيّدًا أنّ القلعة مغلقة بسبب الإصلاحات.

لم تسأل الفتاة عن أيّ شيء. ولم أرَ من ملامحها الكثير. رغم الحجاب أخمّن أنّ شعرها طويل وأعجبتني يداها. كانت قصيرة ذات أنف غريب وتثير انتباه الآخرين، لأنّها زنجيّة... شفتاها النافرتان وأصابعها المصبوغة بالحناء كانت غريبة بالنسبة لي. قال أحدهم إنّه

تجميل تقليدي. كانت مليحة متواضعة ومُتديّنة، وتطمح أن تصبح في دمشق صيدلانيّة. فاجأني فستانها الفضفاض. في هذه السنة سَمنتُ عشرة كيلو. كان هذا أوّل ما سمعته منها.

ـ آخخخ ـ انزلقت رجلها فتشبّثت مليحة بيدي. يا له من حدث!! كان الناس يقفون وينظرون إلى زنجيّة مُحجّبة تتنزّه مع أمير أبيض. فجأةً من النافذة ظهر أستاذ الأدب. نعم هو نفسه. تبادلنا التحيّة. طبعًا. قلّدنا بتهكّم تعابير الوجه. ضحك الأستاذ معنا. فمن يعرف هل نحن معًا لأوّل مرّة؟

عندما رجعنا إلى بيت الطلبة طلبتُ من مليحة أن تكتب لي رسالة إلكترونيّة وأعطيتها عنواني واسمي الحقيقي.

أي سوبارت؟ سوب ـ أرت!

سمّيني ميريك يا مليحة!

وهكذا قرأ ميريك وترجم يان وعندما اختلط الأشخاص ناهيك عن قواعد اللغة...

جانبًا: مرّة نجحَ ومرّةً لا، وضعَ الأولى فوق الثانية وزاد الثالثة كي يضع رابعة حقيقيّة. خاصّة وأنّ الأولى أي الجميلة كانت تكتب بالإنجليزيّة كما تكتب بالعربيّة ومن هنا حصل الكثير من سوء التفاهم.

* * *

هالو ميريك

لأوّل مرّة أكتب لك رسالة إلكترونيّة ولا أعرف عمّاذا أكتب. أنا فرحة أنّنا تعارفنا على بعضنا. ولا توجد مناسبات كثيرة لأكتب باللغة الإنكليزيّة. أنا سعيدة جدًّا.

لحدّ الآن أستطيع القول إنّ جميلة لم ترجع لبيت الطلبة ونحن قلقات عليها خاصّة وأنّ دورة الامتحانات على الأبواب سأخبرك حالَ عودة جميلة.

أتعرف أنّكَ أوّل مسيحي أتعرّف عليه كنتُ أعتقد طوال الوقت أنّ المسيحيين سيّئون وعليّ أن أعترف أنّك أوكي OK هل سأبّدل رأيي؟

سأكون مسرورة لو جاوبت على رسالتي أتمنّى التوفيق لكَ ولعائلتك كلّها وصاحبتك وأتمنّى أن تتمتّعوا بالصحّة والسعادة!

مليحة

* * *

مرحبًا ميريك

أنا سعيدة لأنّك كتبت لي لم أتوقّع ذلك.

أنا سعيدة لأنّ دروس اللغة العربيّة تبعث فيك البهجة في المرّة القادمة ستتكلّم بلغتي.

كان الطقس جميلاً صباحًا لذلك تنزّهت في الحديقة وتمعّنت في الزهور كان النخيل يفوح بالسعادة ففكّرت أن نلتقي مرّة أخرى لو كانت عندك الرغبة في ذلك سأكون سعيدة أنا لست من اللواتي يرين مانعًا في لقاء الرجل بكلّ سرور ألتقي معك والله يعرف ما هو الأحسن ولم يحرّم اللقاء وهو الأحد ويحبّ جميعَ من يؤمن به أي المسيحيين واليهود كذلك أحسّ بمحبّته ولا أريد أن أخيّب أمله فعليّ أن أكون مطيعة لله فليس من الممكن رفض أحاسيس قوّة مطلقة أنت تعرف أنّ كلمة دين بالعربيّة تعني الالتزام والشعور بالفضل عليك لذلك تعرف كيف أفكّر الآن.

أظنّني لم أقل لك إنّ والديّ مسلمان لذلك هربنا قبل الحرب من أريتريا إلى العربيّة السعوديّة وهناك حصل أبي على عمل جيّد وكان طوال اليوم يعمل خارج البيت ولكنّه في المساء كان يسخّر وقته للّعب معي ومع أختي الآن أفهم لأنّه كان يعاني من وجوده في بلد غريب لكنّه كان معنا مرحًا ولم ننتبه لشيء.

فضل والديَّ عليّ كبير وأتمنّى أن يرضيا عنّي فهما جيّدان لي وأقنعاني أن أدرس في دمشق.

سأكون فرحة لو وجدتَ الوقت لتلتقي معي تحيّاتي الحارّة لك ولأسرتك وصاحبتك.

مليحة

* * *

صباح الخير

تمتّعتُ باللقاء معك وقضيت وقتًا ممتعًا وآمل ألّا تكون قد مللت منّي. إنّي مسرورة حدّثتني كثيرًا عن صاحبتك حتمًا أنتما سعيدان جدًّا فقد تعارفتما على بعضيكما بطريقة رومانطيقيّة لذلك أعرف الآن ماذا تحبّان أن تفعلا حتى عندما قبَّلتها للمرّة الأولى كما أعجبني كيف جهّزتما بيتكما أنا أيضًا أودّ لو أعمل هذا.

اليوم بعد الظهر كانت الحرارة مرتفعة جدًّا أعرف منذ صغري الحرارة العالية لكنّي لا أتحمّلها وأتضايق وأشعر بالوهن فتراني أبدأ شيئًا ولا أقدر أن أنهيه لحسن الحظّ لم يكن عندي محاضرات في الكلّيّة لذلك عندما خفّت الحرارة جلست أمام بيت الطلبة أردت أن أحضّر للامتحان عندي هنا شجيرة تين أسقيها وأعتني بها كي لا تُصاب

بأذى في الأيّام الأخيرة الشمسُ نفعتها فأوراقها تبتسم لي الخَضَار الطازج رائع للغاية مزاج النبتة جيّد ومزاجي كذلك.

حديثنا جعلني أفكّر في مسائل كثيرة حتى إنّي لم أتمكّن من التركيز في القراءة لذلك قرّرت أن أكتب لك عن ذلك كتبت لك أنّي كنت أظنّ أنّ المسيحيين سيّئون زميلتي سكنت عدّة سنوات في أوروبا وحدّثتني أنّ الرجال سيّئون هناك ويتدافعون في الباصات المزدحمة دون أيّة مراعاة للنساء وهذا مزعج ولو استطعت لَحوَّلتهم إلى فتيات صغيرات وأمرْتُهم أن يركبوا باصات مزدحمة طوال الوقت.

أنا سعيدة أنّ الرجال يتنازلون عن مقعدهم للنساء هنا وفي غيرها من البلدان الإسلاميّة كذلك الرجل لا يجلس إلى جانب امرأة غريبة هو الأقوى فلو سمحنا له أن يفعل ما يريد فماذا سيحصل أنا أتنقّل بسيّارات الأجرة زميلتي قالت إنّ سيّارات الأجرة في أوروبا غالية لو كنتُ لما خرجت من بيتي من الخوف والقرآن مُصيب حين يقول: يا أيّها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين. أنت لا تتدافع؟

لديّ الكثير لأقوله لك هل سنتقابل مرّة أخرى أريد أن أعرف أكثر عن بلادك.

نسيت أن أخبرك أنّ زميلتي من الغرفة رأت جميلة في الامتحانات كانت الصالة كبيرة للغاية لدرجة أنّها لم تتمكّن من الوصول إليها وهذا يعني أنّ جميلة قد عادت وهي على الأغلب في الغرفة في الوقت الذي أجلس هنا وأكتب لك. تستطيع إذًا أن تتّصل هاتفيًّا لكن الأفضل ربّما أن تأتي لبيت الطلبة يوجد جهاز تلفون واحد على كلّ طابق فإذا ردّت

بنت لا تعرف جميلة لن تجدها لذلك الأفضل أن تأتي بنفسك من الغريب أنّ جميلة لم تخبرنا بأنّها ستغادر لمدّة طويلة المشاكل كثيرة لا يمكنني أن أقوم بذلك ولو فعلت لن تكون أمّي راضية عنّي.

تحيّات منّي لعائلتك لأختك وصاحبتك التي لا بدّ أن تكون سعيدة لأنّك معها.

مليحة التي تتذكّركَ

* * *

ميريك

هل قضيتَ يومًا لطيفًا؟

أفكّر بك وأتمنّى أن تكون على خير ما يرام وأن ينعشك الظلّ في اليوم القائظ تحت شجيرة التين ترطّب الجوّ عندي وهي لا بدّ أن تحبّك كثيرًا فقد أرسلت أغصانًا جديدة بعد زيارتك وهي جميلة للغاية أهملتُها مؤخّرًا ولكنّها لم تنسني تفكّرت كيف صنع الله كلّ هذا بشكل عجيب في اللقاء الأخير سألتَني عن النساء اللواتي ينتظرن الرجال المجاهدين في الجنّة تذكّرت قصّة العجوز التي جاءت إلى الرسول وسألته هل ستدخل هي أيضًا الجنّة وقد سمعت أنّ العجائز لا يدخلن الجنّة ابتسم رسول الله وقال لها إنّ تواضعها سيقودها لجنّات فيها أرزاق بلا حساب ويصير جسدها جميلاً كالياقوت والمرجان ستكون سعيدة محاطة بشبّان كاللؤلؤ ولن تعدّ الفصول.

يجب أن أخبركَ أنّ جميلة غير موجودة في بيت الطلبة ربّما أخطأتْ زميلتي ولم تكن هي في الامتحانات تكلّمنا اليوم عنها وتذكّرتْ زميلتي ماذا قالت لها جميلة بعد أن قدمت إلى دمشق كانت جميلة تعمل في مكتب سياحي قريبًا من الباصات ولا نعرف إن كانت

لا تزال تعمل فلو جئتَ لعرفت هل يمكنك أن تجدها أنت تعرف أين محطّة انطلاق الباصات اسأل هناك سيخبرونك بشيء.

البوّاب يحدّق بي لا بدّ أنّه يتذكّر كيف سألتَه عن جميلة بعدها رآكَ معي ولا أعرف بماذا يفكّر تؤسفني حالته لو كنتُ مكانه لشعرتُ بالوحدة فهو الرجل الوحيد في كلّ المبنى ولا يستطيع أن يلج لداخله يجلس في الكشك وهذا كلّ شيء جميل أنّ أقرباءه يزورونه أحيانًا فبدونهم ربّما مات من الوحدة.

تحيّاتي الحارّة جدًّا لك تحيّاتي وسلاماتي لعائلتك وكذلك لصاحبتك.

الصغيرة السوداء

* * *

أهلاً بك يا ميريك

طبعًا عندي وقت غدًا بعد الظهر وأودّ رؤيتك بكلّ سرور يمكننا أن نذهب لنأكل البوظة يبيعونها في حديقتي المفضّلة.

استيقظت اليوم صباحًا مبكرًا بعد عدّة أيّام لديّ امتحان في مادّة العقاقير وقد بدأت اليوم بأشياء غير سارّة كان الحمّام مشغولاً منذ الصباح وانتظرت طويلاً حتى أدخله بعد ذلك تذكّرت أنّي نسيت الكتاب في المختبر وبدونه لا يمكنني أن أذاكر كان المختبر مغلقًا أنا دائمًا هكذا لا يحالفني الحظّ عندما أحتاج شيئًا انتظرت ساعة كان الكتاب هناك في المكان الذي تركته لكنّي قابلتُ زميلة من إثيوبيا وفرحت بها كثيرًا لم أكن أعرف أنّها في دمشق ذهبنا للمقهى في الكلّيّة ولا أعرف متى هبط المساء والآن الكتاب أمامي ينظر إليّ شاكيًا أتعرف ما رأيي في الموضوع حدث كلّ شيء لأنّي عندما خرجت من

الغرفة إلى الحمّام نسيتُ المنشفة فرجعتُ غير أنّي قطعت على نفسي عهدًا، منذ الغد أن أبدأ بجدّيّة أنا طالبة سيّئة.

إلى اللقاء

مليحة

* * *

عزيزي ميريك

أتمنّى أن تكون وصلتَ للفندق بعد لقائنا بأمان كنت خائفة أنّك لن تعثر على سرفيس في هذا الوقت اكتبْ لي أرجوك فأنا قلقة.

يجب أن أقول لك شيئًا صادفني اليوم شيء مزعج قبل ذلك كنت في مقهى إنترنيت مع قريبتي وهي سيّدة فضوليّة كانت تقف طوال الوقت فوق رأسي قرّرتُ اليوم أن أغيّر كلمة المرور واستغرق منّي هذا ساعتين بكيتُ كانت تقفز أمامي نوافذ جديدة وتصدر بيييبب بيييبب لم أفهم شيئًا وددتُ لو ذهبت إلى مقهى آخر ولكن لا يوجد الكثير من المقاهي في هذا الجزء من المدينة كان يجلس إلى جانبي رجال فقط وخيّل لي أنّهم ينظرون كلّهم إليّ ويضحكون طلبتُ في آخر الأمر من صاحب المقهى أن يساعدني شعرت بالخجل تبشّعتْ عيناي بسبب البكاء وحسنًا أنّكَ لم ترني على هذه الحال أتعرف أُفضِّلُ أن تُخَصَّص مقاهٍ للنساء عندها فقط النساء سيقمن بالخدمة وما كنتُ لأخجل.

بلّغ تمنّياتي الطيّبة لعائلتك وصاحبتك ولك أيضًا تمنّياتي بالتوفيق.

مُغفّلتُك السوداء

* * *

صباح الخير يا ميريك

أنت لا تكتب لي مؤخّرًا لماذا هل عندك صديقة جديدة تعرف كيف تغيّر كلمة المرور؟

أتمنّى أن يكونَ سفركَ لمكان بلا إنترنيت هو السبب أحنّ لرسائلك اللطيفة والتي بدونها أشعر بالحزن.

جميلة لا تزال غائبة أنا لا أفهم البنات هنا أنا هنا منذ سنتين والشي نفسه يتكرّر فعندما أصادق امرأة ما تختفي بعد فترة فتنقطع أخبارها ولا أستطيع أن أعرف مكانها حاولت أن أعرف شيئًا عمّا جرى لكن دون جدوى وقابلت واحدة منهنّ في مقهى الكلّيّة لكنّها تظاهرت أنّها تقابلني لأوّل مرّة!

أسوأ واحدة كانت بنتًا فلسطينيّة تتصرّف معي كصديقة حميمة تبوح لي بأسرارها وترافقني في كلّ مكان فجأة قاطعتني بعدها عرفت أنّها كانت تسيء إليّ من خلف ظهري لم تكن إذًا صديقة ولم تكن قريبة منّي والشبّان أسوأ لأنّهم يبتغون شيئًا واحدًا وأنت تعرفني أنا مسلمة حقيقيّة ولا أبحث عن صديق وأخبرك أنّي لم أُقبِّل رجلاً في حياتي وأنتظر حتى أتزوّج وزوجي سيكون دواء لأمراضي لتكُن قبلته حلوة كالعسل وبين ذراعيه سأشعر كأنّي في الجنّة وسأحبّه أكان قريبًا أم بعيدًا عنّي.

لحسن الحظّ في دمشق حارة للأفارقة وتسكن هناك بعض قريبات لأمّي أحبّ معاشرتهنّ وأذهب معهنّ لقضاء حاجياتي كما أنّي أستلطف الذهاب معك إلى الدكاكين. لا أريد العودة إلى أرتيريا ولا للعربيّة السعوديّة حيث والداي.

أرجو ألّا تغضب منّي ولكن لا بدّ أن أسألك وأريد أن نبقى أصدقاء أنا أحبّ عشرتك والآن عِدْني أنّك لن تغضب منّي هل تتذكّر قلت إنّنا نستطيع أن نتكلّم في كلّ المواضيع.

أرجوك قلْ لي ما الذي يربطك بجميلة أنا أحبّ صاحبتك رغم أنّي لا أعرفها ورأيتها في الصور فقط كان ذلك تحت ضوء مصباح الشارع وقد أعجبتني وحدَّثتني عنها أشياء رائعة أقول لك إنّها تحبّك كثيرًا لذلك كانت تعدّ لك الفطور وكانت تستطيع أن تنام لستُ مرتاحة حين أسألك ولكنّي لا أتوقّع أن لا تكون جيّدًا معها لذلك أرجوك أن تكتب لي ما حاجتك لجميلة.

بلّغ تحيّاتي لأسرتك وصاحبتك وهل لا تزال تريد أن تشتريَ لها قبقابًا كما يطلق أهل حلب على أحذية الحمّامات قديمًا سأذهب معك إلى الدكّان بكلّ سرور وأعرف عدّة أماكن يبيعون فيها أشياء قديمة ستعجبك علمًا أنّي لا أحبّ الأشياء القديمة كثيرًا.

هل تعرف أنّي عندما أنظر إليك يبدو لي أنّ الحبّ سرٌّ عظيم شخصان سعيدان معًا كما في الجنّة أتمنّى أن أعرف يومًا طعم الحبّ «الزوج كالمعطف الدافئ في الشتاء ليهدهدني للنوم عندما أنعس ليكن لي حبّه متفرّدًا وليفُحْ حبّه حلوًا كالصبّار».

المشتاقة مليحة

* * *

عزيزي ميريك

كم أنا مسرورة أنّنا سنلتقي غدًا.

تذكّرت أنّك أردتَ أن تشتري لجدّتك نرجيلة لا بدّ أنّ جدّتكَ لطيفة لطالما تُعجبها هديّة كهذه أحسدكَ عليها تكلّمتُ مع قريباتي وعرفتُ منهنّ أين يوجد محلّ فيه نراجيل جيّدة سنذهب معًا هناك وإذا أردتَ سأُريكَ عدّة بسطات في السوق جديرة بالانتباه وهناك صعوبة في الوصول إليها قرب الجامع هناك مخبز صغير يعمل على مدار الساعة

أحبّه كثيرًا نستطيع أن نشتري خبزًا.

بعض الرجال يتّصلون ببيت الطلبة ويسألون عن جميلة بالأمس استقبلت واحدة من هذه المكالمات وقلت إنّ جميلة غير موجودة فقال لي الصوت ألا تريدين أن تلتقي معنا ونذهب إلى حفلة لم يعجبني هذا علمًا أنّ المتحدّث كان يتكلّم بنبرة لطيفة وتابع قائلاً إذا كنتِ زميلة جميلة لا بدّ أنّكِ لطيفة مثلها وستكونين مسرورة لم يعجبني هذا ولم أرغب بسماع ذلك فسددت السمّاعة كان صوته لطيفًا جدًّا لذلك شعرت بالأسف ولكنّه في نهاية الأمر اتّصل ليتكلّم مع جميلة وليس معي.

إلى اللقاء غدًا والذي أنتظره على أحرّ من الجمر احتراماتي لأسرتك وصاحبتك.

نافذة الصبر

مليحة

* * *

ميريك اللطيف

فكّرتُ كثيرًا باقتراحك وأشكركَ على دعوتك لي للذهاب إلى المطعم ولكن لم آكل حتى اليوم خارج البيت ولا أعرف كيف هي المطاعم يؤسفني أنّني لا أستطيع أن أذهب معكَ أوّلاً لا يمكنني أن أذهب إلى حيث فندقكَ قلتَ إنّه فندق جيّد وأنّ الدليل السياحي ينصح به أصدّقك لكنّي سمعت الكثير من الأشياء السيّئة عن هذه المنطقة والناس هناك، وقبل كلّ شيء عن النساء اللواتي يذهبن هناك. فإذا رآني أحد هناك سيظنّ أنّي امرأة سيّئة ولا أريد أن يتحرّش بي رجال سيّاح وهم في أغلبيّتهم وحيدون بلا أحد والوحدة شيء تعيس أنا أتفهّم أنْ لا أحد يريد أن يتعب لا أستطيع للأسف أن أدعوك لبيت الطلبة كنتُ سأطبخ لك شيئًا من أريتريا

أنا أحبّ الطّبْخ فقد يُعجبك طعامنا.

أسرتي تقدّم لي النقود ولكنّها غير كافية ربّما أعمل قد أُدرّس إذًا اللغة العربيّة التي أعرفها منذ الطفولة أستطيع أن أعلّم الأطفال لحسن الحظّ لا توجد مشكلة في سوريا للحصول على إذن بالعمل يمكنك أن تسافر للدول الإسلاميّة وتعمل في أيّ مكان ترغب زميلتي التي عاشت في إيطاليا قالت لي إنّ الأمر مختلف في الدول الأوروبيّة كما ترى لا يمكن أن ننظر إليكم بإيجابيّة.

لا تظنّ أنّي لا أشعر بالمودّة نحوك ولذلك لا أذهب معك للمطعم ليس الأمر هكذا كنت أودّ لكنّي لا أستطيع لذلك أقترح أن نلتقي لكي نتنزّه إن كنت راغبًا في ذلك.

سألتني عن البيمارستان في دمشق أقدمُ مستشفى في العالم فمنذ ألف عام تقريبًا كانت فيه أقسام متخصّصة في مختلف الأمراض وكانت المعالجة فيه مجّانيّة وكانوا يهتمّون بالأمراض النفسيّة كذلك وكان يقدّم رعاية طبّيّة وأدوية ورعاية نفسيّة وكانت الموسيقى المناسبة تهدّئ الأعصاب ويستعيد المريض عافيته بكلّ سرور سأذهب للبيمارستان تعالَ لنذهبْ ما قولك؟

وإلى حين نلتقي أتمنّى لك الصحّة وأبتسم وتحيّاتي لأسرتك وصاحبتك.

مليحة

* * *

عزيزي ميريك

كم أنا آسفة أنّنا لم نذهب للبيمارستان لكنّنا سنذهب أَتَعِدُني بذلك؟

كسر اليوم أحدهم غصنًا من التين لا أفهم كيف يستطيع الناس أن يكونوا سيّئين لهذه الدرجة فالغصن لم يكن مزعجًا لأحد رجعت وكان التين يبكي بسائل صمغي حدث هذا منذ وقت قريب تصوّرتُ الفاعل شابًّا ضخمًا قبيحًا إنّي حزينة للغاية وأنا امرأة إذا حتى لو كنت هنا لما استطعت مَنْعهُ أتعرف كم كريه أن يكون الإنسان بلا حول ولا قوّة؟

سأروي لك قصّة حزينة روتها لي زميلة إثيوبيّة قابلتُهَا قبل أيّام وهي لا تبارحني صديقتها ياسمين تسكن في الأردن عمرها الأربعين وهي متزوّجة وعندها أربعة أطفال وهو من المناطق الجبليّة في شمال البلاد ويعمل في نقطة الحدود السوريّة ـ الأردنيّة.

حدّثتني زميلتي الإثيوبيّة فقالت: كانت كلُّ القرية تعرف بحبّ ياسمين لشابّ حصل على تأشيرة إلى أميركا وسيسافر هناك أراد أن يتزوّجها ويأخذها معه لكنّ ياسمين رفضت ترْك عائلتها سافر الشابّ لوحده كانت ياسمين رائعة الجمال والشباب يُعجبون بها وكانَ ثلاثةٌ منهم أصدقاء لأخيها الأصغر الذي كانت تحبّه كثيرًا سألته يومًا بعد أن سافر حبيبها من باب المزاح مَنْ مِنهم يصلح زوجًا لها فأشار إلى أحدهم وفي اليوم الثاني تحطّمتْ به السيّارة وفقد الكلام ثم مات في المستشفى ومن أجله تزوّجت بالشابّ الذي اختاره أخوها أسّسا بيتًا وأنجبا أطفالاً وياسمين لا تستطيع أن تنسى حبيبها وهي ليست سعيدة ومات حبّ زوجها لها لأنّها لم تبادله الحبّ أنجبت الطفل الرابع ولم تكن تريده الحبيب في أميركا كان ينتظر ياسمين طوال الوقت وكان على استعداد أن يستقبلها لو طلّقت زوجها لكن ياسمين تغيّرت.

لا تؤمن بأنّ الحبّ يصمد أمام العيش المشترك لعدّة سنوات وقالت إنّها لن تذهب إلى أميركا أبدًا لأنّهما حين لا يعيشان مع بعضهما سيحبّان بعضهما حتى الموت ولكنّ القرية حتى يومنا هذا

تخاف أن يأتي الحبيب من أميركا ويأخذها معه والناس يعتقدون أنّه سيبعث من يخطفها لذا فكلّ من دخل القرية يثير الشكوك.

يؤسفني أن أبعث فيك الحزن وأفضّل أن أكتب عن أشياء لطيفة ربّما أفتقد لأبي وأمّي وبيتي البعيد لكنّي قرّرت أن أتحلّى بالشجاعة وتدبّر الأمور وأنا لها حتى في بلاد الغربة أبي وأمّي سيفتخران بي حين آتيهم بالشهادة الجامعيّة.

أبتسم لك ولكلّ هذه الأسباب أبكي لكنّي آمل أن تكون في حالة أفضل.

أتمنّى أن ترافقك السلامة وترافق أسرتك وصاحبتك.

مليحة الحزينة

* * *

عزيزي ميريك

ليس عندي مزاج وكنت أفضّل أن أستلقي في الفراش لا أقوم بأيّ فعل. أبكي طول الوقت أشعر بالقرف من الدراسة أقرأ الكتاب عدّة مرّات ولا أفهم منه شيئًا والكلّ من حولي يتعلّمون بسرعة ولديهم متّسع من الوقت أكبر ولا يخافون مثلي أفكّر لماذا أدرس ولست متأكّدة إذا كنت أحبّ هذا الفرع ولا أعرف ماذا أريد أن أفعل في المستقبل هل عليّ أن أحصل على الشهادة وأعمل ستّة أيّام في الأسبوع تسع ساعات في اليوم لن يكون عندي وقت لنفسي وبالكاد سأشبع نومًا وأين الوقت للحبيب أتعرف ربّما أعثر على زوج غني أعيش على نقوده وأسخّر كلّ وقتي له.

ولهذه الأسباب ذهبت اليوم لقبر زينب وتضرّعت لها أن ترزقني زوجًا رائعًا وأن أتمّ دراستي بلا مشاكل وأن أتمتّع بحياة هنيئة نتفتُ عدّة شعرات من رأسي ولففتها في منديل وربطتها إلى قضبان الضريح

وبهذا الشكل لن تنساني هذه المرأة الشجاعة وسأحلّ المنديل عندما تتحقّق أمنياتي.

حتمًا تعرف من هي زينب التي سجنها الخليفة السيّئ يزيد ولم تتورّع من القول له إنّه حاكم دموي وأنّه يخرق تعاليم الله لا أحبّ أولئك الذين يشوّهون أجسادهم تخليدًا لذكرى أخيها الحسين الذي قُتل في كربلاء ولكنّهم كانوا شجعانًا للدفاع عن قضيّتهم العادلة وأتمنّى أن أظهر شجاعتي ليس عبر الكلمات فقط لذا تراني أفهم هؤلاء الذين يحجّون إلى القبر وأنا نفسي بكيتُ عندما كنت هناك.

أفكّر كثيرًا بحديثك عن أوروبا تفرّجتُ على التلفزيون عند أقربائي لم يعجبني الكثير والكثير أحببته هناك عالم آخر هو بكلّ بساطة رائع كما في الجنّة إذ فيه كلّ ما تشتهي النفس ويسرّ النظر الناس هناك لطفاء منفتحون على الآخر رغم أنّ أغلبيّتهم من المسيحيين وكلٌّ يفعل ما يريد بلا أيّة قيود وهناك تفهّم لكلّ الأشياء ويمكن العيش في راحة أتعرف أنا أحبّ النظافة جدًّا وهنا أنا أخجل من السير في الشوارع لذلك أتحرّك بسيّارات الأجرة لو شعرتُ بالبرد هناك لاشتريت ثيابًا دافئة.

اعذرني أنّي أرهقك بأحزاني حتمًا تغضب منّي ولن تقرأ رسائلي لكنّي أعدك أنّي سأكون مرحة ابتداء من الغد.

باي باي ولا تنسَ والديكَ وصاحبتك.

مليحتكَ السوداء

* * *

يا كريمي!

أتمنّى أن يكون كلّ شيء على ما يرام.

أدخلت رسالتك الفرح في قلبي وأنا سعيدة أنّي أستطيع من جديد أن أكتب لك خسارة لأنّنا لا نتكلّم جيّدًا لا بالعربيّة ولا الإنكليزيّة رسالتك الأخيرة كانت صعبة اشرح لي من فضلك نهاية الرسالة فقد فهمت بأنّه ليس الجميع أغنياء في أوروبا، لكنّي أستطيع أن أعيش في وضع جيّد.

أتعرف أنّ اسمك مقلوبًا يُقرأُ «كريم» يا لها من مفاجأة والكريم هو النبيل والوقور وهكذا بدأت أكتشف نقاط جاذبيّتك كما ترى وقرّرت أن أسمّيك كريم وأنا أؤمن أنّ الأسماء تكشف عن حقيقتنا أتمنّى أن يُعجبك الاسم وعلى أيّة حال أنا أحبّ عندما تتصرّف معي بوقار كأمير.

كانت عندنا محاضرات شيّقة اليوم أجرينا تجارب في المختبر أنا أحبّ الكيمياء كثيرًا أحيانًا أندم لأنّي لا أدرس في قسم الكيمياء ولكن كصيدلانيّة سأستطيع أن أساعد المرضى وقد أخترع دواء للسرطان أو للأيدز في أوروبا الكثير من الموهوبين ويمكنني أن أعمل معهم.

نسيت أن أقول لك إنّ جميلة ظهرت في بيت الطلبة قالت إنّها كانت في بيتها ومدّدت إقامتها هناك بسبب مرض جدّها وقبل أن أخبرها عنك حدّثتنا عن عمّان وأرتنا صورًا وكنتَ على بعض هذه الصور وأرتنا صورك قائلةً إنّك من فرنسا وصديق العائلة وأنّها تعرّفت عليك عن طريق أبيها عندما جئت لتتعلّم اللغة العربيّة. في هذه الصور كنتما تدخّنان النرجيلة إلى جانب طبق كبير من الفواكه لم أقل شيئًا لا أعرف إنْ قلت لك قبل أيّام جاء رجل لبيت الطلبة وسأل عنها كما أنت فعلت تكلّمتُ معه كان يبدو عليه الثراء ومرّةً أخرى سألني هل أستطيع أن آخذ عدّة بنات ونذهب إلى حفلة أجبت لا ألا ترى غرابة في كلّ هذا؟

بلّغ تحياتي لأسرتك وصاحبتك وإلى اللقاء

رائعتكَ

* * *

يا نبيلي وكريمي

لماذا تسافر فجأة إلى العقبة خسارة أنّك ستغيب أتمنّى جدًّا أن نلتقي مرّة أخرى فهل عندك ولو دقيقة لنلتقي قبل سفرك فلو تقابلنا سأكون سعيدة للغاية كما أريد أن أُعرِّفك على قريبي «مارين» الذي عاد منذ مدّة قصيرة لدمشق من حماة أتتذكّره حدّثتك عنه أتمنّى أن يتمّ ذلك هو يبدو بالضبط كما أريد للرجل أن يكون متساهلاً وحريصًا على الآخر ليس لديه أيّة نوايا اتّجاهي وعندما نخرج ونبقى حتى المساء يسألني دائمًا ألّا أخاف هل كلّ شيء على ما يرام هل أنا مُتعبة كي نعود للبيت لن أقرفكَ بقصصي آمل ألّا تكون حزينًا لو كنت مكانك لكنت سعيدة.

بلّغ تحياتي لأسرتك وخطيبتك

الكثير من الدفء من رائعتك.

أرجوك اكتب في حال لم نتمكّن من اللقاء ثلاثتنا هل نلتقي بعد عودتك.

. . .تمّ ما أردناه.

عفوًا، هل أسلوب هذه الرسائل مصقول وملمّع؟ ملكة سبأ، الصيدلانيّة الدمشقيّة؟ حسنًا أقولها بصراحة رغم أنّي أشعر بالخجل: الأشياء ليست كما تبدو. أعرف. هناك نقص في الحجم. سأستشهد بالأصل بآخر رسالة إلكترونيّة كتبتها لي مليحة.

مرحبًا أيّها الطفل الصغير.

عزيزي ميريك لا تتصوّر كم أنا سعيدة أنّك عدتَ تكتب لي أنا بخير وهذا ما أتمنّاه لك لذا أتمنّى أن تكون بخير وسأفرح لو كتبت لي شيئًا تذكّرتكَ اليوم لأنّي ذهبت للبيمارستان وكما ترى أفكّر بك كيف عملك؟ أفكّر طول الوقت في السفر إلى ألمانيا أو أيّ بلد أوروبي كي أكمل تحصيلي العلمي وبما أنّني أريد السفر هناك لذلك ذهبتُ إلى المعهد الثقافي كما كتبتَ لي من العقبة لم يقدّموا لي أيّة معلومات وفي السفارة الطوابير مرعبة والناس يتشاجرون ويتدافعون أو يدفعون النقود ليصلوا لذلك أسألكَ هل تستطيع أن ترسل لي دعوةً وتؤمّن تأشيرة إلى ألمانيا أو بولندا أو إلى أيّ مدينة رائعة في أوروبا أنتظر كي تسأل وبعدها أخبرني بجوابك أنتظركَ وهذا كلّ ما لديّ. بلّغ تحياتي صاحبتك وكلّ أصدقائك. صديقتك مليحة

. . . التي لم أرسل لها دعوة لأنّ دار النشر لا تدفع لقاء تأليف الكتب وليس بإمكاني أن أكفلها في مكتب الهجرة.

اعتذرت منها.

لم تكتب لي بعدها شيئًا

ولذا ومن هذه النقطة أشكرك يا مليحة أنّكِ اخترعت «كريم»، نبيلي، وربّما كان منذ البداية. لكنّك اكتشفته وفي كلّ الأحوال كان هو من خلق مليحة.

(أصوات جانبيّة: أُطالبُ بسفارات أفضل)

وليد والشرود في مصافحة ذكوريّة

إليكم تمارين للباعة المبتدئين. لنأخذ الوصفة: يد. رِجل. مُخ و... فوقَ بسطة فارغة لوحة تقول: أبيعُ حكايات طازجة، حقيقيّة...

فلتكن اليد.

بدقّة أكثر: أيّة يد؟

رجّاليّة.

لدينا رأيٌ في هذا: كفّ هائلة، بَرَاجِم مكسوّة بالشَّعْر، عروق. أظافر مقلّمة تمامًا. أتكون مقضومة؟ لا أعرف. في كلّ الأحوال عريضة. ووسخة.

لحظة! لحظة! لِمَ لا تكون أصابع رخوة تنصاع حين تشدّ عليها اليد؟

شقيق العريس ويعني الطفل، يقولون إنّه صعلوك مُتسكّع كسول من العقبة. قد يكون الخليفة ـ الشاعر، أو المرتدّ المقتول في القرن الثامن بسبب تجديفه وتفسّخه الخلقي، ورغم أنّه كان ينظم شعرًا جيّدًا، إلّا أنّه قد يكون شخصًا آخر أيضًا.

وليد تعني الطفل في مراحل النضوج.

قد يكون وليد شخصًا آخر.

جانبيًّا: الحوار الثاني عشر.

ليس بهذه السهولة الوصول لموضوع الرواية. بشكل سرياليّ، دموي... مخلوطة. لنأخذِ البطل. هو سوبارت. يان، ميريك، سيمون، سليمان، الخليفة... وعندما اختلط الأشخاص ناهيك عن قواعد اللغة تكوّن عالم رائع جديد فأحسست بموجات من العطور تعبق وكأنّها المُرّ والمسك، فاحت قويّةً بنكهة رجّاليّة اختلطَ فيها الجوري بالقرنفل، وحلوةً كثمرة نضرة.

وجدتها!

تخطّي للحدود.

وبلا أيّ تأشيرة من فضلك. إنّي أقترب...

الآن أحسن.

أي الاقتراب وتخطّي الحدود.

أصيغ الواقع في الوجه البارد المرعب للكمال.

مواقف ذكوريّة عابرة عن اقتراب وتخطّي الحدود

أمستعدّون؟

لنتمرّنْ!

١. لقطة ذكوريّة عابرة عن التقرّب وتجاوز الحدود

ـ مرحبًا! تتذكّرني، يا رجل؟ ـ سأل أحدهم بالإنكليزيّة وأمسكني من يدي.

استدرتُ.

رجل شابّ طويل رياضي الجسم ذو كرش كبير. ذو لحية شرقيّة. ولم تخفّف اللحية من الاشمئزاز الذي تتركه الأظافر المقضومة والخواتم الذهبيّة للمُغتنين الجدد. تعرّفنا على بعضنا على الكورنيش البحري في حديقة المدينة العامّة في العقبة. كان يتسكّع ليلاً مع البدو.

ـ طبعًا. هل أعدتَ الخيل؟ ـ سألتُ بتهكّم. نظر في عينيّ وكان قريبًا منّي ولا يزال ممسكًا بيدي. سحبتها.

ـ لا تمزح هكذا يا رجل ـ لكزني وتابع: لست بدويًا، وبعصبيّة سحب بلغمه.

ـ هكذا إذًا! لم أعرف.

ـ أحكي لك! خرجت لآكل شيئًا، كم لذيذة هي السندويشات يا رجل؟

ـ ممتاز!

على بسطة غير بعيدة من سوق السمك كان مهاجر صومالي يبيع «توستًا» مع الخضار.

ـ يا رجل! ممتاز. سأوصي التوست ثم أجلس معك. انتظرني.
ـ وبغمضة عين كان راجعًا.

ـ أردتُ أن أكلّمك يا رجل، لكن لم أستطع. أنت رجل محترم. قبل أيّام حلمت بصاحبتي. صدّقني! قالت لي ألّا أنتظرها وأن أعيش حياتي طالما أنا حيّ.

ـ انتظر سآخذ التوست ـ الصومالي يؤشّر أنّها جاهزة. عند لوح البائع تمتم لي برفع كلفة: ـ اسمع! صديقي من تلك البسطة يتقن الألمانيّة ويريد أن يتكلّم معك.

استدرتُ. كان الصومالي الثاني يهزّ برأسه. أمر غريب. في كلّ الأحوال كنت سأذهب إليه. لأنّه كان يضع المايونيز في سندويشتي لأنّ صلصة الصومالي الأوّل كانت حادّة، ومع ذلك لم يخبرني يومًا عن ألمانيّته.

ـ ماذا تفعل معه؟ ـ قالها بلهجة أهل الراين الألمان. ـ إنّه لوطي.

ـ نعم؟!

ـ عشتُ في كولن، عاصمة المِثليين، ستّة عشر عامًا وأعرفهم

جيّدًا. هو يريدك أن... تعرف... إلّا إذا كنتَ أيضًا واحدًا منهم.

ـ لستُ منهم. ـ أجبتُ بعصبيّة. ـ مِن أين تعرف عنه؟ ـ قلتها لاإراديًا.

ـ أنا أعرف، أعرفهم جيّدًا.

ـ فهمتُ.

ـ لديه أنف غريب...

ـ شكرًا على المايونيز ـ قلتها بصوت عالٍ كي لا يعرف عمّا تكلّمنا. عندما اقتربتُ من الطاولة أدار وجهه بشكل استعراضي.

ـ اسمعْ! هل تقول لي ما اسمك؟ أظنّك لم تقل.

ـ أنا وليد يا رجل. شكرًا على السندويش. هل أستطيع أن أشرب معك العيران؟

ـ تفضّل.

جلب وليد كوبًا آخر، قضم السندويشة وللفور بدأ الكلام:

ـ يا رجل. أعود لحلمي. ماتت صاحبتي قبل عام في حادث. بوممم بممم وانقضى كلّ شيء. اصطدام وجهًا لوجه. كانت عند أقاربها. اتّصلتْ بي قبل ذلك بيوم وتكلّمنا طويلاً. كنّا نريد السفر إلى الولايات المتّحدة. ماذا أحكي لأحكي! كان هناك من يدعونا. نتزوّج ونسافر. لم تربط الحزام. بممم بمم بمم وطارت من النافذة الأماميّة. ماذا أحكي! اخترقت الرئة ونزفت، ولم تأتِ النجدة في الوقت. كنّا معًا منذ أيّام المدرسة. مارستُ الجنس معها لأوّل مرّة. كنتُ في الثالثة عشر، صدّقني. كنت قبل أن أفعلها معها أتفرّج على أفلام جنسيّة كي لا أخذلها، ومع ذلك سار الأمر بشكل آخر. بعدها كنّا

نفضّل ما فعلناه حينذاك. صدّقني! كنتُ مرّة في نادٍ في بانكوك. الظلام يخيّم. أجلس إلى البار والموسيقى كما في الديسكو. أخذتني النشوة. تحتك طبونات من العرق الأصفر، يجلسن على أربع. ما أغرب عيونهنّ! صدّقني! لم أر أبدًا عيونًا كهذه. راكعات بين فخذيَّ. كاد بنطالي يتشقّق. لكنّي وضعتُ رِجلاً على رجِل ولم أفعل شيئًا إطلاقًا. أتفهمني يا رجل؟! كلّ ذلك لأجلها فقد كنتُ أحبّها كثيرًا. وبالمناسبة لا أحبّ الطبونات التي تمصّ لكلّ رجل. أحبّ المرأة التي تصدّ وتتمانع حتى لو تدافعت عليها الأزباب من الأبواب والنوافذ... امرأة كهذه يمكنني أن أتبعها كالكلب. الشراميط البانكوكيات؟ يمتلكهنّ كلّ من يريد. وربّما هنّ مريضات بالسفلس، يا رجل! حسنًا فعلتُ أنّي لم أقترب منهنّ... منذ ماتت حبيبتي لم أنظر إلى امرأة. كأنّي لا أرى ولا أسمع. واليوم يا رجل حلمتُ بها. نصحتني أن أفتّش عن فتاة أخرى. سنلتقي في الجنّة متّكئين على وسادات خضراء. أعرف واحدة تشبهها تمامًا، صدّقني! رائحتها نفسها. وأنا يطير عقلي على الروائح وبدون ذلك لا يمكنني أن أقوم بأيّ شيء. سأفعل كلّ شيء لها. ولكنّ الروح ليستْ نفسها. أريد منها أن تتوقّف عن إغوائي. هذا ليس فعلاً جميلاً منها. على أيّة حال أبوها غني. لا أحبّ ذلك يا رجل. صدّقني! لأنّها ستتصرّف فيما بعد كأبيها. عاجلاً أم آجلاً سيحدث ذلك. يدّعين أنّهنّ يكرهنهم ولكنّ النقود ليست نتنة وتجذب. لا أهتمّ بالنقود! عندي منها ما يكفيني... صدّقني! في الأردن الأمور مخلوطة. كلّ شيء يلفّ ويدور حول النقود، ولم يكن هكذا مع صاحبتي. كان وليد يتكلّم على وتيرة واحدة دون انقطاع والآن فقط قطع حديثه ليأكل.

ـ ماذا تفعل الآن؟ دعنا نتمشّى قليلاً. أتعرف؟ عندي فكرة! تعالَ

واسكنْ معنا. استأجرتُ مع أصدقائي شقّة كبيرة وفيها غرفة غير مسكونة. في أيّ فندق تسكن قل يا رجل. هيّا سأنقل حوائجك.

ـ شكرًا، لا أستطيع الآن. يجب أن أذهب الآن. يوم الخميس عندي عطلة ويمكننا أن نلتقي وأريد حينها أن أتجوّل في أحياء العقبة الجديدة. وبالنسبة للسكن معكم سأفكّر في الموضوع. انتظرْ سأدفع ثمن السندويشة.

ـ خسارة! فقد أحببتكَ يا رجل ـ وبعد تفكير تابع: يمكننا أن نقوم بشيء معًا. صدّقني! إلى اللقاء على الفطور يوم الخميس إذًا.

نهض وليد وأخرج الهاتف الخليوي ثم قال: سيتأخّر الفطور قليلاً ربّما إلى وقت الغداء.

ـ تكلّم، هل قال ماذا يريد؟ ـ كان الصوماليّان، أثناء ذلك، يتكلّمان مع بعضهما على ما يبدو. وتابع بعد أنْ غيّر تعابير وجههِ وأمسك بالطاولة وبدأ يضربها بوركه ـ هل أراد ذلك؟

قاطعته:

ـ كفى! سأدفع ثمن السندويشات، والسلام عليكم.

ـ عن اثنين؟ ـ سأل بسخرية! ـ أخذك الجوّ كما أرى! قلت لك إنّكَ لوحدك أطول من اللازم. دينار وعشرون فلسًا. خذ راحتك.

٢. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

بمحاذاة الشارع الذي يؤدّي إلى الكورنيش هناك ساحة غير معمورة، حرقتها الشمس. يحيط بها عمارات من عدّة طوابق. لم يكن في جدرانها الجانبيّة شبابيك بل فتحات غير متقنة للمبرّدات المُغلقةِ في

أقفاص. ويخترق الساحة جدار يتجمّع بجواره رجال بجلابيّاتهم وهم يجلسون القرفصاء، يتكلّمون بالهواتف وقد وضعوا أياديهم على أفواههم.

٣. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

ـ أهلاً بولّندا! ـ بهذه العبارة رحّب البوّابُ بي كعادته كلّما رآني. في الصالون كان يجلس فلسطيني ويشاهد التلفزيون. لقد حلّ الليل. ـ وتعود مرّة أخرى بلا بنت معك؟ ماذا تفعل إلى هذا الوقت المتأخّر؟ اعترف! لا حركةَ في المدينة الآن... حرّكتُ كتفيّ غير مبالٍ.

ـ هذا عمّي إبراهيم ـ تابع البوّاب كلامه ـ حدّثتُهُ عنك. تعرّفا على بعضكما.

ـ سمِّني «إبو».

ـ كيف الحال؟ ـ انحنيت احترامًا كي لا أمدّ يدي له فأُخْرِجه ـ بخير، وأنت؟ سمعت عنك الكثير. فرصة سعيدة. هل ستبقى هنا طويلاً؟

ـ لا. سأعود بعد عدّة أيّام لدمشق.

ـ هل أعجبتكَ الأردن؟ ما قولكَ؟ ـ سأل عمّه، وكان من هؤلاء الذين يطالبونك أن تقول: «أعجبني جدًّا» كأنّها تعويذة، كطفل يطالبك بشيء حلو يمصّه بتلذّذ لينساه بعد لحظات. وتابع العمّ بعد لحظة صمت: خذْ حرّيّتك في الكلام، شخصيًّا لا يعجبني الأردن.

ـ أحقًّا؟ لماذا؟

ـ الفلسطينيّون غير مرتاحين هنا. نحن مواطنون من الدرجة

الثانية. أذهب لدائرة حكوميّة وما إن يشاهدوا جواز سفري حتى أُحكم بالانتظار ضعف المدّة اللازمة. يتميّزون بالفظاظة ويجبرونك أن تراجعهم عدّة مرّات وأن تجلب معك الأوراق التي قُدّمت لهم قبل ذلك. الحصول على العمل صعب كذلك. أتظنّ أنّي كنتُ سأبقى في هذا الجحر لو حصلت على عمل أفضل؟ أنا معلّم.

ـ ماذا تفعل هنا إذًا؟

ـ وإلى أين أذهب؟ قصف اليهود بيتنا والمدرسة في القرية أُغلقتْ. يتعلّم الأطفال اليوم كيف يدبّرون عمليّات تفجيريّة والكبار يحشّون الحلوى. يا إلٰهي! لستُ معلّمًا في مجال القنابل. زوجتي أسقطت لأنّ الجنود الإسرائيليين أوقفوا سيّارة الإسعاف التي نقلتها. نحن هنا في أمان. قل لي لماذا تدعمون أميركا واليهود لهذه الدرجة؟

ـ لماذا ندعم؟ ـ فكّرتُ ـ اسمعني، أنت معلّم وتعرف أنّ عدد اليهود الذين كانوا يسكنون في أوروبا يفوق عدد اليهود في إسرائيل اليوم. لا وجود لثقافتنا بدونهم. هل تدري أنّ اليهود في بلادي كانوا يملكون برلمانًا قبل مئات السنين؟ وليومنا هذا إذا تكلّمت مع إسرائيلي عجوز باللغة البولنديّة سيفهمك. في بولندا تجد في كلّ عائلة شخصًا من أصل يهودي، ولكنّ القليل منهم يعترف بذلك...

ـ أفهمك. الوضع عندنا متشابه قليلاً ـ قال إبو. ـ نحن أيضًا عندنا ماضٍ رائع، ولكن ماذا عن الحاضر؟ لولا أميركا اللعينة...

ـ هيه! أنتَ بولندا. هذا غير معقول ـ تدّخل البوّاب ـ هم يحمون البترول فقط. سلّحوا صدّام حسين ضدّ الخميني ولم يُعر أحدٌ اهتمامه أنّه رشّ القرى الإيرانيّة بالغازات السامّة، ثم كم قتل في بلاده نفسها؟ وماذا عن أفغانستان؟ كان من المفروض أنْ تُنهي حركة طالبان

الحرب الأهليّة التي اندلعت بعد انسحاب السوفييت. زوّدهم الأميركيّون بالسلاح ودرّبوهم. لماذا لم يدعموا أحمد شاه مسعود؟ لأنّه كان شيوعيًّا في رأيهم.

ـ قل لي بصدق، ماذا قدّم الأميركان لكم حتى تحبّوهم لهذه الدرجة؟ لقد تركوكم لمصيركم وعندما ساعدوكم كان الوقت قد تأخّر.

ـ من أين لي أن أعرف؟ أنا شخصيًّا أودّ لو يعيش الجميع في سلام، للأسف لم يستشرني أحدٌ. أتعرف لماذا جئتُ للأردن؟ ـ ضربتُ بيدي على صدري، تأكيدًا على صدق كلامي وقلت: لأنّكم تعجبونني.

٤. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

من سقف مطعم الشاطئ يرشحُ من النيونات ضوء بلا روح. دعائم الألمنيوم تمسك وتثبّت البنية الإرتجاليّة للمطعم. يقول ميكواي إنّ النيونات تسمح برؤية مَنْ ومع من وكم من الوقت استغرق ذلك، فالضوء هنا من دعامات الأخلاق. ترى كلّ المقاهي تسطع كما ترى كفّك في وضح النهار، ما عدا البارات في الفنادق الفاخرة، حيث الدخول للمواطنين يتمّ بناء على إذن خاصّ.

٥. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

في فيلم تحطيم الأمواج (Breaking the Waves) للمخرج لارس ڤان ترير (Lars Van Trier) تمارس «بِس» بطلة الفيلم الجنس مع رجال غرباء بطلب من زوجها الذي تحبّه جدًّا والذي أُصيب في

حادث بشلل، وأراد أن يعيد لها حرِّيّتها. قاومت الزوجة العاشقة ذلك إلى أن اقتنعت أنّها بتغلّبها على نفسها إنّما تنذر نفسها قربانًا، آملةً أن يشفى زوجها. مأساة «بِس» تصدمنا ليس بسبب مصير البطلة المريع بل كيف تنقلب الأمور بشكل عبثي. ليس باليد حيلة، فالشعراء كثيرًا ما غَنّوا هوى المرأة. في الحياة اليوميّة لا أحدَ يستوعب ذلك بل في الحقيقة الأمر ليس من مصلحة أحد.

٦. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

الكراسي البلاستيكيّة في المطاعم غير مريحة بدرجة متساوية لا فرق بينها. لا يوجد كرسي إلّا وأحد أرْجُله قد انحرف، ممّا يشوّه شكلها دون أيّ تغيير يُذكر على ما يبدو. القالب المُخاتل لا يريد أن يتكيّف معي، ومحاولات إصلاح الواقع في جلستك يصبح نوعًا من الإدمان كالقمار. الأخلاق تقف إلى جانبي، وكالعادة لا يفصل بينك وبين النصر إلّا حركة واحدة. للأسف! كلّ حركة تنقلُ المشكلة من مكان إلى آخر. الساعات تمرّ وأنا بالكاد انتهيت من طعامي. وعندما حان وقت انصرافي لوّحتُ بيدي مستسلمًا.

٧. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

تظهر منجزات الثورة الجنسيّة، التي لم تنفجر هنا، عن طريق الصور التلفزيونيّة، والسيّاح الغربيين الذين يأتون هنا هاربين من عُقدهم. النساء القادمات من وراء البحار يستفدن من خدمات الشبّان العرب. ويرجعن فيعودُ كلّ شيء إلى طبيعيّتِهِ والتي، أي الطبيعيّة، لا تختلف كثيرًا عن هنا. باختصار لا أحد يراقبهنّ هنا، أمّا في بلدانهنّ

فالعين بصيرة واليد قصيرة.

٨. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

الطاولات في المقاهي هنا بدون أغطية فتتّسخ لأنّ الضيوف يستندون بأياديهم عليها. من الضروري أن تسند يديكَ! فيتعلّق عرق الآخرين بكَ، ويظلّ ملتصقًا دبقًا طوال اليوم، فتشعر بقرف يدمّر لذّة الانتعاش بالبرودة. العمّال في المقاهي يقومون بسدٍّ هذا النقص بطرقهم، فهم يقدّمون مع المشروبات الباردة مصّاصة للاستعمال لمرّة واحدة وبعد ذلك يلوونها كي يرى الجميع ذلك، ويقدّمون مع كلّ زجاجة جديدة مصّاصة جديدة. عُلب المناديل على الطاولات، وتستطيع أن تطلب الماء دون قيود.

٩. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

عندما أريد أن أتكلّم مع أحد فالجدار المنخفض أو القارب المثقوب بل حتى أيّة حافّة أفضل من الكرسي البلاستيكي الرخو الطيّع. البيرة على الأرض وحدها هي التي تجعلني أحلم بالطاولة في كلّ مرّة أمدّ يدي لأتناولها.

١٠. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

شرفةُ المطعم تطلّ على العقبة وسيناء. في الزاوية حول الطاولة مجموعة تقيم حفلة. ولد صغير انفصل عنهم وتقدّم منّي متظاهرًا أنّه ينظر إلى الدرابزين، وكان يسترق النظر إليّ: كيف الحال؟

ـ بخير، وأنت؟

ـ بخير. ما اسمك؟

ـ يان.

ـ من أين أنتَ؟

ـ من بولندا. وأنتَ ما اسمك؟

ـ محمّد. إلى اللقاء إذًا. ـ عاد الصبي راكضًا وبدأ يؤشّر بيديه. التفتتْ إليّ مجموعة من الكبار. انحنيتُ بالتحيّة لهم. فعاد محمّد بعد لحظة. جلس بدايةً على كرسي بالقرب منّي ونظر من زاوية عينه، وبقيتُ صامتًا، لأنّكَ لا تحصد من الكلمات إلّا سوء التفاهم. بدأ يقترب شيئًا فشيئًا بمقعده. من المفيد في مثل هذه المواقف أن تمارس شيئًا من الطقوس وهو ما ذهب في غياهب النسيان. فالطقوس تعني أنّ هذا اليوم يختلف عن غيره من الأيّام، وأنّ لحظةً ما تختلف عن غيرها من اللحظات. للحظات جلسنا صامتين.

ـ أين بلادك؟ ـ سأل محمّد.

ـ هل تعرف تقريبًا أين روسيا وألمانيا؟

ـ هناك حيث البرد دائمًا. ـ استشهد بفخر بجغرافي يعرفه. إذًا هناك بلادي ـ قلتُ وأنا أبتسم.

ـ هل البرد يسبّب كثرة النمش؟

ـ لا ـ أجبت بمرح ـ هل هناك يجلس أبوك وأمك؟

ـ نعم. نحتفل بعيد ميلاد أخي. كم عمرك أنت؟

ـ ثلاثون ـ أجبتُ محاولاً أن أستعمل رقمًا سهلاً ـ وأنتَ كم عمرك؟

ـ سبع سنوات. ـ وسألني: أعندك إخوة؟

ـ لا. عندي أختٌ أصغر منّي.

ـ كم وزنكَ؟

ـ خمسة وثمانون ـ قلتها بالعربيّة. أعاد الصبي الرقم بالإنكليزيّة.

ـ وماذا يفعل أبوكَ؟

ـ هو فنّان. وأبوك؟

ـ رجل أعمال. وكم دَخْل الفنّان في بلادك؟

من الواضح أنّه لا يهتمّ بالأشياء الأساسيّة. بعد لحظة سألته:

ـ هل تقضون عطلتكم هنا؟

ـ نعم، نسكن في بيروت، وجئنا إلى العقبة لأسبوعين. ليس عندي أصدقاء هنا. لذلك أنا حزين. ـ هل ستكون صديقي؟

ـ طبعًا! نحنُ أصدقاء. ـ مددتُ يدي فشدّ الصبي عليها بقوّة.

ـ ممتاز! عندي صديق من أوروبا ـ قالها وهو يقترب منّي أكثر.

ـ وأنا عندي صديق من بلاد العرب. ـ قلتها بفرح.

ـ عفوًا، يجب أن أذهب. سنعود للفندق، إلى اللقاء صديقي.

ـ إلى اللقاء صديقي.

ولم نلتقِ أبدًا.

١١. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

ـ إيه إيه! أتريد أن تركب قليلاً؟ ـ سألني صوت طفولي. وقف راكب الحصان مقابل المطعم.

تلفّتُّ حولي.

بَدْوٌ يؤجّرون في النهار خيلهم في المُنتزه، والآن تجمّعوا على الشاطئ حول نار أشعلوها. أفراسهم الرشيقة المزدانة بالبُمْبونات لا تشبه أبدًا الأفراس القزمة التي يركبها الأطفال والتي ينقلونها بالشاحنات إلى المنتجعات الأوروبيّة. كانت تعاني من نقص في التغذية فالعظام بارزة تكاد تمزّق الجلد. ومع هذا كانت تسير بعضلات مشدودة وعينين برّاقتين لا غِمامة عليهما.

ـ إيبيه... ـ قلتُ.

هذا ليس لائقًا طبعًا.

الحديقة بين الشاطئ والكورنيش مُنظّمة. المماشي فيها مرصوفة بالحصى ومحاطة بأشجار مقصوصة بشكل دقيق. وقد جُمعتْ سعف النخيل الجافّة ورُبطت على شكل حزم. وعلى امتداد الطريق المشجّر تجد قنوات مائيّة وحاويات للمهملات عند رأس كلّ ممشى.

ـ إيبيه أنتَ! أنتَ تركب الخيل أليس كذلك؟ ـ أقحم نفسه أحد الشبّان الذين تعرّفت عليهم في المنتزه.

كانت الحياة الليليّة تنحصر في المنتزه الذي يتحوّل مساء إلى حلبة سباق.

ـ نعممممم... ـ كأنّي بحاجة لأن أتذكّر ركوب الخيل.

بدأ الناس يحتشدون.

هيّا! اخترْ حصانًا وسرْ. ـ قام الشبّان البدو باستعراض خيلهم والوكزات تأتيني من كلّ جانب تحثّني كي أتّخذَ قراري.

قفز رجل طويل منْ على حصانه وأخذني من يدي وسرنا مسافة

قصيرة وهو يتكلّم بالإنكليزيّة. من الواضح أنّه يعتني بنفسه وثيابه أفضل من البقيّة. سألني: من أين أنتَ يا رجل؟ هم يريدون نقودك فقط. صدّقني! لا تسمعهم يا رجل! هل يمكننا أن نتفاهم؟ لوحدك أنت؟ ليس معك فتاة؟

ـ فعلاً.

ـ قلتَ لي من أين أنتَ؟

ـ من بولندا.

ـ وأين هي يا رجل؟ قريبًا من روسيا؟ يعني البرد شديد عندكم... ماذا تفعل هنا يا رجل؟ تتعلّم العربيّة؟ حسنًا. هذا جدير بالإعجاب. عقل راجح حقًّا. لكنّكَ تتكلّم الإنكليزيّة، ألا يكفيك؟ صدّقني! نحن نتعلّم لغاتٍ أخرى. مسخرة! في كلّ الأحوال يعتبروننا متوحّشين، فلماذا تتعلّم لغة المتوحّشين؟

ـ أحبّها.

ـ وهل فيها ما يُحَبّ؟ أنا لا أحبّها. هي صعبة. عندكَ صاحبة هنا؟

ـ لا.

كلام سليم. لأنّهنّ يهبن أنفسهنّ للسيّاح من أجل النقود. ـ نظر متفحّصًا لردّة فعلي على كلامه. لمعت عيناه بنفاد صبر خمد على الفور.

ـ يفعلنها من أجل النقود فقط. لا تهتمّ يا رجل. أوّلاً يفحصن هل عندك سيّارة وأين تعمل. قبل الزواج يتظاهرن بالبراءة. لا عمل لك إلّا أن تركض وتمسك بأيديهنّ، إلى متى تفعل ذلك؟ شخصيًّا لا

أستطيع... يا رجل... وفي النهاية الأحسن بينهنّ تتزوّج شخصًا أسوأ من النسوان، غالبًا من أولئك النواعم الذين يقذفون في بيوتهم تحت اللحاف ومع الفتيات كلمات في جمال العيون. قل يا رجل متى فتاة كهذه تسمح لك بأن تفعلها معها، ربّما بمناسبة الأعياد ومن الدبر كي تأمن جانب أسرتها. وما إن تتزوّج حتى تهمل زوجها النواعم وتمارس الجنس مع أوّل رجل تقع عيناها عليه، ولا يمكنك أن تحرسها. يا رجل الكلُّ شراميط، لكنّك لا ترى ذلك في البداية. ما العمل؟ إذا ادّعيت اللطف الناعم ستخدعكَ وإن أردت الجنس فلا أمل لديك. صدّقني! أنا هنا أقضي عطلتي ولست معهم ـ وأشار بيده إلى مكان النار. ـ أسكن في عمّان. استلفنا الخيل وهذان من أصحابي، ونعمل في شركة أبي. أريد أن أرحل من هناك. كيف الوضع عندكم بالنسبة للنساء؟ عندي قريب في فرنسا. صدّقني! سأرحل يومًا فلا حياة لنا هنا. صدّقني! كلّ شيء هنا يلفّ ويدور حول النقود. انتظرني سأرى ما يفعل أصحابي.

أمرٌ غريب، فالعرب عادة لا يحبّذون معاشرة البدو.

ـ أنتَ هناك... احذر إنّه لوطي. ـ قالها ساخرًا الصوت الطفولي نفسه. ـ أتريد أن تركب الحصان؟ ـ واقترب الفتى كثيرًا حتى إنّ الحصان ضربني بذيله، فرأيت قدمي الفتى العاريتين تقبعان في الرّكاب.

ـ هذا حصان رائع. مدَّ يدك هنا... انظرْ! ـ ركض حتى نهاية الشاطئ وعاد. ـ أتريد أن تجرّب؟

ـ لا.

أخرج لسانه مُستهزئًا وسأل: أين صاحبتك؟ تفضّلُ الرجال أليس

كذلك؟ سيعود صاحبكَ حالاً. ـ ثم حرّك الصبيّ شفتيه وكأنّه يريد قبلة وبدأ يلعق بلسانه كأنّه يشرب حليبًا.

اغتصب قطّ قطّةً تزعق بين الأعشاب. رماهما أحدهم بحجرة فساد الصمت. انفجر الصبي ضاحكًا. تسلّق الحصان وركض به وهو يربت على كتفي.

ـ تشاو بيلّا تشاو.

١٢. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

نظرتُ إلى الخليج إلى اليمين حيث إيلات. أجلس كلّ ليلة في قارب وأراقب أضواء المدينة الشرقيّة. خلفي تمتدّ تلال صحراويّة. انحناءات رؤوسها تذكّرك بأسنمة الجِمال الوقورة التي هدهدتها يدٌ حانية للنوم. يشكّل كورنيش البحر حدًّا فاصلاً بين الصحراء والحديقة المصمّمة على النمط الفرنسي.

١٣. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

حين أكون على موعد مع شخص يصبح اللقاء جزءًا لا ينفصل عنّي قبل الوقت بكثير. وكأنّ الحياة تُعدُّني له منذ الأبد، حتى لو لم يكن بإمكاني أن أعبّر عن ذلك بدقّة. فإذا حدث ولم يأتِ هذا الشخص، أو اتّصل هاتفيًّا في آخر لحظة مبرّرًا ذلك بأسباب هامّة لا نقاش في وجاهتها، عند ذلك لا يتملّكني الإحساس بالأسف لأنّي لن أراه، وقد يكون شخصًا قد لا يهمّني كثيرًا، أو يتملّكني شعور بالإهانة أو الشكوك بأنّي خُدعتُ، بل أشعر بأنّ عقد الزمن قد انفرط ولا يمكن

جمعه. أحسّ بالعجز كأنّي طفل أضاع يد أبيه الراعية كما في غابة بيتر بان. أحيانًا أجد عزاءً في تذكّر اللحظات التي قضيتها يومًا مع الشخص الغائب هذا. كأنّ اللقاء يجري فعلاً والشِّعر يسمح ببناء الانسجام ومع ذلك لا يحميك من الكآبة أمام خيبات أمل تتعاقب.

١٤. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

غير بعيد من العقبة يقع وادي البتراء، يصله المرء من الجنوب من طريق أخدود ضيّق. وتزيّن سفوح مرتفعاته المغسولة بفعل عمليّات الحت والتعرية أشرطة بألوان دافئة من شوائب المعادن يُطلق عليها بلّورات السيليسيوم. وفي الصخر نُحتت بوّابات المعابد والتيجان المزخرفة والطبلات تروي قصصًا، وهي تبرز من الصخر مباشرة. تخيّم اليوم داخلَ هذه الأماكن المهجورة عتمة ورطوبة منعشة. ولا تزال المشاكي الفارغة فيها تشهد على آلهةٍ لا أحد يتذكّر اسمها، وقد تكون يدهم الراعية قد قذفت بالمؤمنين وحكمت عليهم بالفناء.

ـ أنتَ يا صديقي! أتريد أن تركب الحصان؟ ـ كان خيّالنا يشدّ عنان الحصان المرهق من السباق ويدور بعصبيّة. ـ خذ واركب الحصان حتى نهاية الممرّ وارجع من باب التجربة.

ـ هات!

ربطتُ الجراب إلى حزامي وأنزلت الرِّكاب وبلكزة من بطّة رجلي تحرّك الحصان خطوة طويلة. بطّة رِجلي الثانية خطوة، لكزة ثالثة ورابعة... وبعد أن فقدت الأمل انهلتُ على الحصان ضربًا برجليّ. لم يتحرّك. وارتفع صوت الخيّال بالضحك...

مضى وقت قبل أنْ أتذكّر أنّهم يروّضون الخيل هنا بشكل مختلف

عنّا. الخيل تُروَّض بحيث لا تتحرّك إلّا بإذن من صاحبها. حدّثني بذلك أحد مربّي الخيول الذي كان لديه وقت نظرًا لقلّة الزبائن، نظرًا لانتهاء الموسم فامتدّ بنا الحديث. قدّم لي المربّي حصانًا وقال تفضّل واركض، لكنّه لم يتحرّك. فأشار أن أشدّ العنان على القَرَبوس بحيث يخرج الصوت، وحذّرني من ضرب الحصان. فالمطلوب هنا هو الصوت. وعلى أثر ذلك انطلق الحصان ومع كلّ لكزة من بطّة رجلي أطال المشي. كان الحصان يعلم أنّي أملك ترخيصًا من المالك فكان مطيعًا.

... صفّر الخيّال وعاد الحصان فورًا عدوًا. وضحك البقيّة.

ـ نصف دينار ـ طلب الخيّال وهو يمسك بعنان الفرس.

ـ هل تمزح؟ قلتَ بدون نقود.

ـ ولكنّك قمت بذلك ثلاث مرّات. ـ وفعلاً في نهاية الممرّ تراجعت عدّة مرّات لتلطيف جموحه. عن أيّ ثلاث مرّات تتكلّم؟ ـ قلت بغضب. ـ فرسك العجوز لم تقبل حتى أن تعجّل في سيرها وأنت تطلب نقودًا؟

ـ كلّ شيء إلّا فرس عجوز. من حسن حظّك أنّك لم تسقط من السرج. نصف دينار. حسنًا ربع دينار.

عدّلت الجراب وتوجّهتُ نحو زملائه. أردت أن أتحقّق هل سيوقفونني. لم يفعلوا، بل تراجعوا.

ـ يعني تريدني أن أفطس من الجوع؟

ـ عندك سيّاحك الذين يدفعون، ثم قلتَ إنّنا أصدقاء.

ـ ها ها ها صديقي الأبيض! ستأتي غدًا؟ نجري سباقًا فإن ربحت

لن تدفع شيئًا. تختار حصانك وسنعلّمك كيف تعامله، وليكن حصاني.

ـ في أيّ ساعة؟

ـ الحادية عشرة قال الخيّال.

ـ إلى الغد إذًا.

بدأ الخيّالة يستعدّون على مهل للذهاب إلى المربط. نزلتُ الوادي مشيًا على الأقدام، وكأغلب السيّاح خصّصتُ النهار كاملاً للبتراء ومساء عدت إلى العقبة.

١٥. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

أمواج خاملة تتكسّر أمام الطاولات الخالية المنغرسة في الرمل. لا أحد يرغب في تبليل رجليه ليلاً. آخر الضيوف يجلسون في عمق الشاطئ. نظرت إلى المطعم فأحسست برائحة حادّة ولاذعة قليلاً تهبّ من البحر وتختلط برائحة دخان النراجيل الحلوة، المعطّرة بالفواكه. كانت رائحة النرجيلة أحيانًا تطغى على رائحة المظلّات الحامضة الصدئة حين تهبّ الريح من جهة البرّ. نادل قزم بدأ بحيويّة يصفُّ الطاولات. ثمّة شيء غريب في وجهه. مرّةً خُيّل لي أنّي أراه من جانبه الأيسر متوجّهًا نحو المدينة ومرّةً من الجانب الأيمن متوجّهًا نحو الميناء في الوقت نفسه! لم يستدرْ برأسه حتى عندما حيّاني رافعًا يده.

١٦. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

في حديقة الڤيلّا في ضواحي المدينة عثرنا أنا ووليد على مكان لشرب العصير، لم يكنْ البناء مُزرقًّا ومن سقفه المسطّح تظهر قضبان

حديديّة من الخرسانة من باب الاحتياط إذا أراد المالك أن يبني طابقًا ثانيًا ليوسّع الأفق حوله، وبين القضبان ينشرون الثياب.

كان العامل في صدريّته يعصر الفواكه بمرونة، ويقدّمها مع قطع من الجليد المكسّر ويضيف حليبًا لمن يطلب ذلك. بوّابة ضخمة كانت تؤدّي إلى الحديقة وبدلاً من السياج كان البيت محاطًا بخندق ليس بالعميق.

ـ ما قولك أن نشرب شيئًا؟

ـ طبعًا ماذا تشتهي؟

ـ موزًا وبرتقالاً وجزرًا ـ قلتها وأنا أتذكّر طعمها من الطفولة.

ـ أنا مانجو مع غريفون. ـ جلب العامل كأسين يطفحان بالعصير.

ـ صدّقني أنا أعرف هذه الأماكن. السعوديّون مقرفون. يا رجل هم ذوو كروش شاذّون، يعاشرون الأطفال والحيوانات. أكره سيّاراتهم الضخمة بنوافذها المظلمة فلا تعرف ما يفعلون خلفها. سوريا بلد لطيف، صدّقني! هناك يمكنك الذهاب، أن تعثر على الفتيات. فيها فقر وفيها حرّيّة. عرفتَ كيف تختار مكان إقامتك؟ ها ها ها! بالنسبة للفتيات الأمر يبدو على الشكل التالي: الأردنيّون يذهبون لسوريا والسوريّون للأردن والأغنياء من الأردنيين والسوريين يذهبون إلى لبنان. صدّقني! كنتُ في إيلات. هناك حيّ للمومسات. في إسرائيل الأسعار مرتفعة وهي خطرة وهم هناك يضايقوننا. الإمارات العربيّة أحسنها. صدّقني! في دُبي أجوركَ عالية ولا أحد يضايقك. أسوأ الناس هم الفلسطينيّون المتخلّفون الغدّارون. لا تأمنْ جانبهم أبدًا. عليكَ الحذر في السودان فالسود هناك تراهم مجبرين على نيك

الحجر. صدّقني! أنت رجل وسيم... اليابانيّون أكثر من يسلّيني بمنظرهم وهم يهرولون بكاميراتهم على أرجلهم التي تذكّر بالبطّة. ألا تريد أن تسكن معنا يا رجل؟ لِمَ تخسر نقودكَ على الفندق؟ صدّقني، سنقيم حفلة مساءً ستعجبك.

ـ شكرًا... أنا على موعد اليوم مساء. ثم هي أيّام وأعود إلى دمشق.

ـ مدعوّ؟ من دعاك يا رجل؟ لا تقل إنّها امرأة... من أهل المنطقة؟ صدّقني، لو كنت مكانك لما ذهبتُ. لا فائدة من ذلك، أو سيدعونك للعشاء في مطعم وأنتَ ستدفع.

ـ أعرف هؤلاء الناس.

ـ كما تريد، وتذكّر أنّني حذّرتك. هل يمكننا أن نسافر معًا بالباص إلى عمّان؟ عندي هناك بعض الأشغال ثم أعود وتتابع أنت إلى دمشق. هل اشتريت تذكرة؟

ـ نعم. في يوم الأحد والانطلاق في الثامنة صباحًا.

ـ ممتاز يا رجل. اتّفقنا إذًا. سأذهب الآن... أنا قريب من البيت هنا. سأذهب إلى دورات المياه.

عندما نهض وليد، دفعت ثمن شرابي. وانتبهت أنّه تكلّم مع العامل قبل أن يعود ليقول إنّه يملك ورقةً من فئة الخمسين دينارًا، وليس عند العامل «فراطة» ـ هل تدفع عنّي؟ سأردّ لك المبلغ عندما نسافر لعمان.

احتضنني وليد بقوّة وهو يودّعني وانزلقت يده إلى المكان المحظور، وقد أكون متحسّسًا من الموضوع أكثر ممّا يجب.

لم يأتِ وليد يوم الأحد.

١٧. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

لم يكن سليم يرغب بالكلام ولم نتحادث في الطريق. العادات الغريبة على المكان قد لا تكون أفضل مرشد، ولكن لا ترفع يديك مستسلمًا. تيقّنتُ أنْ لا ضير في المشوار الصامت، فأنت مع الشخص، إلى أن ترغب بمحادثته، فتجده معك وتتكلّم معه. يعجبني هذا الانسجام غير المُتكلّف للوجود كالاستعداد النبيل للصعود وتوسيع الأفق.

١٨. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

يدٌ، رجل مخّ و...

كيف نبدو في المرآة؟

مُسبَل العينين: أربعون عامًا، ستّ عشرة ساعة يوميًّا بلا أيّة إجازة وأنا أشوي الكباب. زوجتي وأطفالي يعيشون في عالم ليس عالمي ولن يكون عالمي، رغم أنّي مجبر على العيش فيه.

مُسبَل العينين: الأطفال يكبرون. لا أمل لديهم. بيتهم غريب عليهم. ويخجلون لأنّهم لا يملكون غيره.

مُسبَل العينين: للأسرة التي اقتصدت لتشتري تذكرة وتدفع الرشوات أرسلُ صورًا لسيّارة توقّفت صدفةً أمام محلّ للكباب.

مُسبَل العينين: عندما يذهب الأطفال إلى بلدهم الغريب يتظاهرون بأنّهم جزء من هذا العالم الرائع، علمًا أنّهم لا يؤمنون بذلك.

المرآة؟

مُسبَل العينين... هذه سياستي، وبشكل عامّ كلّ ما يقضّ مضجعنا كي لا نرقد بهدوء، ونمسك بأيدينا على صدور الآنسات وننظر لغيوم من نوع النّغّاص لونها أبيض والسماء زرقاء.

هذه ليست تمارين شعريّة.

أطالبُ بواقع أفضل.

جانبًا: تركت الأديداس الأبيض في العتبة.

١٩. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود.

في القصور الصحراويّة راقبت زوجًا وزوجته من شبه الجزيرة العربيّة. قلاع الخلفاء في الصحراء كانت محطّ أنظار السيّاح. يفرح الأطفال ببقايا الماضي هذه، فيركضون ويتسلّقون الصخور، ويلعبون «الغُمّيْضة» والكبار يهربون من الشمس ويفرشون الأبسطة لنزهتهم. والرحلة تتكوّن من عدّة عائلات. الأزواج يتشاورون مع زوجاتهم كيف يلتقطون صورًا جيّدة. وكانوا برقّة يهتمّون ألّا ترهق الزوجات أنفسهنّ أكثر ممّا يجب. في أحدِ قصور الوليد قابلت سائق تاكسي من العقبة، وكان عندما يغيّر سرعة السيّارة يمرّر بيده على فخذي ودعاني للطعام الذي أعدّه مع زوجته وأطفاله.

٢٠. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

عامل إلكترونيك عاطل عن العمل، ترك زوجته وأخذ ابنه على درّاجة صغيرة وتقدّم منّي. تبادلنا التحيّات والسلامات والاحترامات وبعد لحظة بدأنا الحديث. عمر ابنه ثلاث سنوات وهو تسع وعشرون

سنة. سألني لماذا جئت هنا إنْ لم أجلس على الشاطئ ولا أبحث عن خطيبة، بل أتسكّع هنا وهناك. وبعد تفكير قال: أنتم أيّها الأوروبيّون شعب غريب. بالنسبة لنا الشخص الوحيد يكون حزينًا، ويعوزه شيء في هذه الحياة ولا بدّ من مساعدته. أنتم باختياركم تسافرون فرادى كَمن يعاقب نفسه. هل أنعمَ عليكم القدر ورعاكم حتى إنّكم تفرضون على أنفسكم عقوبة المعاناة؟

حدّثني الرجل عن عائلته وزوجته وأنّه كان قبل فترة قصيرة في إيلات، وأنّه درس في بطرسبورغ التي أعجبته، لكنّه في العقبة هو في بيته. عندي أسرة رائعة ولن أكون لوحدي أبدًا هنا. كانت زوجته تجلس على جدار منخفض بالقرب منّا، تنظر إلينا وهي تهزّ طفلها الأصغر في العربة. بعد لحظة اعتذر الإلكتروني أنّه لن يستطيع متابعة الحديث لأنّ زوجته بقيت لوحدها. التفت الابن ولوّح بيده من بعيد وهرع خلف والديه اللذين انعطفا بعد التقاطع وهما يمسكان بأيدي بعضهما بعضًا.

٢١. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

لم يكن بإمكان وليد أن يجرح مشاعري بعدم مبادلته لي مشاعر التقرّب. هي تصرّفات غريبة عليّ. وبما أنّ الجسد لم يكن جذّابًا فإنّه لم يعوّض النواقص. استمعت إلى قصصه كما أقرأ كتابًا لا يريد بطله أن يبوح ما بداخله. اللحظة القصيرة التي أردت فيها أن أردّ عليه بدفء جلبت الخيبة، بل حتى الحزن، لكنّها لم تخلّف ألمًا. لم أكن في نهاية الأمر إلّا سائحًا، رحّالة يعبّ الرضى من المراقبة ويغسل يده ويتبرّأ من كلّ شيء.

٢٢. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

فهم سليم أنّي اخترت بنفسي أن أسافر لوحدي. وعندما فتح لي قلبه أراد منّي أن أساعده بصفتي شخصًا يسافر للمتعة. كان يؤمن أنّ للناس مستقبلاً أفضل هناك حيث تعيش لوبوف. روسيا بالنسبة له كانت من عالم التلفزيون الرائع. كان فخورًا بدعوة لوبوف له علمًا أنّه على دراية بمصير المهاجرين. كان يأمل أنّه بفضل الحبيبة سيتجنّب المهانة. ارتبط الخوف من عدم وجود أحد في موسكو بلحظة الرحيل من العقبة. رأى سليم نفسه أسعد بكثير في روسيا، ممّا لو كان في الأردن، فبلده فقير ومُهان من قبل الأخ الأكبر ويُحبُّ ملكَه كما يُحَبّ الأب العاجز. هكذا يترك أطفاله مسبلي العينين. القدريّة هنا تنمو بكلّ أريحيّة على تُربة ما بعد الاستعمار. عندما وافق سليم أن تعيله لوبوف فهو لم يفعل ذلك من باب المكسب والخسارة، بل قرّر ذلك لأنّه قطع صلاته بالتقاليد التي تحتقر الرجال الضِّعاف الذين لا يستطيعون أن يمدّوا يد العون لأسرهم. هنا كانت السائحات غريبات ويمكنه أن يقوم بعمليّات تجاريّة معهنّ. الحبّ دفعه للسفر.

أتمنّى أن يحالفه الحظّ.

٢٣. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

لم أزدد اقترابًا من الناس الذين قصّوا عليّ قصصهم. فالخصوصيّات تفقد قيمتها بلا أمل في أن نصل للحقيقة. ابتسامات، حركات، وعود برّاقة وتأكيد دائم على إستمرار الصداقة، كلّ ذلك كان طُعمًا ابتلعته دومًا. كان في ابتلاعي الطعم القليل من السذاجة والكثير من الإيمان، إنْ لم يكن في حقيقيّة القصص فبوجود الحقيقة، حتى لو

سترت عليها القصّة. حسنًا أقولها بصراحة رغم أنّي أشعر بالخجل: استخدمت الشِّعر للدفاع عن الحقيقة. قصّة خطيبتي تبقى لعبة. علمًا أنّي مُعجب بالقصّة المخترعة. بدأ الماضي يتسرّب من بين أصابعي. ما الخداع إلّا انتقاص للحقيقة، وفي مرآة الأحلام العارية استيقظت الأشباح، وبدت حياتي فاشلةً.

٢٤. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

صارت الشمس في الجهة الثانية من الخليج ولفّ إيلات ضباب شمسي. قرّرت أن أشتري شيئًا للشرب. الأطفال في هذا الوقت يخرجون إلى الساحة. تبيّن لي أنّ الساحة الفارغة التي قطعتها أثناء ذهابي إلى الدكّان كانت ملعبًا. توقّف الأطفال عن لعب الكرة وبدأوا ينظرون. كان أكبرهم ربّما في الثانية عشرة من عمره. مددت يدي للمصافحة. انحنى أحدهم وأمسك بحفنة من التراب وقذفها. أسرعت خطاي. تبعه طفل ثان. طوّقوني. أطلقت بعض المفردات فاقترب الأطفال. لم أفهم لهجتهم. بدأوا يتهكّمون عليّ. ظنّوا أنّي أستفزّهم لأنّي أتكلّم بالعربيّة. على كافّة الجوانب الكثير من الأحجار. وبدأت حفنات التراب تتطاير دون أن تؤذيني. خرج رجل من أحد البيوت القريبة وهو يصرخ بهم فهربوا. لم أستجب لدعوته لشرب الشاي، لأنّ الفضاء الكثّ صار دبِقًا وكأنّ الأرض انضغطت في السماء فتقطّرت عرقًا.

٢٥. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

على أطراف العقبة هناك جدار منخفض يسدّ الرصيف بمحاذاة محلّق الحيّ. في الجانب الثاني حيّ مليء بالبيوت يمتدّ نحو الدرب

القديمة على البحر الميت والتي توصل إلى العاصمة. خلف الجدار المنخفض تمدّ يدك فتلقى الصحراء.

٢٦. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

المُكيّفات المعلّقة على الجدران تبدو في الليل كصراصير هائلة التصقت في الواجهات ولا تتجرّأ على قطْع الصمت في المدينة.

راقبت الصراصير في إحدى المرّات. كانت بحجم الأصابع الرجّاليّة. وهي كسولة للغاية لدرجة أنّها تفضّل بعد أن تأتي على المائدة بأكملها، أن تسقط مرفرفة على الأرض، على أن تنزل عبر الحائط. طيران الصرصار يفاجئك دائمًا، لأنّه حشرة تنهض فجأة وكأنّ قوّة هائلة تدفعها. وبعد أن تهبط تحتاج للحظة كي تتعرّف على وضعيّتها. وقد يحدث أن يصطدم الصرصار بكرسي فيتوقّف وفجأة يسقط على الأرض، يلتفتُ ويُقلع مرّة أخرى. خفقان الصراصير يملأ البيت ليلاً. ويتملّكني الخوف ولا أنام عندما أفكّر أنّني قد أستيقظ في صحبتها. أحيانًا كنت أجد صباحًا صرصارًا في وسط المطبخ، ولم أكن متأكّدًا أهو مُتخم ونائم أم مات أثناء غيابي. حركة خاطفة فينبعج الصدر وتتطرطش الشكوك على الأرضيّة. ما من مرّة دخلت المطبخ وكلّي أمل أن أكون لوحدي، وبدأت الطبخ، إلّا فاجأتني مرّة أخرى الطرطشة على الأرضيّة. يبدو لي مع مرور الزمن أنّ كلّ صدر يترك أثرًا جديدًا على العارضة التي أمسك بها بيدي بدلاً من الحذاء. كنت وحيدًا في مواجهة الحشود التي تتكاثر طوال الوقت. لاحظت بعد ذلك أنّ الصراصير لا تدخل الغرف، حتى لو كانت الأبواب مفتوحة. فبدأت أنام بلا أرق. وأخيرًا وصلت جرأتي من الوقاحة درجةً أنّي بدأت أترك بقايا الطعام في الغرفة. وانتقمت الصراصير منّي على

طريقتها؛ فبعد مغادرتي تلك البلاد كنت أخاف من ظلال الأشياء الناعمة الصغيرة المتحرّكة، حتى في المساكن التي لم أرَ فيها الصراصير. فعندما كانت مسَّاحة الأواني أمام الباب تتحرّك بسبب تيّارٍ هوائي، كنتُ ألتفت برأسي وأنا أشعر بنفس خيبة الأمل المؤلمة تلك.

المُكيّفات المعلَّقة على الجدران تبدو في الليل كصراصير هائلة التصقت في الواجهات ولا تتجرّأ على قطْع الصمت في المدينة. الباعة ينامون منذ وقت طويل، والمؤذّنون ينادون لآخر صلاة... ورائحة ناعمة تأتي من البحر فيذكّر بوجوده بهذه الطريقة العجيبة.

آمل أن ألتقي جميلة بعد عودتي لدمشق وسأرتاح على الفور!

٢٧. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

عندما عدت في القيظ فكّرت أن أتجنّب شركة «سفريات شرق الأردن» كي لا يراني سليم. شعرت بالقرف لمجرّد التفكير في أنّي سأراه وسيحدّثني مرّة أخرى عن حبّه لوبوف، وأنّه ينتظر منّي أن أتّخذ القرار في السفر لروسيا بدلاً عنه. سألتفّ حول الفندق.

بدأ الجوّ مساءً يميل للبرودة بعض الشيء، ولم يعد العرق يغرق عينيّ، وجفّ قميصي تحت نسمات الهواء المنعشة. شعرت بالسعادة. ركضت نحو بوّابة شركة «سفريات شرق الأردن» وناديت وأنا ألوّح بيدي ومدفوعًا بالعبث: إنّني هنا!

٢٨. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

أردتُ قبل النوم أن أتمشّى على الشاطئ من جهة الشبكات السياحيّة الكبيرة للفنادق.

مرّةً أخرى: أردتُ قبل النوم أن أتحقّق إلى أيّ مدى يمكنني أن أقترب من إسرائيل.

النقطة الحدوديّة في العقبة تعمل في النهار فقط. لم أعرف أين أبحث عنها. كانت الشواطئ ـ المسابح أمام الفنادق مسوّرة، لكنّي عثرت على درب ضيّقة باتّجاه الغرب. نمت الأعشاب على الحديقة المحاذية للطريق. كانت الأشجار تتضاءل كلّما قلّ عدد المباني. مساحة من أرض جافّة تقاطع تقوّس الشارع الذي يقرّبك أكثر فأكثر من شاطئ السباحة. الفنادق انتهت منذ وقت بعيد. إلى يساري رأيتُ شُعبًا يرجع نحو البحر. بعد التقاطع رأيت مصباحًا ولوحة كُتب عليها «ملكيّة خاصّة ـ الدخول ممنوع» لم يكن هناك سياج لكنّي لم أجرؤ على الدخول. كانت أحيانًا تمرّ سيّارات تاكسي وتسير خلفي ببطء، ثم يسألني السائق إذا كنت أريد أن أذهب إلى مكان ما. البعض منهم كان قلقًا أنّي ضعت فيقترح عليّ جولة في المدينة، ليريني أماكن شيّقة. بعدها كانت هذه السيّارات تختفي، ظهرت سيّارة خصوصيّة وتابعت غير آبهة. فجأة رأيت إيلات. توقّفت السيّارة. أمام نافذة فندق يهودي رجل وامرأة يمارسان الجنس. على بوّابة قريبًا من الفندق لافتة نادي الشباب الأردني. بعد ذلك يستدير الطريق راجعًا ومن الطرف الثاني للحديقة رجعت لمركز المدينة. اختفت السيّارة. كان الرجال الجالسون على المقاعد يمسّدون أيادي بعضهم، ومن بين الأعشاب كانت تظهر بين الفينة والأخرى ملامح الشبّان البدو.

٢٩. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

اسمع! قالتها وهي تحرّك يدها، هي تأتيني كلّ يوم وتبكي لأنّها طلّقت زوجها منذ أربع سنوات، ومنذ ذلك الوقت لا رجلَ في حياتها.

هي مُعجبة بك، ولن تصدّك، لكنّها قد تمانع. لذلك عليك أن ترغمها، لأنّ الرجال يلعبون هذا الدور هنا. أنتَ ترفض؟ هل أنت مريض؟ لا . . . أنت بكلّ بساطة تفضّل الرجال!

٣٠. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

أمضيتُ الطريق بين العقبة والبتراء في صحبة امرأة سوريّة متزوّجة من دبلوماسي أجنبي، يعمل منذ ثلاث سنوات في أحد السفارات. في الطريق حدّثتني عن زميلاتها، اللواتي يحتقرن الرجال بسبب استخدامهم للعنف وبدائيّتهم وخداعهم. إنّهم جبناء، عند كلّ واحد منهم عشيقة، وما إنْ ينكشف الأمر يغسلون حتى أياديهم من المشكلة، ويبحثون عن عشيقة جديدة. يمكن السيطرة على الرجل عبر الجنس. يبقى استمرار الزواج أفضل من أجل الأطفال والبيت والصديقات لقضاء الوقت معهنّ، وذلك كلّه عندما لا تعمل الزوجة. وبقليل من المرونة ترتاح المرأة. فالزوج في عمله منذ الصباح وحتى المساء، وعندما يعود يطلب العشاء جالسًا أمام التلفزيون وبهذا يمضي الوقت. والرجال حتى في يوم الجمعة الذي هو عطلة يذهبون للصلاة لوحدهم. إذا قرّرت المرأة الطلاق من زوجها، عليها أن تحصل على دعم أسرتها، فَمَنْ غير الأسرة يضمن لها العيش؟ ثم لا يليق بالمرأة أن تسكن لوحدها. يمكنها أن تتحجّب ولكن هذا لن يفيدها كثيرًا. ما يفيد هنا أن تقوم بدعوة قضائيّة ضدّه، لأنّها تقتل المشاعر العاطفيّة، وتعلمّ الاحتقار. لا مشكلة أن تجد عشيقًا، لكنّ البراعة تكمن في اختياره، لأنّ العشيق المسيحي، على سبيل المثال، يخاف لو كانت المرأة مسلمة.

أن تكون على نفقة الآخرين له حسناته، ولكنّنا لسنا جميعًا لهذه الدرجة من المادّيّة.

٣١. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

يسكن جون الأستكلندي في دمشق. تعرّف على بنت في إحدى الحفلات، أعجبا ببعضهما من اللقاء الأوّل. لِيلْيَانَا كانت مديرة في شركة فرنسيّة، تملك بيتًا وسيّارةً، ودخلاً كبيرًا. بعد أسبوع من لقائهما صرّحا لبعضهما بالحبّ، وتمّ هذا عندما ابتعدت صديقتها للحظات عن الطاولة التي كانوا يجلسون حولها. كانت ليليانا تقابله بصحبة صديقتها، كي لا يشكُّ أبوها في أيّ شيء. كانت تذهب لبيت والدها كلّ يوم قبل العاشرة للعناية به، وتنام هناك. ولدت ليليانا وترعرعت في حمص من أمّ يوغسلافيّة وأب سوري، يملك معمل أجبان، وكان عنده ابنان من زواجه السابق. أحبّتْ ليليانا قَطَرِيًّا وهي في الثامنة عشرة وتزوّجا وأنجبت منه طفلاً، وبعد عدّة سنوات افترقا. تزوّجت مرّة أخرى ولكنّها هذه المرّة أيضًا انفصلت عنه. لم تنجب أطفالاً من الزواج الثاني. عادت ليليانا للزوج القطري، ووقع الطلاق مرّة أخرى. وخسرت الدعوة أمام المحكمة بالحقّ في رعاية ابنها الذي يسكن في الخارج وتراه مرّة في السنة. اقترح جون على ليليانا أن ترحل معه، لكنّها رفضت أن تترك أباها الذي لن يتردّد بحرمانها من الورثة، فيحصد الإخوة كامل الثروة. ثم عندها ابنها. قرّر الرجل الإسكتلندي أن يرحل إلى عمّان. جاءت ليليانا وصديقتها لتوديعه في المحطّة. لم تنزل من السيّارة، بل كانت تبكي من خلف نظّاراتها السوداء مُستسلمة لقدرها الذي لم يسمح لها أن تشدّ على يده مودّعة.

٣٢. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

تقدّم باتّجاهي أربعة عراقيّين يلبسون بناطيل الجينز والقمصان إلّا واحدًا منهم كان يرتدي الجلّابيّة.

ـ مرحبًا انتظر لحظة. ـ هكذا بدأ ذو الجلّابيّة الحديث.

ـ نعم. تفضلْ.

ـ هل يمكننا أن نلتقط صورة؟

ـ تفضّلوا. أين تريدون من جهة البحر أم الجبال؟

ـ لا. نحن نريد الصورة معكِ.

ـ ؟؟؟

ـ شكلك ظريف جدًّا. ممكن؟

اصطفّوا من الجانبين وذهب أحدهم والتقط الصورة ولمع الفلاش.

ـ شكرًا!

شددت على أيادي العراقيين الأربعة وافترقنا مُخالِفِين التقاليد.

٣٣. لقطة ذكوريّة عابرة للتقرّب وتجاوز الحدود

قال مارين إنّ مليحة ليست من النوع الذي يريد أن يجرّك فورًا إلى الفراش.

تمعَّنتُه.

شكله يوحي أنّه أقلّ من الخامسة والعشرين. نحيف ذو وجه

لطيف وعينين واسعتين وحاجبين رفيعين. وقد جعله بياض بشرته والنمش على وجهه متفرّدًا. كانت العيوب هي التي تحدّد أوصافه، فجلده يتهدّل على خدّيه، وقدماه الضخمتان تشوّهان تناسق ساقيه. كان يمشي مقوّس الظهر، وكأنّه يقول انظروا إليّ فلن أكون وسيمًا كما تتصوّرون. في تمرّده هذا كان يستفزّ النساء. كلّ واحدة تمنّت أن يصبح يانعًا لها.

ـ مليحة تعاملني بطيبة، قال وتابع أنّه يحسّ بالوحدة فليس لديّ معارف هنا.

ذهبنا إليه لشرب القهوة. كان في الصالون مقاعد ضخمة تحاكي في زخرفتها أسلوب الروكّو. أزهار بألوان فاقعة مطرّزة على خلفيّة خضراء. صور الوالدين على الحائط. السجّاد الطري يبعث الراحة في القدمين.

في السيّارة حدّثني أنّه ولد في العقبة وأنّه مع والده يتاجران بالعملات، وأنّه عمل مربح تمامًا، ومع ذلك يعيشان في حالة رعب.

ـ أتدري أنّي أريد أن أرحل من هنا وأعمل بشكل شرعي، خاصّة وأنّي درست في لبنان الاقتصاد وتخصّصت في القوانين المصرفيّة.

توقّفنا عند المسجد الرئيسي. من مطعم قريب خرجت بنتان سافرتان مثيرتان وسألتنا بالإنكليزيّة إذا كنّا نبحث عن الأنس.

ـ لا يمكنني أن أوافق على شيء كهذا. ـ قال مارين.

لفّنا الصمت ونحن نستمع لأغنية تجيء من جانب المطعم بصوت رجّالي يغنّي عن الحنين الذي يحرم المرء النوم. من خلال الصرخات خمّنت الراقصات. حاولت أن أتذكّر هاتين البنتين. لا أتذكّر هل هما جميلتان! لكنّ شعرهما فقط كان يلوح أمام عينيَّ. فهو نادرًا ما نراه في بلد الحجاب.

جلسنا على الدرج وظهرنا نحو المطعم. الأعمدة الرومانيّة المُضاءة سدّت الممرّ الرئيسي للسوق. القوس نصف الدائري الذي يحيط بمدخل المسجد يعترض النجمةَ المتعدّدة الأضلاع. كانت الدقّة في هذا العمل تتناقض مع قساوة الجدار. أحسستُ بذلك النوع من الإرهاق الذي يجعلني سعيدًا في السفر.

لم تصادفني كثيرًا مشاعر ضجر كهذه. لا شيء سوى حرقة في القدمين تؤلمني وجسد يقرف من نفسه من شدّة الحرارة. أحيانًا، بفضل قوس المدخل أو عيني أحد المارّة المبتسمتين يتجلّى الانسجام فجأة وهو يتسرّب في الجسد، فيتحوّل القيظ إلى نشوة تشعّ من القدمين والفقَرات القَطَنيّة حتى أصابع اليد التي تنفرج بلا حساب. لم يعد الانسجام ذلك الوجه البارد المخيف للكمال الذي حفرتُه بجهد في واقعي. أستطيع أن ألقاها وجهًا لوجه من خلال ضجري. في لحظات كهذه تلد الحساسيّة التي لا تفرّق بين الذكر والأنثى.

أجلس بساقين منفرجتين عند مدخل الجامع الكبير. شعرت أنّي أنقاد للنشوة كامرأة تعصرها من الداخل آثار مؤلمة وكما الرجل يبحث بنفاد صبر عن منفذ يقذف منه النشوة. وفي الوقت المناسب تمامًا أدركت أنّني لا أستطيع أن أعود للفندق ببنطال مُبقّع. أخرجتُ دفتر يوميّاتي.

تأثّرتُ كثيرًا بالرعاية التي أحاطني بها مارين من التجوّل ومشاهدة زوايا مخفيّة ساحرة من المدينة. نظرت إليه وخُيّل لي أنّ له تسريحة أخرى وفكّرت أنّ بنطالاً عريض الردنين سيمنحه شيئًا من الجاذبيّة. ومنذ البداية كنت أرى أنّ الصدر الصقيل أكثر جاذبيّة. أردتُ أن أذهب للحلّاق. فكّرت أن أقترح عليه أن نخرج سويّةً.

قال لي وهو يمدّ ذراعه: أترى؟ انظر هناك. هل يُعجبك؟ ـ وأشار إلى هلال القمر الهائل.

ـ رائع! وأشكركَ أنّكَ أخذتني هنا.

ـ لا! أنا الذي أشكركَ أنّكَ جئتَ معي. لا تتصوّر كم يعني لي هذا.

أحمق! لم يفهم شيئًا. نظرتُ ليده الممدودة، قبل لحظة. كان يحاول أن يثبتها بغاية الصعوبة. ترى الهدوء قد تجسّد والكلام الهادئ. عندما تصافحه تجد كفّه رخوة تُهصرها حين تشدّ عليها. كامرأةٍ أفضّل أن أعامله كزميلة أشاورها في تسريحتي الجديدة. ليكن يانعًا ولكن لشخص لآخر.

ـ أشعر بالبرد. هل توصلني للفندق؟ ـ لم يكن بإمكانه أن يفرض عليّ دور امرأة. ورغم خجلي شعرت بالاحتقار اتّجاه إنسان ما إن استيقظ فيه الجنس، حتى سمح له بالأفول، بل لم يشعر به.

ـ يمكنك أن تنام عندي لو شئت. عندنا غرفة للضيوف أنيقة فيها كلّ ما يحتاجه الضيف. أتريد؟

كنت مُغتاظًا للغاية. فالسعادة التي تملّكتني تبخّرت كما الفتنة الحلوة. أردت أن أركله في كاحله بشكل يؤلمه على أن لا يعرف أنّي من ركله. وانتقمتُ منه بأن فكّرتُ أنّ الفتيات اللواتي يرتمين في أحضانه، يُرعبنهُ، لأنّهنّ لا يسمحن له أن يدعوهنّ بنفسه. خروق. اكتشفتُ فجأة. إنّه عنّين عاجز جنسيًّا، فكان تساهله بكلّ بساطة رعبًا.

ـ أُفّ! ـ ارتحتُ. ولعبت كي يأخذني مارين للفندق. لا. شكرًا جزيلاً، كُلُّكَ ذوق ولطف ـ أجبت على اقتراحه بالنوم في بيته ـ لكنّي أفضّل العودة للفندق.

ـ كما تريد ـ قال دون أيّة محاولة لإثنائي.

كان في المقعد الخلفي جراب يشبه ذلك الذي أضعته في طريق عودتي من العقبة. فكّرتُ، حسنًا أنّه بقي هناك فليس هناك ما يربطني به! عندما كان يغيّر السرعات كان مارين يحرص ألّا يلمس فخذي. وأمام الفندق انتظر إلى أن فتح هارون الباب، وقبل أن يتحرّك لوّح بيد متراخية دون أن يعرف أنّي أراه.

كفى تمارين!

أنا مستعدّ لمعركة الشعراء.

بيتر انتبه...

لا توسّخ حذاء الأديداس!

تاليمج أو الجميلات المعاكسات

في طريقي إلى الفطور مررت بفندق «جميلة». الذكريات تلتصق بالأسماء، ولا تسمح بنسيان الفرص المفوّتة. هل فوّتُّ شيئًا؟ أبيع حكايا طازجة، حقيقيّة، مُجرَّبة. والرأي يرجع في النهاية للزبون. التجارة محرّك السوق.

قد يقول ميريك في يوميّاته:

رجعتُ للتوّ من العقبة لكنّي مللت من الإقامة في دمشق، وصارت دورة اللغة العربيّة في الجامعة لا تُحتَمَل، أمّا جميلة فقد صارت أثرًا بعد عين. لستُ مهتمًّا، سأذهب إلى حلب، وأبدأ كلّ شيء من جديد. يجب أن أجدّد تأشيرتي بعد عدّة أيّام. يومين أو ثلاثة على الأكثر، وربّما أغيّر نظرتي للعالم. أردتُ الذهاب للحمّام، كيف ذاك وقد شاهدت مرسيدس جميلة. كانت سيّارة الذين ذهبتْ جميلة معهم إلى الرحلة.

ـ أين أنتِ يا جميلة؟

كم كانت حانية عليّ، تشاركني العواطف وترعاني. وكلّما فكّرتُ بذلك تأكّدتُ أنّها كانت تعاملني كطفل. لا يمكنك يا عزيزي أنْ تهتمّ بنفسك لوحدك، فمن سيعتني بك غيري؟ تحبّ النساء القلق على رجالهنّ على أن يتمكّنوا من اتّخاذ القرار.

أنا تمكّنتُ! مبشِّرُ الذكوريّة المُغايرة.

كنتُ طوال الوقت أحنُّ. ووطّدت النفس على انتظار فتاتي الجميلة. المرّ يقطر من مقابض مزلاج الأبواب. لفحة ذكوريّة حادّة. فأحسست بموجات من العطور تعبق وكأنّها المُرّ والمسك، فاحت قويّةً بنكهة رجاليّة اختلطَ فيها الجوري بالقرنفل، وحلوةً كثمرة نضرة. لم أر أحدًا يفوح منه العطر بهذه الروعة. انتظر لحظة! سأحاول أن أتذكّر. فيما مضى من الأيّام كان أحدهم... لقد نسيت! كان أحمر الشفاه الجافّ يقترن في ذهني فيما مضى بالموضة السوقيّة للقرويّات، والآن يجسّد السحر النسائي، بل الصبايا منهنّ. إنّه المنفذ الذي ينفتح ويقود إلى عالم... بيتر الغامض... الآن فعلاً سيكون بيتر بان.

ابتسمتُ وأنا أتذكّر، كيف كانت تمشي كالإوزّة عندما تنتعل حذاء بكعب عالٍ.

ألهذا السبب نادرًا ما كنّا نخرج للمشاوير؟

لا، لا ليس هكذا!

الباب الجانبي مغلق. مقبض الباب الفضّي يرفض الانقياد.

تصوّرتُ كيف تنزل كلّ يوم وتضغط بحذر! انتبهي! كي لا تقصف أظافرها، فأنا أيضًا أستطيع أن أعتني بها، أليس كذلك؟ كان الباب

يحدث صريرًا خفيفًا، لكنّه ينفتح. بعدها يأتي وضع المفتاح في أداة التشغيل، ثم الضغط على الدوّاسة، ثم صندوق التروس، وأخيرًا يبدأ لمس الفخذين المتعسّف.

ـ أين أنت يا جميلة؟

أتصوّرها على المقعد الخلفي، أسندتْ رأسها على مسند رأس السائق، على مقبض الكابح. أتذكّر كيف كانت تتكلّم دون توقّف. أكان يسمعها؟ شيطان جهنّميّ! هكذا الشبّان. يتظاهرون أنّهم لا ينظرون في المرآة إلى الصدر... وإلى... حتى مع صاحباتهم. وظيفة السوق.

ـ عفوًا سيّدي...

قرد خلف المقود دَعَكَ المقعد! كان من الممكن أن تصطدم السيّارة في مكان ما. لن أسمح لها مرّة ثانية. على المرأة أن تلتزم البيت.

عفوًا، هيه...

هيّا افتح!

ـ همممم... بالعكس أنا من يجب أن يعتذر ـ مقبض الباب اللعين هذا... ـ نعم... أظنّني أخطأتُ السيّارة. لا... لا حاجة للشرطة. سأذهب. ـ أم تراني أبحث عن شعرة واحدة وأحمر شفاه ليس إلّا.

كان الصيف متعبًا والبثور تقيّحت كما يحدث في سنّ المراهقة. الناس ينظرون إليّ في الشارع. إنّه صاحب السموّ، الأمير الأبيض، ماذا؟ لم يرَ سيّارة مرسيدس؟ إنّها حكاية خرافيّة حقًّا.

لا! أتذكّر حقًّا أنّ سيّارتهم كانت تقف هناك، وأنّي فكّرت بأخبار تنتظرني في الفندق تقول: «عدتُ. اتّصلْ ببيت الطلبة. جميلة».

ماذا ستقول عندما سنتحدّث لأوّل مرّة؟ اشتقت إليك كثيرًا؟ كان قلبي يعتصر ألمًا بدونك.

مقبض صندوق السرعة والفخذ...

لا تتجهّم هكذا، أنت تعرف أنّي فتاة شرقيّة، ثم إنّي اتّصلت بفندقكَ، وقلت لهم متى أعود، ولم يخبروك. بُلَهَاء! أرجوك لا تزعل منّي. اسمع في المرّة القادمة سنذهب سويّة، أليس هذا جميلاً؟ آخ... خروجنا السابق كان رائعًا، وأعجبني كثيرًا. الجوّ رائع والناس لطاف والحفلات ساحرة كأنّها الطبيعة. وأنت كيف حالك؟ من الضروري أن نلتقي مرّة أخرى، حتى لو كان غدًا. آمل أنّك كنتَ تأكل كما يجب أثناء غيابي. هيّا... تعال إليّ يا مسكين. واضح أنّك لم تجد من يهتمّ بك وبما تفعل. أغبياء أنّهم لم يخبروك، وهذا ليس مستغربًا لأنّهم رجال. رؤوس فارغة. الآن أظنّ أنّك بحالة جيّدة... أليس كذلك؟

وهو كذلك.

كان عاملو الفندق يحبّون لعبة الغمّيضة. كانوا ينظرون من أسفل أعينهم، وينتظرون حتى تظهر على تعابير الوجه خيبة ذلك الأبيض. وأسأل بهدوء ودون مبالاة:

ـ هل اتّصل أحد؟ هل من رسائل لي؟ ـ فيأتي الردّ بشكل تحريضي:

ـ ماذا؟ أتنتظر خبرًا من فتاة؟

ـ لا . . . ولكن لماذا؟ ـ بحياء.

ـ ومن تكون بالنسبة لكَ؟ شقيقة أليس كذلك؟ ها . . . ها . . . ها! ـ بسخرية ووقاحة.

أهلاً بكَ بولندا. تعود لوحدكَ مرّة أخرى؟

ـ وتابع بلهجة انتّصار:

وأخيرًا وجدت لكَ فتاة. فتياتنا لسن سيّئات، أليس كذلك؟ نعم. اتّصلت. . . ها . . . ها . . . ها! اشتقتَ إليها؟ قل الحقيقة!. . . دقيقة. . . دقيقة. . . متى؟ وهكذا قد أنجح في معرفة من اتّصل ومتى كان من المفروض أن يتّصل؟ ـ هالة من الشكوك كانت تحوم على الاستعلامات. كنت أنجح أحيانًا في أن أربح، حين أرى مُنعطفًا، وأخدع ضوء المدينة الشرقيّة.

فليسمحْ صاحب السموّ، الأمير الأبيض، وليقلْ كم عدد النساء اللواتي يقدرن على الاتّصال بالفندق؟

تخلّيتُ عن المرسيدس.

قد يقول ميريك في يوميّاته:

آكل العشاء لوحدي. لديّ متّسع من الوقت لأراجع كلّ شيء. كانت علاقتي بمليحة مشوبة منذ البداية بشيء من الغموض. ظاهريًّا لا شيء يدعو للتذمّر، ولكن هناك ما يدعو للتذمّر فأنا لا أعرف هل لا تزال تعجبني حقًّا. وأنا هنا لا أتكلّم على بطنها الكبير فقط. كان فيها شيء من الابتذال لا يمكنك الإمساك بخيوطه. وقد انعدم فيها الغموض، ولا أثر للاهتياج الشرقي للعواطف.

خطر ببالي أنّ مليحة تعاملني بلامبالاة. . .

نعم؟ باختصار هي «حرمة» باردة متعجرفة، بقي لها أن تدخل الكاثوليكيّة، بعدها إلى الدير فورًا.

لكنّ الخنوثة تلتصق وتحفر كخنفساء سَكْرى. ظاهريًا تمّ كلّ شيء بشكل طبيعي. بفضلها تعرّفتُ على أناس كثيرين، وتعلّمتُ الكثير. كنتُ أستطيب ذلك، ومن الغريب أنّي لم ألاحظ أيّ شيء.

عفوًا! لقد ضعتُ. لا بدّ أنّه الغرور الذي يطالبك أن تهيم به، وترفض بكلّ بساطة أن تفعل ذلك فتاة عاديّة لا تعرف اللفّ والدوران. عندما رأيت المرسيدس تداعت الأفكار تلقائيًا. عادت جميلة... والسرعة المخاتلة. ستعود المكالمات الهاتفيّة اليوميّة، والدعوات في أوقات غير مناسبة، والأنكى من ذلك فإنّ أكلي لا يزال قليلاً. كنتُ نحيفًا، وأفقد أعصابي إذ علّق أحد على الشامبو الذي أستعمله.

وقبل أن أنزل من السيّارة تمامًا، أصبحت الثقة باللقاء تأمرني بالنفور منها، فبدأت أفكّر كيف أتجنّبه. لحسن الحظّ سأسافر إلى حلب. واليوم الطقس جميل، وليس من سبب يدعوني للإسراع إلى الفندق. الرسالة في الفندق لن تطير. هل هي مثل الخمر، كلّما عتق أصبح أكثر لذّة!؟

إلى الوراء سرْ. إلى الأمام، نحو السوق، سرْ.

الضجّة والازدحام عنصران ملازمان للأسواق الشرقيّة. في الأسواق القديمة تجد الحوانيت مُكدّسة. والدكاكين رغم التقدّم والمدنيّة لا تزال تحتفظ بواجهاتها الشرقيّة، والبسطات القائمة على أعواد تتعلّم منها كبرياءَ الصمود. أمّا العربات المُقعقعة فتجد لها مكانًا في أيّ شقّ لتبيع فيه. وتبقى البوتيكات الراقية عابسة، تحسد القِدم بمسحة من الفخامة، لتغطّي قِصَر حياتها.

تفضّل يا صديقي وشاهد، فهذا لا يكلّف شيئًا. ماذا تريد؟ ـ وهكذا في الممرّات المُظلّلة يصبح العالم أكثر إغراء.

الناس يشعرون بلذّة المقايضة هنا. ويحدث أنّ شخصًا عجوزًا يدلّي بورقة بالمشتريات ويضع نقودًا في سلّة، سيجد دائمًا صبيًّا كشّافًا عن الإغواء، فضوليًّا يشتري له ما يحتاج، ويوصلها له.

الرّخص عندي فقط! غالٍ؟ دقيقة! تعال وانظر، كم صناعتها جميلة. أعجبتك؟ عندي فكرة! اقترح عليّ سعرًا! هيّا لا تخف! كم تدفع؟

ـ أنتَ يا مستر! يا مستر! وَتْسْ يور نيم؟ ـ ناداني صوت.

مُمَوِّنو السوق يراقبون كلّ شيء. سيّاراتهم تتحرّك بمرونة وتعكّر صفوَ الملاطفات، وتُجبر على الاستماع إليها. وعادةً ما تقف هذه السيّارات ساعات دون إيقاف محرّك المازوت الرخيص جدًّا هنا، كما يمكنها أن تُقلع في أيّ لحظة. كانت الحمير أكثر تساهلاً. لا عفوًا، ألا تعرفون؟ الجِمال وسيلة نقل للمسافات البعيدة. كانوا يُنزلونها على أطراف المدن، في خانات، ويُفرغون حمولتها وينقلون البضاعة إلى المدينة على ظهر الحمير.

هيّا تحرّك يا أخي. هيّا فورًا.

ازدحام... وأماكن ضيّقة... وأبواق السيّارات تزعق بلا حدود... والمُشاة يضربون السيّارات بأيديهم عندما تسدّ طريقهم.

ـ بيييب... بييب!

ينقسم السوق إلى مربّعات، تُباع فيها الموادّ الغذائيّة والأقمشة والأدوات المنزليّة والموادّ التزيينيّة. فالعطور والألبسة في مكان،

ومستلزمات العبادة والأدوات الصناعيّة في مكان آخر. البوّابات المزخرفة تغري في الأزقّة، وبفضلها يعرفون أين الحمّامات، حيث يزيلون الأوساخ العالقة بهم من السوق، وأين الجوامع، حيث يمكن أن يجتمع المرء نظيفًا ويقيم صلاة الجماعة للخالق. وفي الماضي، كان من يبني الحانوت، يبني خلفه بيت الله أو بيتًا... لـ... كما قلنا لمن هذا الحمّام؟ عفوًا سنتحدّث عن ذلك فيما بعد.

بنوا الحمّامات.

قهوة ساخنة... قهوة ساخنة! شاي... قهوة! ـ أصوات أشخاص يحملون مبرّدات للمشروبات بنقوش مختلفة، لجذب الزبائن.

البضائع مصفوفة بشكل رائع، تغري كلّ واحد بشكل آخر. فتسمع صوتها، تلمع، تفوح رائحتها، تنتفش وتحتكّ فيما بينها، بل أحيانًا ترمي بنفسها على عنقك. في البيوت تختفي وبدون حياء يتيمةً، تشبه الآلفات (elf) التي ترقص فرحًا في الحفلة عند الملكة. هل تتذكّرون؟ فقد كنتم أنتم أيضًا أطفالاً، قبل أن تصبحوا طيورًا، وكنتم تصادقتم مع الآلفات. قل هكذا كان يفكّر بيتر بان على الأقلّ.

ـ تفضّل، أنظر! هل أعجبتك؟ ملساء... طريّة... بضّة... فاتنة. المسْها... لا تخف يا شابّ! سأُلبّي كلّ طلباتك!

المسك: لفحة ذكوريّة، وأزهار القرنفل مع الجوري حلوة. يا شابّ!

عفوًا هل أنا هنا أبحث عن جميلتي؟

ـ يا مستر! يا مستر! وَتْسْ يور نيم؟

السوق مليء بالنساء، والأكفّ المصبوغة بالحنّاء تظهر بكلّ طيبة

خاطر من خلف العباءة. أحد المارّة ينصعق وهو يرى كيف تقيس إحداهنّ بيديها كيلوت ـ سترينغ. الحرارة شديدة حتى في الظلّ. وفي منظر المرأة وهي تجرّب الأقراط من خلف الحجاب قوّة سحريّة تشدّك نحو دكّان المجوهرات.

يجب أن تتسترّ، ويغُلق عليها في البيت وكفى!

ـ هممم... وفاحت من الحلواني رائحة زيت ياسميني مع الفانيلّا، لا يصدر إلّا من سيّدة في غاية الأناقة.

السعادة هي أن تصنع السعادةَ للآخرين.

السوق مفتوح من الصباح وحتى المساء، بل وحتى بعد ذلك. على أيّة حال، عندما كنتُ أسير في السوق كان البائعون يدعونني لشرب المتّي، ونتبادل أطراف الحديث... والابتسامات... والفضول... والدخان المُعطّر... وقطعة بقلاوة للحلواني السريع البديهة منذ قرون. خلف الدكّان يجتمع المعارف، يجلسون ويستمعون للموسيقى ويدخّنون. الرجال يمتهنون التجارةَ والمطاعمَ. ولا أحدَ يمشي وحيدًا.

ـ قل عمّا تبحث أيّها الصديق!

كم مرّة سأكرّر: لا أبحث عن شيء. حتمًا ليس لديكم...

لكنّ عنادهم يجعلني أفقد أيّة رغبة في الشراء. فإذا فشل أحدهم يطلب من زميله أن ينتبه للمحلّ ويقودني لجاره. مشوار لطيف. وكما كان يردّد المعلّم حتى لو لم تجد ما تشتريه: «بكلّ بساطة سيذهب معك ويدلّك».

في المحلّات المعدومة الحسّ التابعة للدولة الاشتراكيّة. الأسواق

الكبيرة الفارغة على الكورنيشات المشبعة بالحرارة، وكذلك ساحة أعمال البناء التي لا نهاية لها بلا ظلّ أمام المدخل. تحت ضوء النيونات بائعات سافرات متجعّدات الوجه ومن «الدقّة القديمة». عرض للبضائع رتيب في أماكن معقّمة ومكيّفة. بلا مشاوير وبلا توضيحات. بررر برد كالبرد في المناطق القطبيّة.

ـ تفضّل شُمّ! عنبر أشدّ بياضًا من الثلج، والخزامى في قارورة من الزبرجد الزيتوني منقوش بالذهب يدويًا. عطور الجنّة عندي.

ـ يا مستر! يا مستر وتس يور نيم؟

البائع في حانوت لبيع الطيوب يصلّي على سجّادة.

خمس مرّات في اليوم. وفي أوقاتٍ محدّدة، يدعو المؤذّنون للصلاة عبر الميكروفونات. هناك قانون محدّد للأذان: عندما يصل أحدهم إلى كلمة «أكبر» ينطق الآخر كلمة «الله» والثالث «رسول». أذان بعد الظهر النّفّاذ يمنح لحنًا رتيبًا لذبذبات الهواء الساخن. إنّها مانترا رجّاليّة خشنة...

كفى! هذا يكفي الآن. عن تعدّد الأصوات سنتحدّث فيما بعد، فالزبائن ينتظرون صابرين إلى أن ينتهي البائع من صلاته.

فجأة: لفحتني رائحة عطرة حلوة فاتنة. تمور ممتلئة. طيوب مشبعة طويلاً بالمسك. ولفحة رجّاليّة حادّة بالقرنفل والورد الجوري وزيوت الصندل الأبيض كزنبقة الوادي. أتلفّتُ، أتربّص... أثب!

ـ أين أنت ياجميلة؟

أشتَمُّ: حشد من الناس. ضبابٌ من الطيوب المثيرة الصاعقة. أبحث. أجد. أكياس من المساحيق الملوّنة. وفي الطريق أكوام من

برتقال البرغمون واليانسون والقرنفل وورد الجوري. العبير بألوانه يستفزّ القماش، كأنّهم لم يجدوا مكانًا آخر يذهبون إليه! شارع ضيّق. لحسن الحظّ ممنوع سير السيّارات فيه.

وهناك أوقاف على تعديل الطرق ورصفها، لأنّ أزقّة دمشق لكلّ واحد منها رصيفانِ في جنبيه، يمرّ عليهما المترجّلون ويمرّ الركبان بين ذلك... إلى الأمام.

أشتَمُّ: انقطعَ الأثر القصير، لا، لا! أتدافع. جسم دَبِق يميل إلى البدانة. على الطريق عنبر وأعشاب مُرّة. صراخ. انتبه! لا أتلفّتُ. إلى أين «تطحش»؟ إلى ممرّ ضيّق يمينًا... إلى... مشكاة باردة منتفخة أمامًا. إلى الخلف ممرّ هابط، مُظلم نتِنٌ كحمّام فقد رونقه، أو بغيّ عفا عليها الزمن، يُرينا حزمة من ضوء مليئة بغبار ساخن تنفذ من ثقوب أشرطة من الضوء في نوافذ أسطوانيّة العقد تضيء كالقمر.

ـ يا مستر! يا مستر! وتس يور نيم؟

في المنعطف زغب رطِب لعفونة مُخضرّة. مددتُ يدي، فتبلّلتُ، تبوّلتُ؟!. فتّى ينضج! في الطريق عَقْد على نمط حدوة الحصان العربي، أبيض عليه سواد، عليه عفن. وأنفي على زجاج واجهة المحلّ أنزلُ، أُفلتُ: صنادل... وأحذية عربيّة عالية... وأحذية موكاسين. جلود طريّة تفوح رِقّةً، يصدر منها قضيض رقيق عوملت بلا أيّة مشاعر. حذاء أديداس أبيض بلا أثر لدم متبلور. تهْتُ! بقي رباط حذاءٍ شبابيّ... أنشوطة... موسيقى جنائزيّة...! أنف لمّاع. حذاء مُشمّع يلمع كصلعة كبيرة. تعال! عندي لكَ حذاء! يبتسم الإسكافي، ويضرب بمطرقته، ألديك رغبة؟ صورة جانبيّة. الحديد البارد للسندان. ينزلق الجثمان بغنج، ليس لديّ رغبة. صديقي صار أنفًا يحشر نفسه فيما لا يعنيه.

ـ يا مستر! يا مستر! ووتس يور نيم؟

بقعة ماء، ورائحة بنزين قويّة. على الرصيف بقعة زيتيّة تمتدّ مهتزّةً بألوان الطيف أمام مقهى. رأسي يدور. أعرِجُ يا بُني؟ سقطتُ، وأنتَ ما بكَ؟! تناثر الزجاج. قهوة مع حبّ الهال. حموضة وبرودة في أسناني التي إذا غطست في حبّة قهوة غير مطحونة، يندلق السواد وألوان الطيف المختفية فتتألّم بمرارة كشهوة موؤودة فيها حرقة. منشّط جنسي يختلط بالفلفل والقرنفل وأعشاب القرنفل ينتشر في سماء الحلق. آه! لم أكن لأحتاج إليها لو قابلتها. النادل يهدّد، والزبون والقبضة، يا قرد! بوز كهذا يمكن رسمه على باب الحمّام العامّ! حناجر أبواق! حين أستيقظ.

ـ يا مستر! يا مستر! وتس يور نيم؟

اصطدمت بطاولة أحد الزبائن فاختلط الدم بالبنزين فصنع كافّة ألوان الطيف، ووقع فنجان قهوة الزّبون فتحطّم فعوّضوه بقهوة جديدة وسكاكر كحلوانيّة.

سال الدم الملوّث بصديد ألوان الطيف. فليسِلْ. أضعتُ الجَلبَة والسباق والضيف ـ الكأس والقهوة التي أخذ معها قطعة من الحلوى كحلوانيّة. لديّ جلبة وفواكه: على البسطة تمور رائعة تنزّ سكّرًا كما كانت هي تنزّ. أتذكّر أثرًا صغيرًا تحت إبطها، في المطعم كان يغوي بحلاوة لاذعة. الآن لم يبقَ إلّا النشوة من شجرة متغضّنة بالنضج تُبرِز باستحياء معالمَها تحت أشعّة الشمس. البلاستيك يوسِّد للحلاوة المُحجَّبة بورق المقوّى. هي جسد بضٌّ مستور بالسَّمَار. على الأقلّ لم تكن الخصلات رفيعة. لا! كانت تلتفّ كجبنة مُشلّلة في وعاء فيه ماء بارد، في الثلّاجة في المطبخ، من اختصاصات المطبخ اللبناني.

ويصعُب فكّها، كالديالكتيك، وكأيّ شيء يزعجنا، نتمدّد بهدوء وأيادينا على صدور الحسناوات، ونحن ننظر إلى الغيوم البيضاء الكثّة، في الوقت الذي تكون فيه السماء زرقاء صافية.

ـ يا مستر! يا مستير! وتس يور نيم؟

أسير مترنّحًا في الأزقّة، ورأسي بين كتفيّ. ثور أم مصارع ثيران؟ على الطريق برميل صغير، خصلات الجبنة مغرية. حوافر الحيوان، نمتِ القرون. وووببب! هناك ألم. كان من الأفضل الوقوف باستقامة. البائع يهرع والنرجيلة والطاولة وهم يصرخون، بلهاء! تتطاير زيتونات لذيذة على أحجار الشارع. النرجيلة الاسترخائيّة في وقت يستردّ المرء فيه أنفاسه بالدخان المعطّر في حالة استرخاء على الوسائد، يا بشر! كم هو مكان رائع للاستراحة، فلماذا تقطّب وجهك؟ أخاديد، وملح على القميص، أوه! أحزن له. الثلّاجات تبرّد. التدفئة في كلّ مكان. ولكنّ المسكين هذا لا بدّ أن يفشّ خلقهُ. أمسكُ الجديلة، آه! لماذا لم أُرِد منشفة بعد الدوش؟ فَلْفِلْ لوحدك يا بيّاع البسطة! ألعمى يضربه! يفهم الإنكيزيّة.

ـ يا مستر! يا مستر! وتس يور نيم؟

في حشد من الناس، على الحوافر الأربعة، الثور أم مصارع الثيران؟ رائحة، غبار بلا ضوء القمر يُسحنُ بين الأسنان. الأطفال يلعبون الغمّيضة ويحجبون الثور. أمٌّ تنظر. من تحت حجابها نزلت خصلة من شعرها على أنفها. هي أيضًا تحسّ بالعرق. مُلُوحَة مدوّخة ومغنوليا دبقة. شوق يشدّ أطفالاً يلهون ويمرحون ولا يفهمون الأمّ. يواجهونني بتعابير وُجُوههم، والأمّ تواجههم بتعابير وجهها، وأنا أفعل ذلك نحو الأمّ. واحد منهم استسلم. لا أحد يراني من فوق. مصارع

ثيران؟ لا تنتفشْ! أحسن. رائحتها العطرة ليست لي.

ـ يا مستر! يا مستر! وتس يور نيم؟

العِجْيَانُ ولفحة من المرارة. عرق وأحماض مغنوليّة، نظرة الأمّ وهي خلفي. خسارة لأنّ أنفها جميل وشعرها... انقلعْ! دمية محشوّة ومنفوخة معلّقة على الطريق. بسطة للدمى. أكتاف لِبانيّة مشدودة بالبودرة الصقيلة، كم أكره البودرة. رائحة لا يمكن القضاء عليها بالفريز الاصطناعي، انقلع! حلوى على طاولات الأكل في البازار. وأخيرًا يمكنني أن أتنفّس الصعداء: حمّص باللبن ـ شوربة يحبّها الجميع. رائحة القشدة تسيطر مع الكمّون، كلّ هذا ينبض بالهدوء. إذا قدّمتها باردة تفوح رائحتها، تئزُّ بالزيت الساخن، ففي التناقض قوّة لطيفة والتضادّ وحّد.

ـ يا مستر! يا مستر! وتس يور نيم؟

إهدأ يا شويعر! الوضع يدعو إلى الإغماء! على الفطور سجق مع بصلة، طوال الليل قدر ضخم على الغاز، أووو أووو! في مطعم أعلكُ خضرة النعناع المرّة المنعشة. ثور أو مصارع ثيران؟ حان وقت تنفّس الصعداء. رأسي يدور مع فكّي كأنّني فوق بساط أبكاري...

نعم!

المرُّ ينقط على المزلاج. طيوبي المغرية: التمر الريّان والمسك، تفووو! أعشاب! ثور أم مصارع ثيران؟ كَوْلَبَة لتغيير الثياب، هل القرمز يفوح شهوة؟ مشكاة إلى الأمام، منتفخة من الأمام... عفوًا تقف أمامي.. أرتفع على مهلي على يدي، ورأسي المسكين. ولا تجدني مسرعًا أليس كذلك؟ البلوزة تضغط والياقة واسعة. صدر. مرّة أخرى أعتذر، إنّه واضح رائع! ولكنّي أسأل هل عرفت شفتاي الجسد الذي

جالتا فيه. أنف وعينان، عندي. . . أحقًّا أعرفُ؟

ـ ادخُلْ. ـ دفء لطيف. درجة. عتبة. . . أيّها الفتى ملعون! أضعتُ أثره. عاملة الحمّام تدعو للحمّام بابتسامة. علينا القول هنا إنّ كلمة الحِمام تعني الموت.

قد يقول ميريك في يوميّاته:

زقاق مسدود ينعطف نحو اليمين ويحجب ممرّات السوق. من أمام الحُنيّات الفارغة تأتي رائحة بيض نتنة. هدأت الجلبة. باب الحمّام المزيّن يذكّر بمداخل المعابد. إلى الأعلى يلوح النقش يذكّرني بالسلسلة الورقيّة التي كنتُ أعلّقها على شجرة عيد الميلاد مع أمّي في ليلة العيد. كنتُ ألصق نهايات أشرطة من الورق الملوّن وأثنيها، لأصنع منها شكلاً أكورديونيًّا، ثم نعلّق كرات زجاجيّة تلمع تحت الضوء. وكالعادة كان الخلاف يدور حول سمك الشبّوط المقلي، ولم نحسم يومًا من يحبّه، من باب العمل الخيري، وكنّا نمضغه مبتسمين ونبصقه أوي. . . أوي! عفوًا الحَسَك، أعمال خيريّة تربُتُ على الظهر باسم المأكولات الشهيّة، ومع ذلك لم يهنِ الأمر أبدًا. لا، لسمك الشبّوط.

لا شيء البتّة، لكنّنا الآن نحتاج لسلسلة. بائع الحكايات يمارس المهنة بمهارة. عندما كانت شجرة عيد الميلاد جاهزة، كانت أمّي تحضنني وتقودني إلى المائدة. جاء وقت توزيع الهدايا، في الوقت الذي هبط النقش في الحمّام الدمشقي على فتحة الباب وعند العقد بوز قرد مقرف. وفي أعلى قوس البوّابة غُرز رأس قرد مقرف.

ـ كششش. . . كشش!

كان القرد يطرد الشياطين التي تهمهم متراكمة في الحُنيّات. في

كلّ لحظة كان أحد الشياطين يحطّ هناك، ويهرع نحوي صارخًا، كششش... كشش! يعود مسرعًا على أجساد جيرانه.

أنت يا صاحبي إلى أين؟ ـ سألت المرأة الحمّاميّة ذات الوجه الأحمر كالشوندرة وهي تتشبّث بباب مفتوح لنصفه. لم يبدُ عليها أنّها تريد أن تدعوني للحمّام.

قد تجد بين هؤلاء الشياطين، قبضاي. طريقة الشيطان كانت بسيطة. يتخبّأُ خلف إنسان! للشيطان، للحمّام. القبضاي يحتال على القرد، بعدها فتّش عن الريح في الغابات.

للحمّام يا سيّدتي... ـ أجبت متردّدًا، وأنا نادم لأنّي لست جنّيًا.

ـ مهلاً.. مهلاً! ليس بهذه السرعة! ـ الباب الذي يوصل إلى عالم الشرق رفض أن ينفتح. ـ يا صغيري الحمّام في مثل هذه الأوقات محجوز للنساء. يمكن للأولاد أن يدخلوا قبل سنّ البلوغ. شكلك مشكوك فيه. يجب أن أتحقّق منك. قلْ لي هل حدث واستيقظت من نومك وفراشكَ مبلّل؟

قد يقول ميريك في يوميّاته:

عفتُ مَدْرَسة اللغة العربيّة في الجامعة. أقول مدرسة، وهذه التسمية تنطبق عليها تمامًا. الدروس مستمرّة منذ الصباح وحتى بعد الظهر. ومن يوم الأحد وحتى الخميس. المعلّمة تجري الاختبارات، وتتفقّد الحضور وتسأل كيفما اتّفق. وطبعًا تكلّفنا بوظائف بيتيّة. وقالت إنّها ستتحقّق من الدفاتر مرّة كلّ شهر. مرّة أخرى أجلس في مقعد ضيّق جدًّا. في الاستراحات نخرج إلى ملعب محاط بسور. أثناء الاختبار بالأمس، نقلتُ من مسلمة متديّنة تحفظ القرآن عن ظهر قلب، لكنّها تشتري الحليب في الدكّان باللهجة. لحسن الحظّ لا يوجد دفتر

للملاحظات، ولن يسأل والدي عن درجاتي. معنا في الصفّ عدّة زوجاتٍ لدبلوماسيين. وبعضهنّ من زواجات مختلطة، والبعض من مسلمين غير عرب. ومعنا كذلك فتى في الثانية عشرة من عمره والداه سوريّان يعيشان في كندا. أحيانًا نركب الحافلة معًا، فيحدّثني عن مدرسته الكنديّة والألعاب مع زملائه. يسكن مع خالته، ويشعر بالوحدة في بلده الأجنبي. أغلبيّة الصفّ الأوّل في المدرسة يتكلم بالروسيّة والتركيّة والإيطاليّة. أمّا في الصفوف العليا فيتكلّمون العربيّة بشكل أو بآخر. تعلّمت الكثير خلال أسبوع. ولكنّي أُجيد الكلام عن المنتجات الغذائيّة التي تدرّبتُ عليها في المطاعم والدكاكين. يعاملني الناس معاملة طفل يحتاج للمساعدة في الدروس. هنا كلّ شخص يدلّل بالأطفال، وبرحابة صدر. للبلوغ كثيرٌ من القيود. لا بدّ من وقت للطيش.

ـ لا يا سيّدتي ـ أجبتُ لعاملة الحمّام ـ لا أستيقظ في الليل في فراش مبلول.

أنا أبوّل في فراشي؟ هراء! لا أبدو كرضيع. هذه الحُرمة تريد أن تعرف هل أنا متلوّث... ها... ها! لن تنجحي في ذلك. ـ لقد كبرتُ، وأعرف إلى أين أذهب عندما تتملّكني الرغبة... ـ ألذّ مكان هو حوض البانيوِ. ششششش شششششششش ويتنظّف كلّ شيء بلا أيّ أثر. شششششش ششششش كي لا يترسّب شيء في أنبوب التصريف. بعدها أنام هانئًا. خررررر بششششش خررررر بششش... كانت غمغمات السوق تشبه صوت الماء في نهير بلدتي التي ولدتُ فيها. بعد المدرسة عندما يكون الطقس جميلاً كنّا نجري سباقًا بالعصيّ. على مبدأ أيّ عصا ستسبح نحو الجسر القديم أوّلاً. يوزّع الفائز واجباته المدرسيّة على الآخرين، ويقضي بعد الظهر في البانيو.

ششششش شششششش! وعندما يعود والداه من العمل يأتي ليجمع الواجبات سعيدًا.

(جانبًا) كانت عصياني تَعْلق بين بالأعشاب المائيّة. للأسف هذه هي الحقيقة.

ـ تفضّل ـ وانزاحت الحماميّة للمخصي في لوحة جيروم. خرج ومعه رسّامه. ـ تفضّلا. وأهلاً بكما دائمًا.

قد يقول ميريك في يوميّاته:

ذهبتُ في السوق إلى مربّع المكتبات. في دكّان صغيرة، تَكادُ لا تُرى، عثرتُ على ألبوم طُبع في لبنان لمصوّرين اهتمّوا بالشرق من القرن التاسع عشر. ابتسم البائع ابتسامة ذات مغزى، وكأنّه يُخرج مجلّة جنسيّة. أومأ إليّ مشيرًا إلى مكان في داخل الدكّان بعد أن أغلق الباب. ديلاكروا Delacroix، إنغريس Ingres، جيروم Gerome، بوشارد Buchard، بريغدمان Brigdman. أعجبتني لوحة «سالومي» للفنّان فيغجيفالسكي Wygrzywalski. كانت الحمّامات موضوع الألبوم ومحوره. بهرني مخطّط بيت النار المتّسم بالدقّة منذ آلاف السنين. كانت فيه مقاطع أدبيّة. وبين المقاطع العربيّة التي تسمّى رسائل الحمّامات، عثرتُ على فلوبير ولوتي. في المجموع أكثر من ثلاثمائة صفحة من الورق الصقيل. نوعيّة لبنانيّة من العواطف الاستشراقيّة. تغلب على الألبوم لوحات جيروم، بل وتوجد صورة شخصيّة: شعر مصقول بعناية وشارب خشن، في مرسمه الباريسي مع الموديلات. على غلاف الألبوم مخصيّ بعمامة بيضاء يلمع كدمية سوقيّة. يحرس بوّابة الحمّام المغلقة. وتصطدم الأحلام على رزّة باب خشبي.

الآن أعرف! قرّر الفنّان خلال رحلته إلى مصر أن يعود ويصبح صبيًّا ولن يكبر بعد اليوم أهلاً بك!! وعلى الرحب والسعة متى تشاء.

كان الفنّان كبيرًا في السنّ مثل بيتر بان. لم يتمكّن للأسف أن يحتفظ بأكثر من سبع سنوات من العمر. وبشيء من الخجل، وبلا رغبة، احتفل بضع عشرات المرّات بعيد ميلاده. كانت العقوبة مؤلمة، فالفنّان لم يستطع الطيران.

ـ حسنًا يا صغيري ـ سمحتْ لي الحمّاميّة بالدخول ـ أنت لم تبلغْ بعد.

بيتران التقيا أمام الحمّام. انْتَظِرَا! الآن سأذهب لأستحمّ! على أيّة حال لن يفيده الحمّام بشيء. كنتُ مأخوذًا وأنا أتفرّج على كلّ شيء، رأيت بعيني وأعرف كيف هو يرسم وكيف أنا أصف الأشياء ـ تفضّل غدًا. ـ قال المخصي مشجّعًا.

لم يُعرِه الفنّانُ أيّ انتباه.

ـ رائع ـ تمتم ـ رائعة، إنّها حديقة بيتر بان، حيث لا تجد شيئًا نافعًا. على عكس ما عندنا ـ وخرج دون أيّ اعتراض. هناك فارق كبير واحد بين الناس والآلفات. ألآلفات لا يقومون بشيء مفيد أبدًا. أحيانًا يُخرجون الأطفال من الحديقة.

ـ تفضّل ـ وأشارت الحمّاميّة إلى الممرّ.

لحظة من السهو، وقفز ثلاثة «فركوها من المدرسة». صعد المتبصبصون إلى السطح بخفّة. أشرطة من الضوء في نوافذ أسطوانيّة العقد تضيء كالقمر، وفضولي أو بالأحرى واحد... اثنان... ثلاثة...

ـ أظنّ أنّ أمّك ـ تابعت الحمّاميّة ـ دخلت قبل قليل. طِرْ إلحق بها في الممرّ.

طِرْ؟ يا للروعة! إنّي أطير!

حلاوة التمر والمسك والقرنفل مع الجوري وزنبقة الوادي والصندل. دعوني أتذكّر، مرّةً أحدهم... أعرف من! الآن عرفت أنّها الكولونيا eternity التي كانت تستعملها أمّي.

ـ ماما لا تتركيني لوحدي.

ـ تعال إليّ يا حبيبي، يا بيتري... انتهى كلّ شيء الآن، فلا تخف. رجوتكَ أن لا تركض كثيرًا كي لا تعرق. أنت نحيف أكثر من اللازم بالنسبة لفتى في عمرك. عليك أن تأكل كثيرًا. كن مؤدّبًا سأقصّ عليك حكاية.

ـ نعم أرتاح عندما تمسح عليّ.

ـ سأكون مؤدبًا أعدكِ! أعشق اللحظة التي تقصّين عليّ الحكايات.

ـ كما جاء في الكتب ـ سمعتُ أوّل الهاربين من المدرسة على السطح. تذكّرت كيف علّمتني الألفات قراءة أفكار الآخرين وسماع ما يقولون من خلف الجدران ـ ضائع هو الرجل الذي يسمع المرأة.

ـ كان يا ما كان... عندما خلق الله العالم، أمر الناس ببناء المعابد، ليسكن فيها وكذلك للصلاة. على هذا الشكل شُيّدت أجمل العمارات على الأرض. وعندما علم الشيطان بذلك حسد الله، فذهب إليه قائلاً بصوت رقيق كعادته عندما يحتاج شيئًا: أيّها الربّ الصالح، لقد خلقت للبشر عالمًا رائعًا، واحتفظت لنفسك بأماكن فيه، ولكن

ماذا عنّي؟ إنّي مُشرّد ولا أظنّك تريدني أن أتسلّل لبيوت الناس خلسة. أستحقّ أن يكون لي مكاني! أرجوك! وأشفق الربّ عليه. وفي اليوم الثامن، عندما استراح، خلق الحمّامات، حينها فرك الشيطان يديه فرحًا، وفكّر في نفسه أنّ الربّ كان يسخر عندما صدرت منه رائحة البيض، واقتنع بفكرة الحمّامات. الجمر والبخار كما في الجحيم. ها ها ها! هناك بالضبط سأغوي البشر. عندما سمع الربّ هذا خجل من غلطته. ومن باب التمويه، شطب اليوم الثامن من أيّام الأسبوع في التقويم. نسي الناس من أين جاءت الحمّامات، وتوزّع خلق العالم على سبعة أيّام. لذلك لا بدّ من حماية الحمّامات من الأرواح الشرّيرة، ويذكّرنا اسمه بالموت.

ـ أخاف...

من المُستحسن أن أنتظر أليس كذلك؟ من غير المعقول، كلّ شيء لوحدي، مع دفق هائل من الأحاسيس.

ـ لا تقلق يا حبيبي! القرد يحرس المدخل... إيه يا غشيم! هذه قصص للأطفال الصغار، وأظنّك قد كبرت عليها. في كلّ الأحوال كنْ معي، فلن تصاب بأذى.

في حجرة رحبة يومض فيها الضوء ونافورة ترحّب بنا بخرير مرح.

ـ ماما، هل هنا سقط يوريك الشجاع، وأنقذه ذلك الذي عرف فيما بعد أنّه والده الضائع؟

كم حسدتُ يوريك الذي كان أحسن سبّاح في الصفّ، وكان محظوظًا دائمًا في سباق العصي.

قد يقول ميريك في يوميّاته:

لوحة أخرى لجيروم: حمّام وحوض. على الحافّة تجلس امرأة رائعة الجمال، بيضاء كالثلج، تدخّن النرجيلة. في خلفيّة اللوحة نباتات خضراء في الباحة. على السجّادة إبريق من الصُّفر وصينيّة عليها ثلاث برتقالات، كأنّها الثلاثي الهارب الذي يبصبص، واحد... اثنان... ثلاثة...

سمعت المرأة العارية الحديث عن يوريك، فرشقتني بالماء.

ـ إيييه! ـ تلفَّظتُ، وعقّبتُ ـ لماذا ترشقيني بالماء؟

ـ ألا تعرفها يا حبيبي؟ هي أمّ يوريك.

لم أستطع أن أزيح نظري عن وجهها الجميل. فجأة فهمتُ بيتر بان. كلّ النساء جميلات وقاسيات، وهذا في طبيعتهنّ. هرعتُ نحو السجّادة، وسحبتها بكلّ قواي فسقطت الأواني، وانقلبت محدثةً ضجّة.

ـ يا لك من شيطان ـ صرخت أمّ يوريك، وكأنّها فتاة قد زعلت، وهو ما توقّعته تمامًا.

قفزتُ إلى الماء، وماذا في ذلك؟ أتحسبون أنّ يوريك وحده شجاع؟ سترون! وأنا سأثبت لكم. الحرارة شديدة. نرجيلة. فندقي. رنّة... وطنّة! عربيّات ذوات أجساد تُجاري الأرابسك في جمالها... كانت الثياب قد تشرّبت بالماء فأعاقت الحركة، ومع ذلك سبحت إلى نهاية المسبح غاطسًا تحت الماء.

ـ يا صغيري!

ـ أنا موجود ـ بقوّة العبث!

ـ تبلّلت كدجاجة. لماذا لم تخلع ثيابك؟ ما هذا الهرج...

والمرج هناك؟ أنت قلبت النراجيل؟

ـ إنّه بساط الريح. . .

ـ تفو! لا تختلق! لستَ شاعرًا. اذهب، واعتذر! هيّا عجّل.

ـ عففففففوووووًا! ـ همست بأخفض صوت ممكن. جاء الردّ على الصوت الخفيض بصوت صاخب: ششششيييششششش. . . أيّها القرد المقرِف، كش كش! وبحركة رشيقة كنت تحت فستان أمّي.

لـمْ يخلُ الألبوم من نساء إنغريس الرائعات. لوحة بيضاويّة الشكل. في وسط الحمّام ازدحام شديد. عازفة على العود منحنية تعزف لزميلاتها. امرأتان عاريتان تقرصان أثداء بعضهما. والكلّ ينظر لا على التعيين! أيّتها السوداء الرائعة، لماذا عيناك واسعتان؟ إيه أيّتها السوداء الجميلة لماذا أسنانك بيضاء لمّاعة؟

كي أستطيع أكلك!

ـ من الأفضل ألّا نذهب هناك! أرجوك! ـ زعقتُ مرتعبًا.

ـ لا تعلّلني يا حبيبي. لنخلعْ ثيابنا أوّلاً. ـ وفكّتْ أزرار بنطاليّ وهي تقول: سأساعدك. وفي أثناء ذلك سينشّف العاملون هنا لك ثيابك. ـ قميص مقرف! التصق بجسدي ولا يريد تركي. أشعر بالهناء وأنت تمرّر بيديك على جسدي.

كان اسم الحمّاميّة ناستورتسيا أي أبو خنجر والتصقت الذكريات المسحورة ببطلات (Butterfly) بالأسماء. جلبت لي المرأة الصندل الذي اختطفه بساط الريح مع النراجيل، ووضعته على المقعد، وبدأت ليليا، المساعدة السوداء تنفض عنه الرماد. رقد البساط هادئًا وكأنّ شيئًا لم يكن. إنّه تافه! أعرفه. ينتظر أن يخلق مشكلة.

ـ يا زنبقة الوادي، ماذا تقولين هل الياسمينة تصلح زوجة لابني؟

ـ الياسمينة؟ لا. حوضها ضيّق وأطفالها يتعرّضون دائمًا للمرض.

ماذا سيحصل لو نهضت المرأة الجميلة وأوقدت من جديد النرجيلة؟ كم هو مكان رائع للراحة. والاتّكاء على وسادات خضراء... حبّ الأمّ فقط، لا يعرّض الرجل للضحك.

ـ قد تكون غردينيا؟ ـ قد تسألها زميلتها.

ـ لا، لا! قبل أسبوعين فحصتها عندما كانت تغتسل. لا تهتمّ بنفسها أبدًا. أتتصوّرون هذا؟! لم تحلق كَسْكُوسَها منذ عادتها الشهريّة الأخيرة! والأنكى في الموضوع أنّها تفتخر بهذا.

ـ زنبقة الوادي يا غاليتي. ولا واحدة منهنّ تفي برغباتك أم تراكِ تدفعين بابنتك برتقالة البرغموت نحوي؟

بحركة واحدة كنتُ تحت الفستان. المسك والحلاوة التمريّة لوردة الجوري، في الوقت الذي كانت فيه ناستورسيا تخلع ثياب زبونتها ششششش... ششششش! فلوبير: ملكة سبأ وقد وضعت على خصرها مشدًّا، وبثوب مخملي مذهّب، ازدانت أطرافه باللؤلؤ والعقيق والياقوت الأزرق، ومن كلّ الجوانب طُرِّزت الأبراج الإثني عشر بأبهى الألوان. كما انتعلتْ حذاء عاليًا، الفردة الأولى منه سوداء منثور عليها النجوم مع الهلال. والفردة الثانية بيضاء غُطّيَت بنقاط ذهبيّة والشمس في وسطها.

أضف لذلك أردانًا واسعة مزدانة بالزمرُّد وريش الطيور تُبرز كتفًا أبيض، تطوّقه أسوارة من الأبنوس. أمّا اليدان فممتلئتان بالخواتم، والأصابع تنتهي بأظافر واخزة حادّة كالإبر. وهناك سلسلة ذهبيّة تصل إلى حنكها، تصعد حلزونيًّا على امتداد الخدّين لتطوّق شعرها المنثور

فوقه مسحوق سماويّ اللون، ثم تنساب نحو الأسفل لتمسّ الكتفين، وتتعلّق في حضنها بعقرب من الماس لسّاعته بين ثدييها. حسنًا أقولها بصراحة رغم أنّي أشعر بالخجل: إنّه وصف غبي، فالفطريّات فقط تعشعش بين الأصابع في الأحذية العالية. قدّمت الحمّاميّة القبقاب الذي طالما أحبّه جيروم.

قالت مغنوليّة: هذا حذاء! لن تحترقي به حتى في الجحيم.

ششش... شششش! أُعلن عن مسحوق سماوي اللون، مع مشدّ لا تعرف كيف جاء من مجلّة للموضة من عصر الملكة ڤيكتوريا. فليعدْ من حيث جاء. أيّها الشيطان! كش كش! أيّها القرد الكسول.

ـ هذه مناشف لكِ يا سيّدتي، وعندما تتبلّل ناديني لأجلب غيرها.

ـ حبيبي بيتر يا صغيري! هذه المنشفة لك. خصّيصًا لي. ـ منشفة عطرة نظيفة وملوّنة لأنّها رأت منشفتي المهلهلة، وهي حتمًا صغيرة لشابّ ضخم مثلي، وستتبلّل كلّها قبل أن أتنشّف. ومن هنا إذا احتجت فإنّها ستجفّف شعري وتدلّك رأسي ستسخنني، فنتكلّم ثم ترتدي فستانها ونذهب مُنشرحين لنأكل شيئًا.

ـ في الحقيقة... ـ قال الهارب الثاني، الذي كرّر ما لم يفهمه في المدرسة: المرأة كالضلع إذا حاولتَ تسوية اعوجاجه سينكسر، فإن أردت أن يخدمك، كيّفْ نفسك مع اعوجاجه.

ـ تعال يا حبيبي. إنّي جاهزة. انظر إلى الفسيفساء، ستعجبك.

ـ أوه أرى عليها ناسًا! يلعبون الغمّيضة، والجميع عراة، وأنا أحبّ الغمّيضة. انظر! ما له يقف ممسكًا بزَبُّورتِهِ؟ هل زبّورتي أيضًا ستبرز هكذا؟

ـ حبيبي إن لم ترد لن تبرز... ها... ها... ها! تعال إليّ. ما هذا المكتوب في الأسفل؟ اسمع ما قال الشاعر: «عندما ترتفع راية النصر، يشدّ العربي عليها بيمناه!»... لا أفهم شيئًا! من أين سآتي بالراية؟

ـ ما أحلاك يا صغيري! لنذهبْ!

كانت الصالة المجاورة لطيفة ودافئة، والماء يقطر من الحنفيّات النحاسيّة. جلسنا في حُنيّة وبدأنا نعرق.

ـ سأطلب منهم تدليكي يا حبيبي، ستأتي معي أليس كذلك؟

كان الجمر جافًّا صيفيًّا يحرق البشرة المعروقة، بينما سُحب من البخار تخرج من الصالة المجاورة. حتمًا المكان هناك لطيف.

ـ آخ!

في الممرّ كانت المرأة العارية تشدّ نطاقًا على خصرها وتحمل بيدها... سالومي القاسية ويوحنّا المعمدان.

ـ النجدة! إنّها تمسكني من رأسي. ـ وانزويت في الركن أرتعد خوفًا.

ـ ماذا تقول؟

ـ من رأسي المقطوع! انظري! ـ أمسكت بشعري وأنا أشير للممرّ.

ـ حبيبي لا يوجد شيء هناك. أنظر.

كيف لا يوجد في الوقت الذي يوجد؟ وبسرعة، أين الفستان؟

ـ لن نذهب إلى هناك، أرجوكِ ـ قلتُها بصوت حادّ.

ـ لا تخف يا حلو. أنت طفل صالح ـ نعم أستلطف عندما تمرّر بيدك على جسمي ـ سأقصّ عليك حكاية الرأس والحمّام، ستعجبك. في قديم الزمان أراد أحد الناس أن يذهب إلى الحمّام، فنادى على خادمه وقال: ـ

وجدتُ شَعري قد طال، واتَّسخ جسدي، فابحث لي عن حمّام أذهب إليه، وحلّاق يفعل ما أريده منه. أريده حمّامًا واسعًا ذا هواء لطيف وماء معتدل الحرارة، أمّا الحلّاق فأريده ذا يد رشيقة وموسى حادّةٍ وثياب نظيفة. لا أريده ثرثارًا... ولا متعجّلاً. قال الخادم:

وجدت ما تصبو إليه نفسك.

ذهبتُ إلى الحمّام. لم ألحظ العامل الذي يقف في البوّابة، لكنّي دخلت لا أبالي بشيء. بعد هنيهة ظهر رجل يمسك بيده طينًا دهن به جبهتي، ثم وضعه على رأسي وخرج. بعد قليل جاء رجل آخر بدأ يدلّكني حتى آلمتني عظامي، ويفركني حتى كاد يحطّم مفاصلي، وهو في هذا وذاك يصفّر ويبصق دون توقّف. بعد ذلك شرع يصبّ الماء على رأسي ليغسله. ولم يكد ينتهي من عمله حتى دخل عليه الرجل الأوّل، لكنّ الثاني استقبله بضربة من قبضته فرّقت أسنانه كمن يبتسم وقال: أنتَ أيّها النذل! ماذا تفعل بهذا الرأس وهو لي؟ فرمى الثاني بنفسه على الأوّل وهو يلكمه، وجعل يضربه إلى أن خارت قوى الأوّل، فقال له:

ـ إنّ هذا الرأس لي. هو ملكي. وهو بين يدي. وعادا للضرب، إلى أن تعبا، وقرّرا أن يجدا من يفصل بينهما وذهبا إلى صاحب الحمّام فقال الأوّل منهما:

ـ هذا الرأس لي لأنّي دهنتُ جبينه بالطين، ووضعت عليه الطين. قال الرجل الثاني:

ـ هذا ليس صحيحًا، لأنّي دلّكتُ حاملَ الرأس، وفركتُ مفاصله. هنا قال صاحب الحمّام:

ـ هاتوني بصاحب الرأس لأسأله هل الرأس لك أم للرجل الآخر. جاءا إليّ وقالا:

ـ شرّفْ معنا لأنّنا نريد شهادتكَ. وشئتُ أم أبيتُ ذهبتُ معهما. قال صاحب الحمّام:

ـ يا ابن الناس قل لنا الحقيقة واشهد بالحقيقة فقط . قل لمن هذا الرأس؟ أجبتُ:

ـ عافاك الله! إنّه رأسي. كان صاحب دربي، ورحل معي إلى مكّة، ولم أشكّ يومًا أنّه رأسي، فقال لي:

ـ اسكتْ يا ثرثار! ثم انحنى على أحدهما قائلاً:

ـ هيه أنتَ! كم تنوي أن تتشاجر من أجل هذا الرأس؟ افهمْ! إنّه لا يستحقّ أن تنزل لعنة الله عليك، وتدخل النار بسببه. لنفترض أنّ هذا الرأس لم يكن موجودًا، وأنّ هذا الأحمق لم يكن هنا أبدًا.

ـ ها... ها... ها! لا قيمة للرأس أبدًا! لكن لن تقطعوا رأسي... أليس كذلك؟

ـ طبعًا لا! تعال لنذهب كي يمسّدوننا، ويكفي العرق الذي تصبّب منّا.

لوحة أخرى لجيروم:

المرأة السوداء المُدلِّكة.

في لوحة جيروم، تعمل في الحجرة الباردة من الحمّام. والضوء يضفي على جسمها وداعة الكاكاو الصباحي. زهرة النجميّة المُحوّرة

على سيراميك الجدران تشدّد على تناقض الانتعاش مع رعاية دفء الجدران. أمّا القلادة البربريّة على عنق المدلّكة، فما هو إلّا تبجّح فارغ نراه في الستائر تحت سقف الحمّام.

ـ سأتمدّد. كن مؤدّبًا... وانتظرني.

ـ طاب نهارك. ـ وضعتِ الخزامى مسندًا تحت الرأس ـ استرخي من فضلكِ.

وبدأت يدان قويّتان تفركان الكتف. المدلّكة العارية منحنية، كما في اللوحة. كان الفنّان يحلم بثدي كاكاو. لكنّ الأبزاز لا تؤثّر في الغلمان غير الناضجين. تتدلّى مقرفةً، تفووو! ضربتْ على أعلى الظهر ثم الأكتاف بشكل أقوى، أعلى الحوض، الردفان، آخ! حلاوة التمر. آخ! ما أروع هذا...

من الداخل كان صوت أمومي ينصح.

ـ يجب أن يكون زوجك يا بُنيّتي غنيًّا، كي لا ينقصك شيء، فالزواج تبادل تجاري عادي. لكِ أنْ لا تدوخي رأسك في أيّ شيء، وله البخش. لا تقلقي هي عبارة عن خمس دقائق لا تحتاج إلى جهد. خذي مثلاً من الخزامى. كانت محظوظة حقًّا...

نظرت إلى ما وراء الدكّة.

إنّه لوتّي (Lotti) الودود: من الدِّكة العليا تنساب أغنية، إنّها الخزامى والأغنية مُبهجة. كان يختلط صوت لا أفهمه بالأغنية: دزننن... دزننن! صوت معدني بكلّ وضوح، وكأنّ نقودًا معدنيّة رُميت بقوّة على الأرض. ما عليها أن تفعل؟ هل هي تتسلّى بالخواتم أم تلعب بها؟ لا شيء من هذا وذاك! تسلّلتُ بحذر على أربع قوائم كأنّي هندي أحمر. كانت الخزامى جالسةً موليةً ظهرها للمدخل.

والدولارات الفضّيّة الرائعة، التي استلمتها من زوجها ليلة أمس، متناثرة على الأرض. كانت تمسك العملة كما يفعل صرّاف محترف للعملات الأجنبيّة، وتقلّبها بين أصابعها، وترميها على الأرض، لتضربها بمطرقة صغيرة بشكل متتابع، وهي تنصتُ لصوتها.

ـ النجدة يا ماما! ـ ولم يبق أثر من شجاعة الهندي الأحمر.

ـ حبيبي، أرجوك، دعني أكمل التدليك.

علّق الهارب الثالث باندفاع جاهل قائلاً: البؤس يتربّص في المرأة. هنّ يجرّبن الرجال. يبدأن بأخذ الحديد الذي يحمي حَرْبَتَك، وأنت لا تعترض أبدًا، ثم يأخذن ترسك، ويقطّعن عليه اللحم، فإذا صبرت إلى هذا الحدّ، سيأخذن السيف ويكسرن عظامك، فإذا لم تردّ، سيجلبن سرجًا ويضعنك على دابّة وهنّ يصرخن أنّك حمار.

ـ أتذكر عندما قصصتُ عليك من أين جاءت الحمّامات. ربّما جنّي تسلّل من خلف ظهرك...

ـ ششش... شششش! ـ كانت الخزامى تُليّف الظهر، والمدلّكة تكوّم قشور الجلد المتساقطة، فكان ارتفاع الكوم يدلّ على نشاط المدلّكة، والبقشيش يكون لصاحبة الكومة الأعلى. على أيّة حال قالت بزهو بعد أن أنهت كلّ شيء: يا لها من كومة أوساخ!

كيف ذاك؟ الجمال لا ينقشر، ثم إنّ هذه ليست كومة، وإنّما البنفسج بعينه.

ـ أنظروا كم شجاع أنا! يا لكِ من شبح مقيت. ـ ركضتُ نحو الخزامى، وطشت قصديري على رأسي، وأنا ألوّح برأس النرجيلة كأنّها راية النصر.

ـ كش. . . كش! اذهب من هنا أيّها الصغير!

ـ تعال هنا يا حبيبي. قلت لك: لا شيء هناك.

ـ وكما جاء في الكتب ـ بدأ الهارب الثاني من فوق السطح يتكلّم بلهجة خطابيّة: من رأى الجحيم يُدرك بأنّ أغلب ساكنيه من النساء.

كانت الصالة التالية رطبة، كأنّها في المنطقة الاستوائيّة في فصل الربيع عندما تُزهر الطبيعة وتشتدّ الحرارة. اختفتْ سالومي. كأنّ زَغَب الفانيل فَتَل العالم، لكنّه كغزل البنات ذاب كما يذوب الانبهار الحلو.

نضجتُ. وتوزّعت الحقيقة على عدّة أصوات.

بدا الباب المزخرف كبوّابة معبد. انحنى لي البوّاب ذات الوجه الأحمر كالشوندرة، ودون أن ينبس بكلمة قادني نحو الأسفل، بدت الدرجات وكأنّها معلّقة في حجرة بلا جدران، أو أرضيّة وهي تسبح في الفضاء في حلم كئيب. كان الحاجز الخشبي المشبّك يحدّ الدرجات، ويقوم مقام الدرابزين. أحسستُ أنّ أدنى حركة منّي ستهشّم الخشب المنخور ويسقط الدرج. أردتُ العودة، لكنّ الخوف لم يفارقني. وباتّساق مشيت على أثر البوّاب.

كان في الأسفل ممرّ. أزحتُ الستارة المتعفّنة بقرف. وجدتُ قزمًا في ثياب رسميّة كأحمر الشفاه الأحمر يستند إلى الكونتوار، وردهة صغيرة نَسيَتْ أيّام ازدهارها، وجدرانًا مكسوّة بالخشب، وقشرة خشبيّة انقلعت من حوافّ الكونتوار. قُربَ مصباح باهت الضوء لاحظتُ ورقة كُتبَ عليها بخطّ واضح «بكلّ بساطة سأذهبُ وأدلّكَ» وفي الوجه الثاني خربشة أطفال «أنّى تشاء».

لم أكد أُنهي القراءة، حتى التفتَ القزم قائلاً:

ـ مساء الخير، ننتظركَ من زمن بعيد. كلّ شيء جاهز. تفضّل اقتربْ. ولم يقترب أحدٌ من أحدٍ... ولا شيء. كان الممرّ فارغًا.

في وسط صالة غارقة في الظلمة طاولة وكرسي بلاستيكيّة وعلبة مناديل مفتوحة. قريبًا على المشمّع ساعة للشطرنج وأقلام مرميّة. كان ميناء الساعة الأيسر مقسومًا إلى خمسة أوقات. قلتُ لنفسي: هذا ليس عدلاً. وانتصر الفضول على الخوف.

شرع القزم يتكلّم، وكان قد اختفى بمجرّد ما أوصلني، ولا أعرف من أين ظهر:

ـ اسمي تاليمج. أنا باب ينفتح، ويدعو الآخرين إلى عالم الشرق الساحر. ـ أثناء كلامه سقطت عليه حزمة من نور أزرق من أعلى فخلقت منه شبحًا من ظلّ. تابع القزم: لا تخفْ، فأنا لا أُجرّحك بأن أُعامَلك كسطلٍ تصبّ فيه غسّالات من الخَبَايا، وأعرف لماذا جئتَ هنا. تمتّع بما يقدّمه المحلّ، وأقترح من جانبي تحقيق الأحلام الرجّاليّة. سأحضر للطاولة كلّ من تحلم بحضوره. وكلّ شيء متعلّق بك شخصيًّا. هناك حُجَر وحنيّات في نهاية البناء، ولا بدّ من دفع البقشيش عن كلّ لقاء. وإذا دعتِ الحاجة، فأنا موجود هنا.

كان رأس القزم يتألّف من وجهين، وحين كان يتكلّم معي كان يتوجّه إليّ بالنصف الأيسر من الوجه الأيمن، والنصف الأيمن من الأيسر.

ـ نعم؟

سأكون مسرورًا لو أضفت قليلاً من السكّر. أخذتُ قطعة من الدروبس، بعد أن رميت غلافها على الأرض، فتلفْلفَ وصار صرصارًا هرب إلى جحر حُفر في الزاوية لحاجة طارئة.

انطفأ الضوء الأزرق، لكنّ الظلام لم يزعجني الآن. القزم الكريه شجّعني، فحلمت براقصات هزّ البطن. الأرضيّة بلاطات مرمريّة على شكل رقعة شطرنج. كانت الصالة فارغة فالعرض مخصّص لي فقط، وهو شيء يدعو للسرور. فكّرتُ متى يبدأ العرض وننتهي من كلّ شيء؟ وعلى الفور ظهرت أشكال بشريّة. ستّة عشر بيدقًا جاهزة للعب. لا أحد يتحرّك. ضوء أخضر فاقع أنار منصّة العرض. ستّ عشرة يدًا يُسرى قامت بحركة يمكن تفسيرها على أنّها تتسوّل أو تدعو لشيء أو ترفض شيئًا. تبيّن أنّ البيادق نساء ذوات بشرة تنمّ عن العناية بها، وشَعْر نُثرت عليه البودرة وأظافر واخزة كالإبر، وقد ارتدين الميني جوب مع بلوزات رسميّة مفتوحة الأزرار، تظهر أثداء منتصبة.

فجأة علا صراخ، وبدأت الفتيات يتدافعن ويركضن هنا وهناك، وقبل أن نقيم أيّ اتّصال علا زعيق إحداهنّ. كش كش! وأقفلت راجعة وهي تلتفّ على بعضها وتقفز.

لا أعرف من أين ظهر القزم من جديد. سألني بعد أن انطفأ الضوء الأخضر وشُعّل الضوء الأزرق:

ـ هل اخترتَ؟ ـ حاولتُ أن أتبيّن هل لتاليمج أذنان أم أربع. ـ أيّهما تعجبك؟ ـ حدّقتُ مرّة أخرى. ستّة عشر بيدقًا لا أحد يعرف لماذا تمدّ بيدها. في اللحظة التي أردت أن أصرخ بالقزم أنّه يسخر منّي، خرج بيدق وتحوّل إلى سيّدة، تحوّلت إلى امرأة حيّة تتحرّك بسرعة متزايدة، وبدأت تهتزّ كأنّها في رقصة هزّ بطن جنونيّة، ثم انفجرت الموسيقى، والأضواء الملوّنة تُنير منصّة العرض.

صرخ القزم:

ـ تفضّل! لكَ خصّيصًا! لك أيّها المحترم العزيز... أكبر نجمة عندنا!

كانت الراقصة تلفّ وتدور بسرعة متزايدة. فجأة ترنّح الكرسي. فلأعتمدْ على قوّتي الذاتيّة، كي لا تلاحظ ضعفي.

سكتت الموسيقى. وتحوّل التأنيب إلى سعادة، وتقمّصت الراقصة شخصيّة فاتنة من أيّام المدرسة، لم أستطع أن أقيم علاقة معها أبدًا. كانت بثياب حفلة توديع المدرسة البسيطة. أعجبتني. نظرت إليّ الفاتنة بغنج. الفرصة مؤاتية كي أصنع من الحقيقة ذكريات.

هنا قال تاليمج: سأناديها حالاً. اسمها بنت حلب، والأفضل أن تقول لك بنفسها.

ـ اسمي جميلة. لم جئتَ إلى هنا. إنّك جبان حتى إنّك لم تقبّلني. أنتَ متشوّق أن... سأخبرك كيف الوضع هنا. لكلّ واحدة منّا طابور من المُعجبين. أترى هذا الخاتم؟ إنّه من كريم، وعندي منه عشرون خاتمًا. يا حيفي على رجال يندبون ويتباكون ساعات، ويخافون المجيء إلى هنا. من الأفضل أن يحلبه... تفو! هكذا هم الرجال. كفى كلامًا! أصبحت الآن تعرف الحقيقة، ومن أجل الذكريات هيّا اخلع ثيابك... هيّا فورًا!

ظهر القزم في الوقت اللازم تمامًا، وصرخ بثقة عارف بالتخاطر وقال:

ـ أتريد أن أنادي على واحدة أخرى؟ لم تكن تلك المرأة التي تحلم بها. لا تقلق أرجوك! في نهاية الأمر لكلٍّ حقيقته وذكرياته. جرّب مرّة أخرى. هات البقشيش ولْنبدأْ.

سلّمته ورقة نقديّة، ونظرت نحو منصّة العرض. ستّة عشر بيدقًا تمدّ يدها لا تعرف لماذا. نظرت للداخل. بيدق رقص كما المرأة السابقة، وتبيّن أنّها فتاة من الشارع الذي أسكن فيه. أحلم بها أحيانًا عندما أكون وحيدًا.

قال تاليمج: اسمها بنت دمشق والأفضل أن تقول لك بنفسها:

ـ اسميّ جميلة. لماذا جئت إلى هنا يا حبيبي؟ حبّابي! وسيم مثلك بلا فتاة؟ لا تخف! أنت متشوّق أن... تعرف، سأحدّثك عن نفسي. عندي هنا خطيب اسمه كريم. أترى هذا الخاتم؟ هو منه. أضعه على إصبعي يوميًا. كي أتذكّر. ألتقي مع كريم بعد ساعات العمل. لا أريده أن يأتي إلى هنا. بفضله لا أزال أعيش في هذا العالم القاسي. رجل حقيقي! أتمنّى... كفى كلامًا! الآن تعرف الحقيقة ومن أجل الذكريات، هات يدكَ، وتستطيع أن تلمسني هنا. أليس ممتعًا أن أمسح على جسدك؟

ظهر القزم في الوقت اللازم تمامًا، وصرخ بثقة عارف بالتخاطر وقال:

أتريد أن أنادي على واحدة أخرى؟ لم تكن تلك المرأة التي تحلم بها. لا تقلق أرجوك! في نهاية الأمر لكلٍّ حقيقته وذكرياته. جرّب مرّة أخرى. هات البقشيش ولْنبدأْ.

سلّمته ورقة نقديّة، ونظرت نحو منصّة العرض. ستّة عشر بيدقًا تمدّ يدها لا تعرف لماذا. نظرت للداخل. بيدق رقص كما المرأة السابقة، وتبيّن أنّها الفتاة التي رميتها بعد علاقة أيّام الدراسة، ولا أتذكّر لماذا فعلت ذلك.

قال تاليمج: اسمها بنت العقبة والأفضل أن تقول لك بنفسها:

ـ اسمي جميلة. لماذا جئت إلى هنا يا صديقي وأنت تفضّل الرجال؟ لا تخف! أنت متشوّق أن... تعرف ما رأيي في ذلك؟ لا يهمّني الأمر إطلاقًا. إه! نم مع من تحبّ على أن تشبع نومًا. سأبوح لك بسرٍّ. خطيبي كريم امرأة. لحسن الحظّ لم تتواعدا ولم تلتقيا! يأتي

إلى هنا هؤلاء الذين. . . كفى كلامًا! الآن تعرف الحقيقة ومن أجل الذكريات كنْ رجلاً مثله.

اختفتِ الفتاة قبل أن أقول شيئًا، كما أنّ تاليمج لم يظهر هو الآخر. تعوّدت على ردود فعله على أفكاري، لكنّ التفكير الآن لم يُسعفني. انشقّ الباب قليلاً وراء رقعة الشطرنج، وبأعجوبة وجدتُ البيادق في جيبي، لكنّ الملك بقي على منصّة العرض وقال: لا لعب بدوني. وأشار بيده بعجرفة نحو باب الخروج. يُشبهُني، عن قرب، بعد عشرين سنة. أمر غريب، فكّرتُ، لكنّ الشمس بدأت تشعّ من خلف الباب، والخُضرة الطازجة منعتني من التفكير.

ذهبت إلى حديقة بيتر بان. كانت الأشجار على شكل قرون أو كُرات تحاكي الحدائق الفرنسيّة. كنت لوحدي غير أنّي شعرتُ كأنّني في تلفزيون والناس ينظرون إليّ. التاج ثقيل واليدان مقيّدتان والصولجان مزعج. والمدلّس لا يُسمح لي بأن أضعهما جانبًا. مددت يدي لجيبي لأُخرج البيادق وأرتّبها على رقعتي، فلم أجدها، وأخرجتُ من جيبي سكّينًا.

لا يتجرّأ هذا الأفّاق أن يدخل المسجد! رميتُ بالسكّين، وهربتُ. عند التقاطع وضع تاليمج ستارًا.

ـ شيء جذّاب! ـ قال القزم وتابع: أنت في بلاد ألف ليلة وليلة، وتخاف الأحلام. لا! لا تقلق رجاءً. فالباعة بطبيعتهم يخافون ووحيدون. كنتَ تظنّ أنّها لعبة فقط؟ توازي الحقائق، ولْتعشِ الجميلات! لا. غُرِّر بك. ندخل إلى الحمام عُراة. أليس حلمك أن تصبح شاعرًا؟ هل أستطيع الكلام دون رسميات؟ حسنًا! كما ترى، فإن الحياة متعددة الأصوات، لكنّ الناس بحاجة للأنبياء. فإن شئتَ ساعدتكَ.

اختفى السحر. زقاق مسدود ينعطف نحو اليمين ويحجب ممرّات السوق. من أمام الحُنيّات الفارغة تأتي رائحة بيض نتنة. هدأت الجلبة. باب الحمّام المزيّن يذكّر بمداخل المعابد. اليومَ مخصّص للنساء، فليتفضّل الرجال بالخروج، ما هذا الحظّ التعس! ـ قال جيروم.

حينها كان الهاربون سيتحدّثون للمخصي لكي يقوم بدوره بشرح الذي كان من الممكن أن يراه. اللوحات تجذب بقوّة أشدّ من الواقع. فقد عثروا على النقاوة تحت حزم الضوء الساقطة من الثقوب في أسطوانة العقد.

قال صاحب المكتبة وهو يبتسم:

ـ قلتُ لك إنّه ألبوم جنسي من الدرجة الأولى. هل تمتّعت بوقتك؟

أليس من العدالة والصواب أن تكون الصور من عمل الربِّ فقط؟

أيّها المشعوذون! مجّدوا النُسّاك! السحر بالذكريات الرائعة، وقضاء وقت ممتع والتسلية، هذا هو الجوّ الذي يجعل السامعين والبائع نفسه يحلّقون في الفضاء. فليسقط المتعصّب، الفارس المحارب في الأراضي المقدّسة. إلى الأعلى تلوح صورة تذكّرني بالسلسلة الورقيّة التي كنتُ أعلّقها على شجرة عيد الميلاد، مع أمّي، في ليلة العيد. وفي أعلى قوس البوّابة غُرز رأس قرد مقرف.

كفانا بيتر بان!

أيّها السيّد الفنّان، لا شيء يجمعنا. لا أقرأُ أفكار الناس ولا أرى ما يجري خلف الأبواب المغلقة، فَلْتُفتح إنْ شاء الله هذا! لا أغوي الغلمان الصغار مدّعيًا أنّ العالم رحلة كبيرة إلى حديقة بيتر بان،

حيث يسكن ألآلْفات اللواتي لا يقمن بشيء مفيد، أبدًا عدا الرقص في الدائرة المسحورة، حتى يصدّقن أنّ روايتكَ قصّة حقيقيّة، وبشكل سحري ملوّنةً وفارغة.

أيّها السيّد الفنّان، هناك تعدّد الأصوات.

خمس مرّات في اليوم. وفي أوقاتٍ محدّدة، يدعو المؤذِّنون للصلاة عبر الميكروفونات. هناك قانون محدّد للأذان: عندما يصل أحدهم إلى كلمة «أكبر» ينطق الآخر كلمة «الله» والثالث «رسول». أذان بعد الظهر النّفّاذ يمنح لحنًا رتيبًا لذبذبات الهواء الساخن. إنّها مانترا رجّاليّة خشنة. الجدران المختبئة في الزقاق تصدح بأنشودة يتيمة، كي تلحق بعد لحظة إلى الفرقة، فتفتح طريقًا لمكان وصوت جديدَيْن.

كما في الموسيقى الحديثة، فالأصوات لها مكانها عند الناس وكذلك أبنية المدينة. قباب المعابد المتناثرة تتناقض، وتحتلّ مساحات من حول مكبّرات الصوت في أعالي المآذن. حياة المدينة تتّخذ شكل تعدّد الأصوات، فتتغيّر الأجساد فيها للحظةٍ إلى سمعٍ خالص وتكفّ عن القرف من نفسها.

أذان بعد الظهر النّفّاذ يمنح لحنًا رتيبًا لذبذبات الهواء الساخن. أصوات رجّاليّة حلقيّة تتردّد متحدّية القيظ، وللحظة تتصارع من أجل السيادة على العالَم، غير أنّ صوت المؤذّن يصمت بسرعة. يتمدّد الخلاء بخنوع أمام الحرارة، وبين المرّة والمرّة، عليّ لوحدي أن أصعّد اللحن، كي لا يخضع جسمي أنا للحرارة.

يمكنني في ساحة المسجد أن أبحث عن مكان ظليل، وأغتسل بماء بارد، أو أن أخلع حذائي وأدلف للداخل. السجاجيد الوثيرة المبسوطة المتراصّة إلى جانب بعضها تمنح الأقدام المحرّقة الراحة.

المكان تحت القبّة، المطوّق بالساحة، يشكّل واحة مدنيّة تختبئ تحتها البرودة أمام الحرارة. كان المعماريّون فيما مضى يتسابقون على مثل هذه الواحات. المدن القديمة مليئة بمثل هذه الأماكن التي يتمتّع فيها الناس بالبرودة وبالأحاديث مع المعارف. كلّ مُنعطَف يضفي على الجدران النُّبل، ويمنح الواحات المدنيّة هذه فرصة أخرى. لا مقاعدَ في داخل المسجد. والناس يجلسون مباشرة على الأرض، كما يطيب لهم. يستطيع المرء أن يتمدّد بل حتى يمكنه أن يغفو للحظات. الأطفال يتشقلبون والكبار يمرّون، ينعسون أو يتكلّمون أو يقرأون مقاطع من الكتاب. في المسجد يتقابل الله مع الإنسان في حياته اليوميّة. ولعدّة دقائق مخصّصة لصلاة الجماعة، يتوقّف كلّ عمل أو نشاط ويتوجّه الجميع نحو الكعبة ويسجدون لله. بعدها تعود الجلبة. وفي ساحة المسجد يتواعد المحبّون، بحيث لا يلحظ أحد ذلك، والعائلات تقوم بنزهٍ هناك.

عندما يأتي وقت الظهيرة تبدأ الحرارة بإرهاب الخلاء، مدفوعة برغبة لا تقاوَم في التملّك. ينتفخ الحرّ ليعلن قدوم المساء وتداعيه المحتوم. عندما كنت ألجأ تحت القباب، أو خلف جدران البيوت في الباحات أو الغرف، في الأزقّة أو عند سبيل للعامّة، كان يتملّكني شعور بأنّي أختنق من شدّة التدافع في الزحمة، وأنّ الأماكن تبدأ تضيق والجدران من حولها تنهار. خُيّل إليّ وكأنّ الأحجار تنتفخ، والجدران كلّما عَلَتْ مالت نحوي. ويدي ترتفع فوق الرؤوس، كأنّها يد عملاق ذات أصابع كالأسطوانة.

حتى إذا استطاع المكان أن ينتظر الوقت المناسب، فالمساحة تتقلّص حتى البرودة، لتصبح جمرًا كثيفًا ودبقًا، لتصبح كالحرارة تمامًا، تُقرف الجسد.

في الوقت الذي يؤدّي المؤذّنون أذانهم يبدأ مربّو الحمام بمناداة الحمام للطعام. ولكلّ مربٍّ إشاراته. فعندما ينادي بالصفير والقرع على قِدرٍ يبدأ الحمام يحوم حوله. يشتدّ الخناق وتصفيق الأجنحة بقوّة تعني الجوع، وأنّ الأجسام لم تُلذع بالحرارة. فإذا خرج أحدهم لنشر الغسيل إلى السطح في هذا الوقت، فإنّه سيُخيف الحمام الذي يريد أن يهبط في تلك اللحظة. لكنّ مربّي الحمام بطقوسيّة يصفّرون ويقرعون على الصفيح إلى أن يهبط الحمام.

عندما يسيطر الدويّ على المكان معلنًا اقتراب الوقت المحدّد، أتشوّق إلى الصمت. حتى عندما تنتهي السيطرة ويصمت آخر قِدرٍ، فإنّ الحرّ يبدأ سيادته على المكان فورًا. لكنّ إلحاح الطقس السحري الذي لا أشارك فيه ولا أفهمه، يدخلني في كآبة لدرجة أنّ الصمت لم يعد يعني نهاية الطقوس، بل فرح عظيم يحجب الحرارة عن الجسد. لكنّ الخلاء يستسيغ لنداءات مربّي الحمام أكثر من صوت المؤذّنين. الأصوات المعاقبة لا تخلق قانونًا يمكّن من مقارعة الحرّ. أحياء مربّي الحمام تعجّ بضجّة يخترقها صفير حادّ عدواني.

عندما تحطّ الطيور تجتمع حول الطعام، لكنّ صاحبها يطردها، فيصعد الخلاء معها إلى الأعلى ويتناثر كتراب جافّ محشور في السماء، وهكذا يصبح شريكًا للحرّ ويعمل ضدّي.

عندما حلّ بعد الظهر، خرجت إلى سطح الفندق المُظلَّل، نظرت إلى مربّي الحمام وحرصت ألّا تنمو لي مخالب، ولا أشدّ الخناق وأهاجم وليّ النعمة غدرًا وبمنقار بشع أقتلع من حلقه آخر صَفْرَة دمويّة.

... كيف سيخبرني هارون عن رسالة من جميلة برأس مملوء

بالخيال؟ وكيف ستكون ردّة فعلي؟ هل أتّصلُ بها هاتفيًّا على الفور، أم أنتظر ليوم الغد؟ كما أنّي متردّد هل أوبّخها؟ وأنّي قلقت عليها، أم أكتفي بالسؤال كيف قضت وقتها؟

فتحتُ باب الفندق.

حيّاني البوّاب بتحيّة معتادة «أهلاً»، ولا شيء غير هذا. لا شيء أيّها البائع الأبيض. وقفت أمام الاستعلامات طويلاً، حتى قرأت كلّ الإعلانات وحفظتها ممّا جعل هارون يسألني:

ـ ماذا يمكنني أن أفعل لك يا صديقي؟

ـ شكرًا. هل كلّ شيء على ما يرام؟

ـ هممم... لديّ ما أفعله كما ترى...

ذهبت إلى غرفتي. كان الهاتف في الاستعلامات فقط. استلقيت، وبدأت أتنصّت على جرس التلفون، ولكي أتعرّف من خطوات البوّاب لأيّ غرفة هي المكالمة.

لا شيء.

ذهبت صباحًا لأرى السيّارة. شارع صغير، سوق... أعرف! أتذكّر حقًّا، هناك وقفت سيّارتهم، وتذكّرتُ كيف مزحت مع جميلة بأنّه ما من فتاة إلّا وتطير من أجل سيّارة فضيّة...

ـ ماذا تفعل هنا؟!

أمّاه!! ترتدي حجابًا وتظهر ملامحها بفضل الشمس... ـ لم أتوقّعكَ. إنّها مفاجأة حقًّا! بحثتُ عنكَ وقلقتُ عليك. ألا تعرفني؟ آه! هنا السبب. طلب منّي خطيبي أن أتحجّب. هو إنسان رائع اتّجاهي. بفضله لا أتسكّع بين الفنادق. تعال، أوقفنا السيّارة بعد هذه الجادّة.

ستتعرّف عليه. عندي رجاء. لا تقل له عن لقائنا في المطعم. هو حسّاس للغاية، بكلّ ما يتعلّق بي. أنتَ يا حْبَيْبي! أحيانًا يتملّكني الحزن أن... لا شيء. سأقول له إنّك صديق للعائلة من فرنسا. وأنت هكذا بالفعل، أليس كذلك؟ لا بدّ أن أخبرك، أنّ جدّي استردّ صحّته وسيزورنا عن قريب في دمشق. إنّي مسرورة جدًّا.

إغراء الذكريات وقضاء وقت ممتع... سيّداتي سادتي! اعترفوا أنّي كنت مريضًا بالحبّ، ولقد شُفيت! سبعمئة زوجة من الأميرات، وثلاثمئة زوجة من الدرجة الثانية. ها... ها... ها! مبشّر الذكوريّة الأخرى... انتبه كي لا يدوّخك الرعاع!

ومع ذلك نتعاطف معه. نأمل أن يزدهر الحبّ يومًا على الأرض وأنْ يعافى كريم، لا عفوًا، يعافى سليم.

سمعان وغيره من اللاعبين الربانيين

كان من الممكن أن تسير عودتي إلى حلب على هذا الشكل:

لو سافرت إلى هذه المدينة، كان من الممكن أن يسقط الثلج، وتقترب ليلة عيد الميلاد بمصابيحها الملوّنة وأشكالها البابا نويليّة والزينات تضيء الشوارع على عرضها. كان الثلج سيذوب في اليوم نفسه ليتحوّل إلى سوائل لزجة، تاركًا البرد قابعًا في مكانه في الوقت الذي لا تعمل فيه الشوفاجات إلّا نادرًا، والشبابيك لا تُغلق إلّا بصعوبة. وعند انتهاء الأعياد كنتُ سأذهب إلى دائرة الهجرة لأمدّد تأشيرة إقامتي. كان حذاء الأديداس سيتّسخ ويتبلّل، لأنّي سأسير في شوارع غارقة في الماء وبقايا ثلج وسخ فوق الأرصفة.

وإذا تابعنا:

منذ الصباح ومزاجي معكّر. تقلَّبتُ في فراشي والتفكير بدائرة

الهجرة أقضّ مضجعي. استيقظت قبل الفجر وخرجت إلى الشرفة.

ـ اللهُ أكبَر!

كان الظلام لا يزال مخيّمًا حين نادى المؤذّنون للصلاة.

ـ لا إلٰه إلّا الله!

ارتفعتِ الأصوات وسط الصمت المنعش وتقاسمت المكان فيما بينها. وبدأت النوافذ تشعّ بالأضواء، وبدأ الناس الذين يغطّون في نوم عميق بالاستيقاظ، وبِدْء يوم جديد تحت وقع أصوات قدسيّة، حتى صارت المدينة معبدًا تطوّقها أناشيد ربّانيّة.

ـ طازج يا جوز الهند، يا جوز الهند، ملفوف... ـ تراجع الأذان أمام أصوات البائعين، الذين كانوا يصرخون كي يكسبوا حيويّة، وهم يجرّون عرباتهم ببضائعها عبر الشوارع.

ـ بيييب... بيب! زمّر أحد السائقين المتحمّسين جدًّا، والمسرعين إلى عملهم.

منذ المساء والقلق يسيطر عليّ، فالتأشيرة تنتهي بعد عدّة أيّام، والسلطات المحلّيّة لدائرة الهجرة تبتُّ في تمديدها. إذا رفضوا تمديد التأشيرة لن يحقّ لي الطعن في القرار، بل عليّ جمع أشيائي والعودة. ورغم أنّ القنصل أكّد لي أنّ الأمر بسيط، لكنّي هنا وحدي بلا عون.

ـ اهدَأْ!

لا شيء يدعو للقلق مبدئيًّا، لأنّي أجيد الآن اللغة، وهو ما كان يؤثّر فيهم عادة. عاملني الموظّفون بأدب. عندما مدّدتُ التأشيرة في طرطوس، وكان ذلك في مقرّ جديد بعيد عن مركز المدينة، شكرني المدير أنّي أتقدّم بطلب التمديد، وقدّم لي شايًا مع الحلوى، وكان

فخورًا أنّي أزور بلده. أمّا هنا، فالدائرة في بيت من أيّام الفرنسيين بالقرب من القلعة. فوق الشرفة لوحة خشبيّة محكوكة، بقيت آثار كلمات فرنسيّة «أوتيل سيمون» مع كتابة عربيّة غير واضحة «اسمعْ تُسمَع».

الدائرة منذ الصباح تعجّ بالمراجعين، وموظّف نحيل، ربّما يكون البوّاب يقول: لا تستطيعون الدخول الآن... الآن لا، ربّما بعد قليل. في الباحة المليئة صخبًا، حيّاني رجل برتبة رقيب، وأخذني من الطابور، وتفحّص جواز سفري، وقبل أن أتفوّه بشيء أشار إلى أن أذهب إلى الداخل، إلى كشك عبثي يلعب دور مكتب. الجوّ مخنق والازدحام شديد أمام الكوّة. عندما جاء دوري، أخرج الموظّف دفترًا واقتلع منه ورقة وخربش بعدّة كلمات، وأشار أن أذهب لغرفة مجاورة، كان على بابها لوحة لا يمكن منها قراءة اسم المكتب، ورقم ثلاثة العربي، الذي يبدو كرقم ثلاثة المستخدم في أوروبا، مقلوبًا على ظهره، وله ذنب وكأنّه عَلَم يخفق بسعادة على عصا.

كنتُ مسرورًا.

حرّك الموظّف رأسه عند المدخل، فكان من حسن حظّي أنّي لم أشقّ طريقي عبر هذا الحشد من البشر. نظر إلى جواز السفر، ثم خطّ عدّة كلمات، وكالعادة كانت خربشات غير مقروءة. وخرجت من المكتب الثالث إلى المكتب الخامس، والخمسة العربيّة تبدو كدمعة سقطت حزنًا. بعد ذلك بدأت أتنقّل من غرفة إلى أخرى، وتهميشات الموظّفين تتراكم فوق بعضها. كان العساكر يوقفونني أمام الباب، ويقرأون في الأوراق، وأحيانًا يتحقّقون من بعض الأشياء مديرين لي ظهرهم. لم أتجرّأ أن أنطق بكلمة...

في البداية كان من المفروض أن تكون الغرفة التالية هي الأخيرة، وكان الأمل معقودًا أن تقومَ يد ما بوضع الختم لأعود إلى فندقي.

جانبًا. عرقتُ. كنت لوحدي بلا أيّ عون. الموظّفون يكتبون ملاحظاتهم، ويرسلونني إلى... ومنه إلى... ومنه إلى... وهكذا. تعوّدت على السكوت وبدا لي أمرًا طبيعيًّا، ولم يُهدّئني سوى الإرهاق.

كنت أنظر إلى هنا... وهناك في الدائرة بحذر لمعرفتي أنّ العسكريين حسّاسون لهذه المسألة.

عندما خرجتُ من الغرفة رقم أربعة، أربعة هنا تشبه حرف «سيغما» اليوناني الجامع، جلست في الباحة لأستريح. كانت الأبواب مفتوحةً. فكّرتُ، يُمكنني النظر إذًا.

في داخل الحجَر السامقة رأيت مدافئ خضراء قاتمة. وكان الدخان اللاذع ينتقل عبر أنابيب ترتفع إلى الأعلى نحو السقف، لتتفرّع في داخل البيت كشجرة ضخمةٍ ذات جذور عميقة وأغصان تمتدّ إلى الغرف. كانت المدافئ مطوّقة بحاجز، وعلى سطحها المُحمرّ يغلو الماء.

ـ الذي بعدهُ... بسرعة!

طاولات عليها كومبيوترات وشاشات على طول الحائط، وعلى الأرضيّة أسلاك تلتفّ حول بعضها، ونوى التمر مرميّة هنا وهناك. كان أحدهم يفتح خزّان المازوت، فتختلط رائحة رطبة عتيقة كريهة مع دخان المدفأة. كان المراجعون يتدافعون، ويرفعون أياديهم ممسكين بأوراق يلوّحون بها بحركات بدت لي مُهدِّدة متوعّدة، وحين ينجح أحدهم بالاقتراب من مكتب الموظّف، يُقدّم أوراقه وهو واقف يصرخ

ويسدّ الدخول أمام الآخرين.

ـ بالله عليكم بسرعة!

نادرًا ما كان الموظّفون ينشغلون بشؤون المراجعين، بل كانوا يتحلّقون حول شاشة الكومبيوتر ويتناقشون محرّكين أياديهم، فتلمع خواتمهم تحت أشعّة شمس الشتاء، وبطونهم تظهر من خلال ثيابهم الواسعة، ومع ذلك كانت الحركة دائمة، ولم يكن الناس مندهشين من ذلك. رجل أشيب الشعر يلبس بدلة ابتسم بوداعة للصور. كان الجوّ يبدو دفيئًا تحت نظرة أبٍ عطوف، رغم الجدران المكشوطة والدفاتر المُصفرّة والكؤوس الوسخة.

أنا هو من هرب يومًا من البيت. لأنّ أبي المتسلّط كان يغيظني. وما الفائدة؟ فقد رجعتُ... نظرت إلى الصورة. كانت النظرة الوديعة توحي بالثقة به. فجأة خرج من الغرفة رقم ثمانية (رقم ثمانية يشبه سقفًا ذا اتّجاهين، يمكنك الالتجاء به. خرج فرّاش، ذو عينين متباعدتين ووجه غائر، يعرج على رجله اليسرى، مرتديًا بدلة كصاحب الصورة. أشار لي أن أتبعه.

هو يعرف مكاني، فكّرتُ. لم أفكّر طويلاً. عندما تحرّكنا، دار إلى الخلف نحوي، ونظر باستفزاز، متظاهرًا أنّه تعثّر بشيء، وبزخم ركلني في كاحلي. بدا لي أنّه يهمس «لا تصنع بقعًا» وبانصياع سرتُ خلفه.

ومن العجب، أنّ الفرّاش كان يشقّ طريقه بصعوبة عبر المراجعين، بينما الحشد يفسح الطريق أمام الأوروبي الأبيض الذي سار خلفه. ثلاثة، خمسة، أربعة، ثمانية... كنت في هذه الغرف. دخلنا لغرف أبعد ولم يطلب أحد منّي الدخول هذه المرّة. كان الآذن

يقدّم الأوراق، والموظّفون يسجّلون عليها شيئًا، ويعيدونها إليه مشيرين إلى الباب بكبرياء. وبعد أن امتلأت الورقة سمعتُ بالإنكليزيّة: تفضل إلى الطابق العلوي. ابتسم الآذن بوداعة وأراني الدرج، وقبل أن أقول أيَّ شيء غاب بين الحشد.

كان الدرج المبلّط يؤدّي إلى صالة عرض. في السقف خطّ زخرفي يتكرّر بشكل يتصادم مع الألوان الصارخة للوحات البلاط. كان الممرّ الضيّق فارغًا والغرف مغلقة، والدرابزين المنخور يسير بين أعمدة تسند أقواسًا عربيّة. كنت أحبّ كثيرًا هذه الأقواس. عُلّقت في الحنيات المزدانة بسيراميك أندلسي صور لمناطق يرتادها السيّاح كثيرًا. رَهبة قاعة صلاح الدين تضاءلت في الإطار العصري الذي حُشرت فيه. نظرت إلى الباحة. كانت المسافة قد غطّتها الأصوات... وفي الطابق السفلي، كان الناس مكركبين وقد انتهت صلاحيّاتهم، وأصبحوا كأبطالِ فيلم صامت فيه حركات مبالغة، لكنّ المدلّس الحاذق الهائل أخفى الكتابةَ من الشاشة.

ـ أوففف! ـ استدرتُ منهكًا.

نسيتُ الموظّفين والقلق، بل وحتى التأشيرة التي لم أحصل عليها بعد. على السقف طراطيش من الصباغ. ومصابيح تلمع بالألوان، متدلّية على شريط تدبّ عليه الصراصير. ولم تُدهن أماكن التمديدات المحفورة في الجدار التي جُصّصتْ حديثًا. كانت الكراسي بالقرب من المدافئ، وفي صالة العرض صفوف من الكراسي تبحث عن دفء الشوفاجات.

ـ بررررر ـ البرد قارس. سأقترب أكثر.

في الركن حزمة من الأسلاك تمتدّ خلف المصباح إلى ثغرة موقّتة

في السقف. صرصار يختلس النظر، أيدخلُ أم لا؟ بعد لحظة كبُر، وامتدّ ظلُّ ذيله ليصل إلى الشوفاج، واختفى.

ـ آخ! ـ قرفصتُ متهالكًا.

فجأة في ثغرة بين القرميد لمعتْ أشعّة الشمس. نظرتُ إلى الداخل. كان الظلّ المتطاول يحجب أضلاع الشوفاج بالأحلام.

كانت الجهة الثانية مَرئيّة، وحتمًا كان الحرّ شديدًا، كما في غيرها من الأيّام في شهر آب قبل الظهر. احتاج يان للحظة كي يعوّد عينيه على النور.

وكان هناك ما يستحقّ المشاهدة.

بين التلال الصحراويّة كانت تمتدّ واحة، وصخور سريعة الانحدار تحيط ببلدة، تشبه شجرة ضخمة تمتدّ جذورها عميقًا في التراب، وتتصاعد أغصانها حتى السماء.

لمن هذا المكان؟

في الساحة بازار. الباعة يصيحون، والناس يسيرون بين البسطات والعربات، الرُّعاة يسوقون القطعان في الشوارع، والفلّاحون وحدهم كانوا يحصدون الغلال على مهل، وهناك كاتدرائيّة تشرف بعلوها على هذه البلدة.

الله أكبر!

يصلها المرء من الجنوب من طريق أخدود ضيّق. وتزيّن سفوح مرتفعاتها المغسولة بفعل عمليّات الحتّ والتعرية أشرطة بألوان دافئة من شوائب المعادن يُطلق عليها بلّورات السيليسيوم. وفي الصخر نُحتت بوّابات المعابد والتيجان المزخرفة والطبلات تروي قصصًا،

وهي تبرز من الصخر مباشرة. تخيّم اليوم داخلَ هذه الأماكن المهجورة عتمة ورطوبة منعشة. ولا تزال المشاكي الفارغة فيها تشهد على آلهةٍ لا أحد يتذكّرُ اسمها، وعلى هيكل يعلوه الغبار، حَفَر الكَلمات التالية:

منامُ نبلاء عريقين: قلابق عمامات

مربوطة حول رؤوس جاءت من جراح

أحضان أمّهات لم يمسّها أحد: عذارى لذا يزحفن تحت بوّابة مسدودة

مجمّدة بغشاء البكارة: عذارى بشعورهنّ

بجلودهنّ بعيونهنّ وبروح ملقّحة من غيمة لنطفة سماويّة: ولرؤوس عشرين فتى

يقطرون بالعُري كالعظام.

ولكن: لماذا بعمامات وليس برؤوس عارية

حتى الحلم تعرّق من دهشته ببذور تحت اللحاف لم تكن ترابًا.

بل امرأة هبطت من السماء.

هناك مجرى للماء يصبّ في الأخدود، فوقه ما يشبه جسر صغير تجلس عليه مجموعة من النساء الغسّالات. بعدها فوق المزبلة كان الأطفال يتحرّشون بالكلاب الهائجة. رجل في جلّابيّة حمراء يجرّ ثورًا تشبّث في المكان لا يتقدّم.

ـ هششش! هششش!

ربطت ابنته إسفنجة بخيط وأدْلَتْها إلى الشقّ كي تعصر منها الماء على وجهها. كانت النعامة المُدجّنة تحني برأسها وهي تتدلّع أمام الناسك الذي كان يتكلّم هامسًا عند جدار الخان.

إنّي أنا الحقّ، أنا الحقّ، أنا...

لم يلتفت أحد إليه. الرجل المُبجّل وخليل الله في طرابلس، يسمّونه هنا باحتقار «آكل الأعشاب». نظر الشيخ إلى قافلة للفيلة محمّلة بأشياء ثمينة يقودها فرس وهي تسير نحو الساحة. وكما في لوحة سلفادور دالي، وقفت الفرس على قدميها الخلفيّتين فرمت الدليل الذي يقود الحيوانات. أطلّت سيّدة من هودج على ظهر الفيل كاشفةً عن عقصات منفوشة، وصدر بان منه ما كان مستورًا. من أعلى الهودج تبدو قبّة مدبّبة لكاتدرائيّة. همس أحدهم أنّ الملكة الفارسيّة قد جاءت بنفسها لطلب زيوت مباركة.

طلب البدوي من شاعر شابّ وهو ينيخ الجمل ـ أنشدني شعرًا في أوّله:

نَظرتْ عيني لحيني وزكا وجدي لبيني

كانت قافلته تسير وتقتاد بالنجوم الساطعة وسط الظلام ووصلت حين انشقّتِ السماء للفجر. فأنشد الشاعر، الذي بالكاد كنتَ ترى وجهه من سحابات الذباب التي تحيط به:

نَظرتْ عيني لحيني وزكا وجدي لبيني
من غزال قد سباني تحت ظلّ الدُّرّتين
سكب الماء عليه بأباريق اللُّجين
نظرتني سترته فاض من بين اليدين
ليتني كنتُ عليه ساعة أو ساعتين

ـ برافو... برافو! ـ صرخ حُداة العيس.

قال البدوي وهو ينْقده بالمال: سنقترحك في المسابقات القادمة،

ولا بدّ من أن تفوز!

انحنى الفتى وهو يوافق على طلب البدوي، وولّى فرحًا نحو الخان، حيث كانت لا تزال معركة الشعراء السنويّة قائمة.

ـ سيصبح نبيًّا. ـ قال حادي العيس مُتنبِّئًا، وتابع: وأخيرًا سيكون عندنا من يرشدنا للدرب الصحيح. بعدها شرع يحلب ناقة ضعيفة، دافعًا بصغيرها الذي كان يلفّ ويدور بين الأرجل.

امتلأت ساحة الخان بحشود من الناس. نوى التمر تتناثر في الساحة في كلّ مكان. أمّا شيوخ القبائل فقد هربوا من الحرّ إلى الخيام، ولوّح المشجِّعون بلافتاتهم وشارف مكتب المراهنات على إغلاق أبوابه. أمام الخيمة التي رفعت أعلامًا لبنانيّة جلست جميلة.

كم هي جميلة!!

في الرواق رفع رجل أشيب نحيل جلّابيّته، وبشكل متحدٍّ، شرع يبوّل على أحد الأعمدة. وبدأ البول يتبخر، فيمتزج بالرائحة الحامضة للنبيذ المتطاير والثوم، في الوقت الذي اتّخذت لجنة التحكيم مكانها في الإيوان. ووصل في التصفيات للمرحلة النهائيّة معلّم تعِس منفيّ من توسكانيا، وكذلك زاهد عالم ضرير، ورئيس لأسرته هناك. الجميع منفعلون، وبين الفينة والفينة تنفجر موجة صاخبة من التصفيق. وفي أثناء التصفية نصف النهائيّة تشاجر المشجّعون، فتدخّل الحرس لفضّهم. وأمّا المشاغبون الذين أهانوا الشعر بكلمات بذيئة فقد مُنِعوا من الدخول لمعركة الشعراء.

كان الشاعران يعدّان أنفسهما في الرواق المعمّد، وكان التوسكاني المُجتهد يلقي أشعاره منذ الصباح أمام المُعجبين والرواة. كان يتستّر على خوفه بحركات مسرحيّة. أمّا الزاهد الضرير فقد أقعى

في حُنيّة مزخرفة بالمقرنص، إلى أن قطع تأمّلاته عريف الحفل، الذي كان رئيس لجنة التحكيم كذلك.

ـ سيّداتي... سادتي! ـ وتوقّف كي يعطي الفرصة للجمهور أن يصمتوا. كان قد لفّ قبّعته العالية بعمامة، في الوقت لذي كانت لحيته تصل حتى أسفل صدره. كان حافي القدمين. تسلّل تحت الرواق بعض الذين تأخّروا، وقد جذبهم ما قيل إنّ المعركة ستدور حول الفردوس ـ إنّي العبد الفقير إلى الله تعالى، مستشرق الحضرة الإلٰهيّة، ومملوك الحضرة الربّانيّة، ختم الله له بالحسنى. الحمد لله الذي سلخ نهاره من ليله المظلم، وأطلع فيهما شمسه النيّرة وبدره المعتم، ونصبهما دليلين على الموضح والمبهم. في كلماتكم ـ وهنا استدار العريف المتحمّس نحو الشعراء ـ وضِّحوا عن طريق تجريد الأثواب أمام الناس، كيف يتشكّل جوهر الأشياء، وكيف تظهر مسألة غير عاديّة تعتمد على رفع الحجاب الأعلى، وهذا يعني الصعود نحو السموات، وليس الانتقال إلى مكان محدّد على الأرض. صِفوا... ـ فجأة ضرط أحدهم.

انفجر الناس ضحكًا.

ـ كفى! نريد الشعراء! ـ صرخ الرجل ذو الوشم سننام من الملل ـ حاول الذي ضرّط أن يبرّر فعلته.

انتظر العريف بهدوء إلى أن صمت الجميع. وبدأ الكلام دون أيّة عجلة، وهو ينظر نحو الشعراء: صِفُوا الأحوال نثرًا وشعرًا، كي تمنحوها شكلاً بسيطًا أو رمزيًا، ولتكن الجمل مُقفّاة ليسهُل تذكّرها. بيّنوا كيف ينكشف اللباب بتجريد الأثواب لأولي البصائر، وإظهار الأمر العجاب بالإسراء إلى رفع الحجاب، وأسماء بعض المقامات إلى مقام «ما لا يُقال»، ولا يمكن ظهوره بالعلم ولا بالحال.

وأستودعكم الله الهادي إلى خير سبيل. ـ فتح العريف ذراعيه وكأنّه يضمّ الحضور إلى نفسه، ثم غاب في ظلّ إحدى القباب.

ـ معركة حول الفردوس! مَ عْ رَ كَ ةْ، مَ عْ رَ كَ ةْ!! ـ صرخ الناس وتطايرت خلف العريف حفنات من التراب. كانت اللجنة مجتمعة في الإيوان.

ـ خخخخخ خخخ... ـ شخر أحد السكّيرين.

صعد الشاعران إلى الحلبة وبدأ المنفي التوسكاني متردّدًا:

لو اتَّسع أيّها القارئ المجال

للكتابة، لحاولت أن أتغنّى

بذلك المشروب العذب الذي ما كنتُ لأرتوي منه أبدًا.

وصلتُ حتى السماء التي تنهل من روحه

أكثر من أيّ سماء أخرى ورأيتُ أشياء ليس يقدر

أن يُعيد قولَها من ينزل من الأعالي.

ذلك أنّ فكرنا عندما يُداني

رغبته فهو يمضي بذلك العمق!

ـ أوه... أوي! ـ وسُمعت أصوات الإعجاب.

بحيث لا تقدر الذاكرة أن تلحق به.

إنّ كلّ ما صار كنزًا مكنونًا

في صميم روحي من أشياء ذلك الملكوت القدسي

سيكون هو مادّة غنائي...

ـ براڤوووو! فرافـووووو! برافـووووو! ـ حيّا الشاعر المُصفّقين، وأخذ يزداد قوّة بزيادة الإعجاب به من المستمعين، وتابع بجرأة أكثر:

أيّها الفضل الإلٰهي لو أسعفتني

ما يكفي من الزمن لأكشف عن ذلك الظلّ،

ظلّ الملكوت المبارك الذي بقي في رأسي مختومًا..

فرّ، فرفع التوسكاني يديه بانتصار وهو ينظر إلى منافسه.

ـ تابع! تابع! ـ صرخ الجمهور ـ غنِّ تلك المشروبات التي تسرّ النفس!

أشار الشاعر إلى منافسه الضرير، وانسحب في عمق الحلبة. بدأت الضحكات الساخرة في كلّ مكان.

ـ أتريد أن تتعارك أيّها الأعمى؟! ـ نقر المحمرّ الأشقر على رأسه مُظهرًا غباء الأعمى.

ـ رغم شيخوختي، فالكلّ بفضلي يوقِّر أسرتي، لأنّ جنّ شعري هو أمير الجنّ الذي يمنح قصائدي قوّة. ـ قال الشيخ الضرير بصوت خفيض، وترك مكانه بعد أن انحنى احترامًا.

ـ ما هذا الجنّ؟ هل منحكَ العمى؟! صرخت امرأة من تحت الرواق: هيّا إلى المعركة! وأرنا ما تستطيع أيّها الأعمى!

ـ تفوووو! ـ بصق الأشيب النحيل، وقال: أين القوافي أيّها العجوز القروي؟

انحنى الرجل العجوز مرّة أخرى، وأشار إلى الشاعر التوسكاني الذي بدأ بشجاعة:

بدت لي سيّدة تكلّلت بغصن زيتون

على نقابها الأبيض وارتدت عباءة بيضاء

لاح تحتها ثوب له لون الشعلة،

وإذا بروحي التي لم تعرف

من زمن طويل ما اعتادته

في حضورها من عجب وارتعاد

تحسُّ قبل أن تَتَبَيّنها عيناي

وبفضل السحر الخفي الذي كان يفيض منها

بالسلطان القوي للحبّ القديم

ساد الصمت في الساحة.

ـ بوثة! بوثة! ـ صاحت بنت صغيرة تلثغ.

ـ ها ها ها!

ـ مرّة أخرى! مرّة أخرى! ـ طغى صوت ذي العضلات على الجميع، وبدأ يلعق شفتيه. نظرت إليه السوداء الرائعة بقرف، وفكّرتْ: ماذا تعرف أنتَ عن القُبل، ولمع إكليلها تحت الشمس، وسطع على وجه الضرير كأنّه هالة.

ـ أربعة وعشرون دليلاً ـ بادر التوسكاني رغم الضجيج ـ من الذين ساروا على أثر الشمعدان خلف الطير المقدّس.

استداروا إلى العربة كمن يستدير إلى موطن أمّه.

وواحد منهم، وكان يبدو من السماء مبعوثًا

غنّى ثلاث مرّات، والجمع يردّد بعده:

«من لبنان تعالي يا عروسي»

كانوا جميعًا يقولون. . . اسكتوا! ـ صرخ التوسكاني
فسكت الجميع. . .
ـ ثم كالساعة التي تنبّهنا
لِلَّحظة التي تنهض فيها امرأة الله
من أجل صلاة السحر ليحبّها زوجها،
والنوابض يدفع بعضها بعضًا
رانَّة ومُحدثة نغمات رقيقة
حتى لتفعم الروح المتأهّبة حبًّا،
خلف باب الخان وصْوَصَ رضيع بينما أمّه النزقة تندب حظّها. . .
لكنّ الخطيب لم يُعرها انتباهًا وتابع مُلهَمًا:
إنّ رياحًا تنزل من سحابة باردة
ببالغ السرعة أمرئيّة كانت أم خافية
لتبدو بطيئة ومُلتبكة
لمن يرى آتية إلينا
هذه الأنوار الإلٰهيّة من رقصتها
التي كانت انطلقت في سماء السروفيين
ومن بين طلائعها كانت تتعالى
«هوشعنا» ساحرة حتى إنّني سأودّ
ما حُييتُ أنْ أسمعها ثانية. .
ـ يا أنتِ، قولي لي، عمّا يتكلّم؟ ـ همس النحيف إلى السمراء
ذات العينين البرونزيتين

ـ وهل هذا مهمّ؟ له وقْع جميل. انتظر... كان من المفروض أن يكون عن الفردوس... أعرف! حيث لذّة العمر تتحقّق!

ـ إيييييه... مسخرة وليس فردوسًا! «هوشعنا» ساحرة حتى إنّني سأودّ... ـ ونقر على جبينه ساخرًا. لا... هذا غير ممكن.... هذه ليست لذّة عمري.

ـ يا لك من عصري!

ـ هذه الأنوار الإلٰهيّة من رقصتها، التي كانت انطلقت في سماء السروفيين... شردت السوداء الرائعة حالمة: لا بدّ أنّهم رائعون... مثل سمعان.

ـ كيف ذاك؟ ـ اهتمّت بالموضوع السمراء.

أضافت: ـ أتعرّفينني عليه؟

ـ يستطيع الآن كلّ واحد أن يعرفه... أجابت السوداء الرائعة بشكل مبهم.

ـ كان مرّةً لي...

ـ لا أحبّ اللبنانيّات! دمدم النحيف الذي شعر أنّه أُخرج من الحوار.

في تلك الأثناء صعد الزاهد إلى الحلبة. كانت عيناه المُبيضتان قد تسمّرت في أعلى درابزين الخان، حيث هنا منخفض وهناك مرتفع...

ـ قل ماذا رأيت أيّها الأعمى؟ قال البدين المحمرّ مستهزئًا.

ـ برافووووو! برافووووو!

دفع الحرّاس الناس، وأخرجوا الذي كان يصرخ.

ـ تسقط الشرطة!! إلى بيوتكم.. إلى بيوتكم أيّها الشرطة!

ـ إنّ أصحاب الجنّة اليومَ في شُغُلٍ فاكهون، هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك مُتّكئون، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون ـ ونظرًا للهمسات، فقد سمع ما قاله الصفّ الأوّل فقط. كان النصّ يفتقد للقافية، لكنّ المجازات الحسّيّة أثّرت في المستمعين، وبدأ الناس يصغون... وأنهارٌ تختلج من ماء الحيوان (الحياة)، والكوثر يمدّها في كلّ أوانٍ، مَنْ شرب منها النُّغبة فلا موتَ، قد أمن هنالك الفوت. وسُعُدٌ من اللبن متخرّقات، لا تُغيّر بأنْ تطولَ الأوقاتُ. وجعافر من الرحيق المختوم، عزّ المقتدر على كلّ محتوم. تلك هي الراح الدائمة، لا الذميمة ولا الذائمة بل هي كما قال عَلقمة مُفتريًا:

تشفي الصُّداع ولا يؤذيهِ صالبها ولا يُخالطُ منها الرأسَ تدويمُ

ـ براڤووو! براڤووو! ـ وانفجرت موجة من التصفيق.

ـ يعيش! يعيش! يعيش!

ـ للنبيذ... الذي يعالج... عندي دوخة السَّكَر!

ـ أحمق! ماذا تفعل؟ يا أحمق، هذا النبيذ لا يشبه النبيذ الأبدي!

ـ ودلقت ذات الشعر الأحمر والعينين السوداوين على جلّابيّة السكّير شرابًا.

ـ ماذا تفعلين يا حُرمة؟

صفعته البنت على وجهه. لقد انتهى بيننا كلّ شيء يا حمار!

ـ انتظري!! وهرع وراءها وهو يضغط على قَدَحه.

ـ وفي تلك الأنهار أوانٍ على هيئة الطير السابحة، والغانية عن الماء السائحة، فمنها ما هو على صُورِ الكراكيّ، وأُخرُ تُشاكلُ

المكَاكيّ، وعلى خلق طواويس وبطّ. شجر في الجنّة لذيذ اجتناءٍ، كلّ شجرة منه تأخذ ما بين المشرق والمغرب بظلٍّ غاطٍّ، ليست في الأعين كذات أنواط. وذاتُ أنواط شجرة كانوا يعظّمونها في الجاهليّة.

تنحّى العجوز جانبًا بعد أن انحنى. وبعد لحظة هبّت عاصفة من التصفيق، وبدأ المتفرّجون ينظرون نحو الحلبة وهم يصفّقون بانتظام ودون عجلة، مأخوذين، كأنّهم غائبون في منتصف الطريق بين المعركة وفردوس الضرير.

صعد التوسكاني الحلبة، وبدأ يقفز بعصبيّة. لم يتحمّل أحد المنشدين، فصرخ:

ـ اقتله! فليمتْ هذا العجوز الذي لا يعرف القوافي!

أفاق الناس من خدرهم، وبحماس شديد استقبلوا المشارك.

ـ لا تستسلمْ.. أنت أحسن منه! شجّعه أحدهم. تردّد الشاعر، أحنى برأسه، فكانت انحناءة متراخية تدلّ على الاحتقار.

ـ ألا عودوا لتأمّلِ شواطئكم

ولا تمخروا العباب أبدًا..

فقد تتيهون إذ تفقدوني،

صرخ أحدهم مُشجّعًا: هيّا.. هيّا! إلى القتال!

ـ المياه التي أشقّ ما شقّها أحدٌ قبلي

مينرفا تبعثُ أنفاسها وأبولون يهديني

وربّات الإلهام التسع يُرينني الدّبين الأكبر والأدنى

وأنتم الأقلّ عددًا يا من مددتم

في الأوان المناسب أعناقكم إلى خبز الملائكة

الذي نغتذي هنا منه ولا نشبع أبدًا

تقدرون أن تقذفوا قاربكم في أقصى البحر

مُتَّبعين مجرى سفينتي

قبل أن يُعاود الماءُ الركود.

ـ بففو! ففففوووو!

ـ ادفعها بنفسك! أنا سأعود للشاطئ. صرخ المحمرّ البدين الذي ظهر بأعجوبة في الساحة.

ـ إلى الفـ ر د و س!

ـ ما حاجتنا إلى قاربك؟ كان يعوّل على دعوة التوسكاني له، لكنّ أحدهم همس أنّ الشاعر منفيّ مشرّد، يبحث عن عمل. ـ أجنبي! إلى الجحيم به! النجوم تدلّنا بين كثبان الصحراء!

ـ إلى الفـ ر د و س! الفـ ر د و س!

قفز العرّيف إلى المنصّة، وطلب من التوسكاني أن لا يخرج عن الموضوع، فاحمرّ خجلاً، حينها سرّ العرّيف له بكلمات دفيئة، فاختفى الاحمرار.

ـ عندما رأيتُ بياتريشي مُلتفتة

إلى يسارها تتطلّع إلى الشمس

فلا نسْرٌ حدّق بمثل هذا الإمعان

وكما نرى أشعّة ثانية وهي تصدر

من الأولى وتمضي صعُدًا

أو كما يريد مسافر العودة لوطنه

فهذا من إيماءتها المرتسمة

في المخيّلة عبر العينين وُلدتْ إيماءتي أنا

فحدّقتُ بالشمس أكثر ممّا يتأتّى الإنسان أن يفعل!

فجأةً بدا كما لو كان انضافَ

إلى النور نور فكأنَّ القدير

زيّن السماء بسماء أخرى

بملء عينيها كانت بياتريشي ترنو

إلى المدارات الأزليّة وأنا أرنو إليها

متخلّيًا عن كلّ ما كان يعلوها. .

ـ يا حبيبي كان من المفروض أن تتكلّم على الفردوس! ـ صرخ ذو العضلات ـ اترك بياتريشي في حالها! أنت من يرنو إلى وجهها!

وتدفّق التصفيق مدرارًا.

ـ إلى المسابقة. . خُذْ مكان العنين! صرخ الناس.

بكت السوداء الرائعة، في الوقت الذي خرج شيخ القبيلة من خيمته.

أدعوك للعمل لي! قال لذي العضلات وهو يهزّ بكيس النقود. . وأنا أدفع جيّدًا. عدوّنا يبثُّ أشعارًا تُشهّر بنا، سيندمون! أولاد الكلب! يريدونها معركة؟ حسنًا! انظر هذا شعرهم. كتبه عميلي عندما كان يلقيه أحد الساقطين. نظّمْ شعرًا أحسن منه. سأردّ لك الجميل. . . ورمى شيخ القبيلة بالنقود إليه. ينقصنا شاعر عظيم، علمًا أنّي أعلنت عن

طلب عروض، ولكن مع ذلك إذا وافقتَ ستحصل على العمل أنتَ، ها.. ها.. ها! أنا أدفع للجنة التحكيم لذا لن تردّ طلبي... ما تقول؟ ستكون شاعرنا؟

ركضت السوداء الرائعة إلى الخيمة.

ـ دعه يعشق بياتريشي، فالحياة مليئة بالمفاجآت... همس مارين، دون أن يزيح نظره عنها.

ـ وغيداءَ إبريقٍ كأنّ رُضابها   جنى النحل ممزوجًا بصهباء تاجر

وكم على تلك الأنهار من آنيّةِ زَبَرجدٍ، وياقوت خُلقَ على خلْقِ الفُور (الظباء)، من أصفر وأحمر وأزرق، يُخال إنْ لُمسَ أحرق

ـ رائع... تنفّست الرائعة الصعداء. ـ رضابها جنى النحل... أريد ذلك أريده... ـ ظفرت حول أصابعها جلنار الرمّان وحنّة بيضاء. انتبهت فجأة لمارين.

ـ أنت أيّها الكلب اللجوج! شتمته، وأسدلت ستارة الخيمة.

ـ أخ... أخ! رضابها.. أوخ! سال لعاب النحيل وهو يلعب في حمّال صدر السمراء.

ـ فأمّا الأنهار الخمريّة، فتلعب فيها أسماك هي على صور السمك بحريّة ونهريّة، وما يسكن منه في العيون النَّبعيّة، إلّا أنّه من الذهب والفضّة وصنوف الجوهر المقابلة بالنور الباهر. فإذا مدّ المؤمن يده إلى واحدة من ذلك السمك، شرب من فيها عذْبًا لو وقعتِ الجُرعة من في البحر الذي لا يستطيع ماءه الشارب، لَحَلتْ منه أسافل وغوارب...

تصفيق مسعور كافأ الشاعر.

ـ يحيا! يحيا الأعمى! معًا إلى الفردوس معكَ!... صرخ الناس. انحنى الشيخ الوقور وانسحب.

تدافع أحدهم، حتى وصل إلى الحلبة وهو يصرخ محاولاً أن يطغى بصوته على التصفيق: أرِهم ما عظمتك! ولا تسمح للمرتدّين بالانتصار... يسقط شعرُ حُداة الجِمال!

نظر عدد من البدو بشراسة، فصمت. نهض التوسكاني المنفي من غير ثقة بنفسه في الحلبة.

التفتُّ إلى الشبح الذي كان يبدو لي

أكثر شوقًا للكلام وبدأتُ

كرجل تتعتعه رغبة كبيرة!

أيّتها الروح الرائعة التكوين يا من تحسّين

في نور الحياة الأبديّة بهذه العذوبة،

التي لا يمكن أن يدركها من لم يذقها.

حبّذا لو أفرحت قلبي

بأن تقول لي اسمك ومآلكم هنا

ـ أكملْ...! صرخ المحمرّ البدين.

صعد عرِّيف الحفل للحلبة وطلب من الجمهور أن يصمتوا، وهدّد باستدعاء الشرطة إلى الصالة.

ولكنْ خبّريني: أنتم يا من تعيشون هنا سعداء

أو ترغبون بمحلّ أعلى

لتروا فيه بأفضل وتحبّوا بأفضل؟

فابتسمت قليلاً صحبة الأرواح الأخرى،

ثم أجابتني سعيدة بحيث تبدو

كأنّها تشتعل بأولى نيران محبّتها

أيّها الأخ إنّ رغائبنا لترضيها

إرادة الحبّ فينا فلا نرغب

إلّا بما لدينا ولا نظمأ لسواه،

وإذا ما رغبنا بمقام أعلى

فإنّ رغائبنا ستخالف

مشيئة من يحدّد مواقعنا..

وهذا ما لا يمكن أن تراه في هذه الدوائر

حيث تقضي الضرورة بأن نحبّ

إنْ أنت أحسنت فحص طبيعتها

أن نتمسّك بالإرادة الإلٰهيّة

فلا تصنع رغائبنا سوى رغبة واحدة...

صعد الضرير إلى الحلبة مهتاجًا وشرع يصرخ وهو يدفع التوسكاني: بالإرادة الإلٰهيّة رغبة واحدة؟! لا! لا! اسمعوني! ـ وبدأ الكلام يغصّ في حلقه: هذا ما قاله لي ابن المنصور الذي رافقني في الفردوس: جارية حوراءُ، عيناءُ، تبرق لحسنها حوريّات الجنان. على حسنها ضاوية من ورائها رِدفٌ يضاهي أنقاء الدّهناء. يا رازقَ المُشرقة سناها، ومبلغ السائلة مُناها، والذي فعل ما أعجز وهال، ودعا إلى الحِلم الجُهَّال، أسألكَ أن تقصُر بوصَ هذه الحوريّة على ميلٍ في

ميل، فقد جاز بها قدرُكَ حدّ التأميل. فيقُالُ له: أنت مُخيّر في تكوين هذه الجارية كما تشاء. فيقتصرُ من ذلك على الإرادة.

ـ فجأة لمعت في بالي فكرة، قال التوسكاني بسخرية ـ وكان قد استمع بهدوء للرجل المعوّق:

بأنّه في كلّ السموات فردوس غير أنّ البركة ترشّ. .

ولكن كما يحدث أن تشبعنا كسرة خبز

وتظلّ فينا الرغبة لكسرة أخرى

فنطالب بالثانية ونشكر الأولى

فهكذا تضرّعت بالإيماءة والقول

لأعرف منها ما هو النسيج

الذي لم تمض في نسجه حتى منتهاه.

ـ ها. . . ها. . . ها! ـ انفجر الناس ضحكًا.

ـ يا عجوز أيمكن إصلاح الفردوس؟ نادى المحمرّ البدين. .

ـ فليذهب إلى الجحيم! هذا تهويل للأشياء هذا! ـ صرخت الأمّ، التي نجحت أخيرًا أن تنوّم رضيعها، وتابعت: عجيزتي ملكي! وتمطّت بسعادة، أوي!! واغتبطت الأمّ النزقة بملء شدقيها، ومن الأذن اليمنى التي حرقتها الشمس حتى أذنها اليسرى. هل كان عندها حقّ أن تحدّق في الأشيب النحيل مقابلها، مُهملةً زوجها الملول؟

في هذه الأثناء جرّ عرّيفُ الحفل الضرير إلى عمق الحلبة. وبدأ التوسكاني وقد شجّعه تعاطف الناس معه:

ـ إنّ نورًا لَيُحيل هناك الخالق

مرئيًّا لكلّ مخلوق

لا ينال سلامة إلّا برؤيته

نور ينتشر بشكل دائري

ومن الامتداد هو بحيث سيصنع

قطرُ دائرته حزامًا للشمس مفرط السعة

كلّ ما نراه منه مكوّن من أشعّة

تنعكس من ذرّة المحرّك الأوّل

الذي يستمدّ منه حياته وقوّته

وكما يتمرأى كثيب في المياه

الجارية أدناه ليرى نفسه كامل البهاء

عندما يزخر بالخضرة وبالزهور

فهكذا رأيتُ جميع من يعودون منّا

إلى العلى يتمرّأون هناك

في آلاف الأدراج مطلّين على الأنوار المحيطة

فإذا كان أدنى درج يستقبل

نورًا يمثّل هذا الامتداد فما أوسعها

هذه الوردة في أوراقها القصيّة!

انحنى الشاعر وانسحب.

ـ ورود. . . مرود. . . ـ سخر ذو العضلات مفاخرًا أمام شيخ القبيلة وتابع: هاتوا لي عشيقات فردوسيّة!

ـ أيّها الماكر! قالت السمراء للنحيل.. عنده بياتريشي وللآخرين لا شيء! ـ وشمّرت جلّابيّة الرجل الذي جنّ بالشهوة.

هنا بدأ الضرير كلامه بهدوء:

ـ عندما تخرّون سُجّدًا أمام الله، ستسمعون صوتًا يقول: ارفعوا رؤوسكم فقد مضى الوقت وليس هذا مكان للصلاة. لن تفكّروا بعد اليوم بما لا تحتاجونه. سيطوف عليكم ولدانٌ مخلّدون تحسبهم لؤلؤًا منثورًا، بعدها يقول: خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها فإنّ هذا الشجر يُعرف بشجر الحور. فيأخذُ سفرجلةً أو رُمّانه، أو تفّاحة، أو ما شاء الله من الثمار، فيكسرها فتخرج منها جاريةٌ حوراء.. عيناء تبرق لحسنها حوريّات الجنان، فتقول: من أنتَ يا عبد الله؟ فيقول: أنا فلانٌ بن فلان. فتقول: إنّي أُمنّي بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة. وهكذا تصبح أجمل ممّا كنت عليه.

ـ وهو كذلك! عشيقات صبايا خلال ألف سنة! صاح ذو العضلات.

ـ نريدُ فردوسك! قدنا أيّها النبي! قال النحيف بعد أن دفع السمراء.

ـ قُدْنَا! قدنا! ردّد الحشد. انحنى الشاعر، وانسحب.

ـ أيّها النبيّ قدنا! صرخ المتفرّجون.

أنهى العرّيف المعركة، وذهب الحُكّام لمناقشة الحكم. والتفّ عدد من المعجبين حول التوسكاني. وبدأ يندب حظّه.

ـ ثم قال لي: إنّ الوعي المغشى عليه

بخطيئته أو بخطيئة الآخرين

سيجد كلامًا كثير اللذاعة

ومع ذلك فلتتجرّدْ من كلّ كذب

ولتظهر إلى النور رؤيتك بكاملها

تاركًا الناس تحكّ نفسها حيثما أصابها الجرب

فإذا كان كلامك في البدء مريرًا

لدى أوّل مذاق فسيترك من بعد

وما إن يتمّ هضمه للحياة قوتًا

فلتغدُ صرختك كمثل الريح

التي تضرب أقوى ما تضرب الذرى العالية

وما هذه مناسبة للشرف ضئيلة!

أخذ أحد الرواة يتلاعب بما سمع وهو يقود الشاعر نحو الخارج، فقال:

ـ صرخته ستضرب أقوى ما تضرب الذرى العالية، وهذا سيمنحكم شرفًا رفيعًا.

في الوقت الذي كان فيه الضرير يسرّ لتلميذه المُفضّل في إحدى حنيات الرواق:

ـ أتعرف ما الجنّة؟ إنّها عالم الإيمان وجنّات النعيم، وجه الله والرؤيا تأمّل الوحدانيّة، وعذارى الجنّة هي العقل، والطاعة والاستسلام هما السلطة العليا، وشجرة الجنّة: قوّة عقل الصالحين، وأنهار الجنّة هي أرواح الأتقياء. واعلمْ أنّ قصور الجنّة ما هي إلّا فضائل النبيّ. والحواري هي لحظات النشوة والولدان لفحات من

الأفكار النقيّة، والعبيد رائحة هبوب الفكر، وسجّاد الجنّة مجاز، والزخارف والحرير صور رمزيّة. الزخارف فضائل، والثياب الخوف من الربّ، والساقي هو السيّد، والخمر هو التنوير.

كان التلميذ يبجّل معلّمه الشيخ، ولكنّه نسي كلّ شيء رغم التمارين.

في الساحة بدأ الإعداد للمهرجان الذي يُتوقّع أن يستمرّ حتى الصباح. وكما تفرض التقاليد فإنّ قرارات لجنة التحكيم كانت تُعلن بعد غياب الشمس، وكان النصّ الفائز يُطرّز بخيوط الذهب على الحرير، ويعلّق على حجرة قديمة. بعدها يلقي الفائز خطبة، ويقدّم شيوخ القبائل هداياهم ليجرّوا الفائز لقبيلتهم، فيشهرها بين القبائل حين يجعل منهم أبطالاً لقصيدته التالية. يبدأ الرواة يحفظون عن ظهر قلب القصيدة الفائزة، ولم يكن نادرًا أن يضيفوا لها شيئًا من عندهم.

فليذهب رُعاة الحفل إلى كوات الصرف! والمرشّحون إلى الاختبار! ـ بدأ السكرتير بتسجيل الأسماء لأنّ المرشحين للمعركة التالية، بدأوا يتجمّعون في الرواق. وجد البدوي شاعره المُتباري، دفع العربون ثم ذهب للتسجيل. كاد الشابّ يطير فرحًا.

ـ شكرًا! شكرًا! سأفوز لكم في المعركة التالية!

توجّهت السمراء الرائعة نحو الكاتدرائيّة، بثوبها الفضّي غير المهندم، وإكليلها المائل، فكادت العيون تفيض دمعًا. إمّا الآن... وإلاّ فلا، وتبع مارين الرائعة السوداء، بشعره الفاتح الذي يفضح جذوره البربريّة.

كان الطريق من الخان، يمتدّ إلى الوادي عريضًا كساق شجرة ضخمة تمتدّ أغصانها نحو السماء. وكان فرعه الشرقي ينتهي ببوّابة

تجمّع أمامها حشد يتضرّع. وكان شِعب من الشعاب يؤدّي إلى الأعلى نحو الناسك الواقف على عموده. كان الناس يتدافعون للدخول يريدون اقتحام الباب وهم يهدّدون بأياديهم. كان راهب ضعيف البنية يقوم بدور البوّاب يقول:

ـ لا! لا تستطيعون الآن الدخول، يمكنكم بعد ذلك، أمّا الآن فلا! ـ وكان الحزام المصنوع من سعف النخيل قد ترك أثره الدامي على خصر الراهب.

تراجع الجمع طائعًا. رجل مُعوّق، مقطوع الرجلين، قفز ببهلوانيّة على عكّازٍ ليحافظ على توازنه، وبالعكّاز الثاني ضرب من بجواره من المرتبكين، وهو يتقدّم للأمام نحو البوّابة. وانطلق أعمى يجتاز الطابور بخطوط ملتوية، وبشكل يدعو للعجب. وحاجّ أثقَلته السلاسل، فزحف على أربع، وكانت الدماء ترشح من تحتها. فتى يافع شدّ إلى رجليه حجرًا. صرخ رجل وسيم بسخط على الحجّاج:

ـ لا ترهقوا أنفسكم فأنتم لا تصلّون لأصمّ أو لغائب، نادُوا ذلك الذي يسمع ويرى كلّ شيء.

ـ لم يُعرهُ أحدٌ أيّ انتباه. زعق الأعمى، عندما سحقت عربة أحد الوجهاء رجله، فدفع المعوّق «الخدوم» بعكّازه، واحتلّ مكانه. في خرائب أحد الأضرحة، سرق وجيه مجدورٌ كيس نقود من قائد روماني في أنطاكية المجاورة.

استغلّت امرأة، ترتدي ثياب الرجال، واختلطت مع ابنها في هذا الحشد. فجأة انتبه المجدور لهذه الحيلة، فصرخ وهو ينزع ثيابها: امرأة! امرأة!

فتجمّع حولها الناسُ يصرخون: يا للعار! يا للعار!

فصرخ الفتى وهو يستر المرأة الملتفّة على نفسها المطروحة أرضًا: قفوا! طفل أو نغِل سوقيّ، لكنّي سأدافع عن رحم أمّي كما يليق بالابن. السواد أو البياض: هذا مصيره، علمًا أنّ الزغب يعلو شفتيه.

صعد الزنجي فوق الصخرة، وشمّر عن ثوبه، ثم ابتدأ ينحني مقلّدًا بسخرية الناسكَ فوق العمود.

ـ ها! ها! ها! ـ ضحك الناس، وعندما تمكّنت المرأة من الهرب، قفز من فوق الصخرة وهرب، واختبأ في المغارة وهو يقول:

ـ حين أكبر سأصبح عموديًّا كذلك... وستزحفون أمامي كالديدان!

ضمّته أمّه إلى صدرها وهي تقول:

ـ لا تترْكني كما فعل أبوكَ، لم يبقَ لي سواكَ!

زنجي قويّ البنية يرقص في أحد أزقّة السوق، وفي بطنه سكّين، والموسيقيّون يقرعون الطبول بانفعال، فيتصاعد اللحن... بُمبم! بم! بمبم! بم! بم! فجأة سقط الراقص. كتم الزنجي الصغير صوت أمّه. في تلك الأثناء نهض الرجل، ولعق جرحه، وسحب النصل، فغاب الجرح والتأم من فوره. بدأ الناس يتدافعون، ويصرخون:

ـ مُعجزة! انظروا للمعجزة! هذه حقيقة وليس شعرًا!

جاء المحمرّ البدين بالكلاب، فانشقّ الناس عن بعضهم، وفتحوا طابورًا. كانت الكلاب تتشمّم المتفرّجين. علّم الزنجي كيف يُري أماكن الجروح التي تظهر وتختفي. من يتقدّم ينحني ويدفع قرشًا ثم يلمس مكان الجرح. كان يحكّ أحدهم أحيانًا حوافّ ثيابه. القائد ذو ندبة على وجهه يعرض خنجرًا مرصّعًا. ويقدّمه للبدين الذي صفّر بدوره للكلاب، وقال:

ـ خذْ. سيكون مظهرك جميلاً! وبقي الضابط مدّة طويلة، وبدون انتظار لدوره، يمسّ ويمسح على الزنجي.

تجنّبت السوداء الرائعة هذا التجمّع، وقالت وهي تنظر بعيدًا في الأفق نحو الولي: ـ كيف جاء المحمرّ إلى هنا قبلي؟! وقد كبّر رأسَك هذا الحشد اللعين! سبعمائة زوجة من الأميرات وثلاثمائة من العاديّات... قولوا له إنّي مريضة بحبّه.

وكان الناس لا يزالون يتزاحمون باتّجاه الراهب.

ـ لا... لا تستطيعون الآن الدخول، يمكنكم بعد ذلك، أمّا الآن فلا. كان يحاول أن يعلو صوته على الضجيج.

تراجع الجمع طائعًا، فجأةً انفتحت البوّابة، واقتحم الحشد موكب للشرقيين. يقال إنّه شيخ ثري تضرّع من أجل الصحّة لابنه.

كان الدم يسيل من قدم الولي اليسرى، وقطرات كثيفة تقطر من العمود، المُتحفّر بتأثير لمسات الحجّاج وتضرّعاتهم، بينما كان الراهب يجمع الدم في إناء وضعه أسفل العمود. اقترب الشيخ من العمود وانحنى أمامه. وأشار لمحفّة ابنه. نظر الوليُّ إلى المريض، فسقط صرصار من الجرح المقدّس، التقطه الشيخ ووضعه على عينيه وشفتيه وصدره وعجيزته، فتحوّلت الحشرة إلى لؤلؤة. وقال الوليّ للمستلقي: انهض! فنهض المريض للحال، وانحنى للوليّ، وأخفى اللؤلؤة في جيبه. وشرع الشيخ يصرخ وهو يشقّ طريقه وسط المتضرّعين:

ـ معجزة! معجزة! افرحوا أيّها الناس! ابني يمشي! فليأكل الجائع منكم حتى يشبع، ومن لا أحد يرعاه فليتقدمْ للعمل عندي، ولن ينقصه شيء عندي!

أشار الابن لأبيه، وربط الأحصنة، وبعد أن رمى بضع دريهمات، قال:

ـ لا تبالغ يا أبي!

وتابع الأب باستسلام: كُلوا حتى تشبعوا!

وتخليدًا لهذا الحدث أمر الشيخ أن يُزيّن المعبد في بلاده ببرجين سامقين يذكّران بعمود الوليّ. وقد تجشّم الكثيرون من بعده هذا العناء وجاهد. ووسط هتافات الحاشية في بحر من الغبار، كان الأب وابنه ممتلئين إيمانًا جديدًا، ينطلقان مسرعيْن، على درب تشبه غصن شجرة ضخمة تطال السماء. قفزت السوداء الرائعة بصعوبة. ومارين يرمي بسهامه وراء الشيخ، لكنّه أصاب نعامة مُروّضة، وانفجرت البنت بالبكاء.

ـ بُووووو! بووووو!

في الغور الغربي، غفا البدو متدثّرين بالجِمال.. كان المُخيّم محاطًا بغابات النخيل، وحين كان الهواء المحمّل بالروائح الآسنة يهبّ من ذلك الجانب، كان يختلط بروائح باهتة للفواكه، فليس من الممكن السكن في الواحة.

أمام الخيمة كان بائع جوّال يحكي عن رحلاته. ريش الطاووس يلمع بألوانه، وكان السجع يهدهد البدو الرحّل للنوم، ولم ينتبه أحد كيف تسلّلت السوداء الرائعة، يتبعها مارين.

ـ لا . . لا تستطيعون الآن الدخول، يمكنكم بعد ذلك، أمّا الآن فلا! ـ علا صوت الراهب. وتراجع الجمع طائعًا، كي يتجمّعوا بعد لحظة، وليتقدّموا نحو البوّابة.

كانت الدرجات المحفورة في الصخر توصل إلى كاتدرائيّة مهملة. مُثمّنٌ هائل يحيط بأربع بازيليكات باتّجاهات العالم الأربعة. كانت القبّة الرئيسيّة تستند على أعمدة صُفّت على شكل بيضاوي. ويكلّل

السقفُ كوخ الوليّ. الجمال الباهر للرواق ينفتح على حنيّة ثلاثيّة محرابيّة، تسدّ البازليكا المتّجهة نحو الشرق. أمّا الممشى والباب المستند على الأقواس، فكان متّجهًا نحو الواحة. كانت الواجهة الغربيّة للكاتدرائيّة مزيّنة بشرفة تطلّ على منظر رائع، وكذلك على الخان والساحة. كانت السوداء الرائعة متعبة، فاتّكأت على الدرابزين. وفي لحظة عدم انتباه كان مارين قد صعد دون أنْ يلحظه أحد. في الأسفل كان العرس مستمرًّا، وكانت الروائح تجيء من خيمة مفتوحة.

ـ إذا اتّفق الزوجان أن يتزوّجا لأجل مسمّى، فإنّه يستمرّ ثمانية وثمانين يومًا، ويمكنهما أن يُمَدِّداه إذا رغبا في ذلك، ولكن إذا رغبا في الافتراق، فليكن ذلك بلا مشاكل، وبناء عليه أسألكِ أيّتها الجميلة: هل تريدين هذا الكريم زوجًا لك لأجلٍ مُسمّى؟

ـ نعم أريده.

ـ وأعود لأسألكَ أنتَ أيّها الكريم: هل تريد المدعوّة هنا «جميلة» زوجةً لك، لأجل مسمّى؟

ـ نعم أريد!

ـ أنتما إذًا زوج وزجة، أحبّا بعضكما وافرحا لكونكما معًا، إلى أنْ يُبعد أحدكما الآخر!

جلس الضيوف حول المائدة. حمل الكريم جميلته على يديه، وأخذها إلى الخيمة، وأسدل الستار. بنت صغيرة ذهبت إلى المدخل لتسترق النظر هناك، فجعل القاضي يضحك لذلك.

قالت السوداء الرائعة وهي تستدير بعصبيّة:

ـ لماذا ليس أنا وهو؟ أنتَ أيّها المغرور! لو قرعت حينها بقوّة

أكبر ـ وجلست على ركبتيّ. ضغطت على يديها كأنّها تستعدّ للصلاة، وبدأت تتمايل برفق. اختلط ثوبها مع الفسيفساء على الأرض. اصفرّت الأصابع وبرُدتْ، كرخام الشرفة المطلّة على المنظر الرائع. نظر مارين إليها وتذكّر نبوءة يونانيّة حفظها عندما كان شابًّا:

هذا الذي يجمع السحب

طلب من أفروديت أن يكسوها بالجمال

ويصبّ فيها لواعج الحنين التي تؤجّج هموم العشق،

وأمر رسول الآلهة هرمز بوضوح

امنحْها أفكارًا مُراوِغة وكذا أفعالاً ماكرة

هذه الجميلة لم تدخله أبدًا إلى خيمتها.

ـ في الليل على فراشي طلبتُ من تُحبّه نفسي فما وجدته. إنّي أقوم وأطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع أطلب من تحبّه نفسي. طلبته فما وجدته. وجدني الحرس الطائف في المدينة، ضربوني جرحوني. حَفظَةُ الأسوار رفعوا إزاري عنّي. لم أجد من تحبّه نفسي فإذا رأيتموه أخبروه بأنّي مريضة حبًّا... كنتُ كذلك ولست مريضة حبًّا الآن. سألّقنك درسًا لن تنساه! ـ قالت مهدّدة سمعان.

ـ هكذا إذًا، تفضّلينه عليّ؟!

ورماها مارين أرضًا وهو يقول: أين المفرّ؟

الرائعةُ لم تقاوم، وسقط الإكليل من على رأسها، وراح يتدحرج نحو الوادي، وانساب فستانها فوق الفسيفساء، وذاب الجسد العاري مع المرمر. اختفت المرأة. فرشخ مارين رجليه مستلقيًا على الأرض.

يُقال إنّ الوليّ ربط نفسه يومًا إلى العمود، كي يعطي الجسد

شكل الخدمة اللائق به. اليوم، بعد أن صار مُحاطًا بالنِّعم، وأصبح جسده نفسه كالعمود. في أيّام الجُمَع كان الولي، منذ المساء وحتى الصباح، يظلّ رافعًا يديه. وفي أيّام الصوم من كلّ سنة كان يقضي عشرين يومًا واقفًا، وعشرة أيّام مقرفصًا، وعشرة نائمًا، دون نوم أو طعام. خلال الليل وفي الأيّام العاديّة كان يسجد متعبّدًا حتى الساعة التاسعة، وهو يهمهم بلغة غريبة، لأنّه لم يكن من تلك الجهات. وقد كان فيما مضى شابًّا فائق الجمال، والأروع بين الآلاف، وكانت خصلات شعره كأغصان النخيل.

كان تاج العمود قد أغلق الدرابزين، ومن الأعلى تعلّق خرطوم مياه. وهناك حبل رُبط فيه زِقّ وسلّة، في فراغات في الجدران كانت تُجفَّف تماثيل من البراز للوليّ الصالح. الزرقاء منها كانت للرومان والخضراء لسكّان المنطقة.

يُقال إنّه كان يقوم بخدمات عامّة، فيما تبقّى من الساعات كان يُملي رسائل للأساقفة، ويعظ الجماهير ويصغي لصوت الحجّاج. كان الناس يتجمّعون في أسفل التلّ ويستمعون إليه.

يُقال إنّه كان يقوم بخدمات عامّة، فيما تبقّى من الساعات كان يُملي رسائل للأساقفة، على أحد الرهبان المتحمّسين ويعظه، ولم يستقبل الحجّاج.

ـ لا... لا تستطيعون الآن الدخول، يمكنكم بعد ذلك، أمّا الآن فلا. علا صوت البوّاب محاولاً ضبط الضجيج. وتراجع الجمع طائعًا، كي يتجمّعوا بعد لحظة ويتقدّموا نحو البوّابة. الحُجّاج يتدافعون للدخول، وهم يهدّدون بأياديهم. كان الطريق أمام البوّابة يتلوّى، وكأنّها غصن صغير شجاع يصل من قمّة الشجرة إلى السماء. كانت

هناك قبل الدخول نقطة مراقبة. كان الراهب المتحمّس يقدّم كرسيًّا، ويطلب الانتظار مكرّرًا بأنّ هذا المنفذ مخصّص لكَ فقط.

في ذلك الوقت كان الرجل المقطوع الرجلين يرعى عنزة أمام الكاتدرائيّة. لم يكن للرائعة أيّ أثر، حتى إنّ البدو لم يعثروا على إكليلها.

ما كلّ هذا إلّا أشباح، فكّر مارين وهو ينهض، الرغبات والشمس والرياضة المُهملة...

ـ بئر! ـ طرد العنزة، وغطّس رأسه في سطل فيه ماء بارد.

حدّثه البوّاب في الفندق عن اليهود التائهين الذين عثروا على الولي، في زمن، كانت الغزلان فيه تسكن الوادي. لم يكن عمود بعد! وكان الولي يسكن في كوخ يحيي العابرين ويسمع، ويعدهم بدليل يريهم الطريق كي لا يبحثوا عنها. حين حلّ المساء ظهرت سِباع رافقت الرحّالة كأنّها كلاب طائعة. وقد مجّدوا اسمه في لبنان وجبل لبنان بل حتى في القسطنطينيّة البعيدة. عندما ازداد عدد المتضرّعين، هربت الغزلان. قيل إنّ شَعر الولي يعالج العُنّة. في الليل قام أحدهم بنتف شعر فخذه. موّل فاعل خير مشهور بناء العمود. قام الحجّاج ببناء السلّم، وظهر الراهب المتحمّس في الوقت المناسب تمامًا. كان غائر الوجه، قصير القامة، يعرج على رجل واحدة. لم يكن لابسًا ثياب الرهبان، كان يخفي وراء نظره الثاقب شيئًا من الاستهزاء. قدم أشخاص آخرون، ونشأ الدير. أحيط العمود الجديد بسور. وكانت تماثيله تباع قبل شهر من صناعتها. حصل أحد المرابين على قرض، بعد أن وضع لحية الولي رهنًا. وبدأت حركة بناء الفنادق، وبسرعة نشأ السوق. اليوم يملأ الناس الوادي. كلّ فرد كان ينتظر أن يُطلب، وهو

يصدّق أنّ المنفذ كان مخصّصًا له فقط.

ـ خسرتها... ـ تأتأ مارين، وتمدّد على أريكة فندقه الفخم.

ـ إذا كان كذلك سأنظر.

في مخيّم البدو كان التاجر الجوّال يحكي قصّة ملكة الإسماعيليين. كانت ملكة تَعِسة. خرير الساقية. زيوت الولي تساعد المرء أن يصبح أبًا. خرير الساقية. الولي لا يقبل النساء. خرير الساقية. ويُحظّر على النساء الذهاب للولي. أرادت ملكة الإسماعيليين أن تُنجب طفلاً، وأرسلت رسولاً للولي للتوسّط لديه. لم يمض وقت طويل حتى ولدت المرأة، بعدها أرسلت ابنها مع رسول ليقول إنّه السنبلة: بين الآلام والدموع تقبّلتُ بذور الصلوات، وآمنت وتقبّل الله دعائي، وبفضلك أيّها الولي أنجبتُ الثمار. وها أنا أرسل لك معماريًّا ليبني عمودًا، وليكن هذا العمود رائعًا.

انهار العمود المُفرط، قبل الانتهاء من بنائه.

في ممشى الكاتدرائيّة جلس شاعران جاءا من مدينة من شرق الصحراء المؤدّية إلى روما. روما التي شارفت أبديّتها على الأفول.

ـ أعطني خبزًا يا أخي! قال أحدهما للآخر. وتساقطت من السماء أوراق الجلنار الحمراء والحنّة البيضاء، مُقلِقةً للعنزة.

ـ هذا آخر رغيف. تفضّل خذه، فنحن إخوة، رغم أنّي أحكم عليه بالفناء.

ـ هذا الخبز ـ أجاب... سيختلط في أحشائي، وعندما سأتمتم بالصلاة وأستردّ منه ذرّات الخالق، ففي بطني وحيٌ.

ـ بالحقيقة نطقتَ يا أخي، فلن تبكي غلال الأرض حين تقتات بها.

ـ يا أخي! وتصاعد التوتّر وسط السكّان. . . ـ الراعي المقطوع الرجلين لم يسمع الحديث من بدايته بكلّ أسف. ـ ومنذ ذلك الوقت وعدد أتباعه، وأتباع النبيّة التي تدّعي النبوّة مثله، في ازدياد. كانت المعارك تنتهي بصراعات، رغم أنّي سمعتها كيف تدعو للوفاق. فنصحته: اضرب خارج بلد قبّة من الديباج الملوّن وافرشها بأنواع الحرير وانضحها نضحًا عجيبًا بأنواع المياه الممسكة، مثل الورد والزهر والنسرين والفشوش والقرنفل والبنفسج وغيره. فإذا فعلتَ ذلك أدخلت المباخر المذهّبة بأنواع الطيب مثل عود القمار والعنبر الخامّ والعود الرطب والعنبر والمسك وغير ذلك من أنواع الطيوب، وأرخِ أطناب القبّة حتى لا يخرج منها شيء من ذلك البخور. فإذا امتزج الماء بالدخان، فاجلس على كرسيّك وأرسل لها. . . وأضفت قائلاً: واجتمع بها في تلك القبّة أمن وهي لا غير. فإذا اجتمعت بها وشمّت تلك الرائحة ارتخى منها كلّ عضو وتبقى مدهوشة. فإذا رأيتها في تلك الحالة راودْها عن نفسها فإنّها تطيعك. فإذا نكحتها نجوت من شرّها وشرّ قومها. فلمّا قدّمت عليه أمرها بالدخول إلى القبّة فدخلت واختلى بها. وطاب حديثهما وهي داهشة مبهوتة. فلمّا رآها على تلك الحالة سألها عن الوضعيّة التي تريدها في النكاح وسيلبّي رغباتها. فقالت: به أجمع هكذا أنزل عليّ يا نبيّ الله!

ـ يا أخي وماذا قالت النبيّة لقومها؟

ـ ماذا قالت؟ ـ توقّف قليلاً كأيّ خطيب مجرّب، كي يزيد من التوتّر في اللحظة المناسبة، وقال: جمعت تلاميذها في ساحة محاطة ببيوت ذات سقوف مستوية لا نوافذ فيها من جهة الشارع، بالقرب من القلعة ذات البرج المربّع والمنارة، حيث كانوا يشعلون النار فيها فيصبح إشارة للفرقة العسكريّة، وإنذارًا للعدوّ، ثم: والتقت بقومها

فقالوا لها ما الذي رأيته منه يا نبيّة الله؟ فقالت لهم إنّه تلى ما أنزل الله عليه فوجدته على حقّ فاتّبعته، فاتّبعوه أنتم كذلك.

ـ الحقيقة يا أخي أنّ الوحي ليس هبةً، وإنّما يتمّ في الجسد. الحمد لله الذي خلق أعضاء بسيطة كالرمح، كي تُغمد الفرج، ولنحمده بما يستحقّ من الحمد. فلنضرب ونسحب ولنطالبْ ونقرع الأبواب، ولنسعَ أن تكون الضربات اللطيفة بعد القويّة. لتتوجّه الروح نحو الجسد وليمتلئ الجسد روحًا. كلمات وحواسّ. اللوجوس والأيروس... للوحي شكل الشعر وهو فينا أيّها الشاعر ويا أخي...

ـ فهمت من كلّ هذا الخيمةَ والعطور.. قال الراعي بنزق.

ـ أيمكننا مساعدتك في شيء أيّها الإنسان الصالح؟ سأل الشاعران في الوقت نفسه.

ـ من أين لكما أن تعرفا أنّني إنسان صالح؟ على أيّة حال، الغاوون هم من يتّبع الشعراء. ألم ترَ أنّهم في كلّ وادٍ يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون؟... وكانت العنزة قد تشربكت بين الأرجل والراعي ينظر إليها. ـ أفنترك الله ربّ العالمين لأجل شعراء تلبّسهم الشيطان؟ سيأتي زمن ينطق فيه نبيٌّ ورسولٌ كريم، ولن ينطق بكلام الشعراء أو الكهنة، بل بوحي من عند الله.

ـ بعد أن ختم الراعي كلامه تحرّك نحو قطيعه، غير مبالٍ بالشعراء المصعوقين من كلامه.

جعل مارين يفكّر:

ـ فستان يتحوّل إلى الفسيفساء، وكفّان كالمرمر... ولكنّ الإنسان ليس روحًا!

نداء جعله يفيق من سلسلة تفكيره. فقد دقّت التاسعة، وبدأ الولي خدمته العامّة. كان البوّاب ينتظر مارين، والناس يشقّون الطريق أمامه باحترام. همس أحدهم بأنّه رسول القيصر المرتدّ، وهو الذي يكتب مقاطع ساخرة عن آكلي الأعشاب، ممّا يُضحك الجمهور.

... الولي يرفع يديه نحو السماء. أوتار الرجلين متوتّرة. جراح على الرُّكب، وعلى الجبهة والقدمين جراح مُتقيّحة. شفتان مُلحمتان شهيَّتان، وحاجبان واسعتان تنبتان إلى الأعلى نحو الجبهة. أصابع كبيرة ضخمة، وأظافر فيها فطريّات. تأتي رائحة قاذورات من خرطوم المياه. تحلّق فوق الولي السوداء الرائعة مع الجلنار والحنّة. ثوبها يرفرف في الهواء ولا يراها أحد، ولا يسمعها إلّا الوليّ. تتوجّه الرائعة للولي وتقول قانطةً:

ـ صُرّةُ المُرِّ حبيبي لي. بين ثديَيَّ يبيتُ. يداه حلقَتانِ من ذهب، وساقاه عمودا رخام أبيض، وخصال شعره كسعف النخيل، لكنّه أسود كالغراب. أنا حمامة وسط ثمانين سُرِّيَّةٍ وعذارى بلا عدد. أنا نائمة وقلبي مستيقظ. صوت حبيبي قارعًا. قمتُ لأفتح ويداي تقطران مُرًّا وأصابعي مُرٌّ قاطر على مقبض القفل. فتحتُ لحبيبي، لكنّ حبيبي تحوّل وعبر. طلبتُه فما وجدته. وجدني الحرس الطائف في المدينة. ضربوني جرحوني.

ينظر الولي لليدين والرِّجلين، التي فجأة بدأت تتحرّك بطقوسيّة. يتّخذ الجسد وضعيّة جديرة بالخدمة. ويبدأ الولي بصوت خطابي يشرح هذه الرموز:

وقال ملاك الربّ: استيقظوا، لأنّكم كنتم تسهرون، وعندما جاء النداء أراكم نائمين! سيكون دربًا مؤلمًا للذين أهملوا ما ينتظرهم

وأهملوا الصلاة! تذكّروا كم اسم الربّ جميل، وتذكّروا العهد! فقد اختاركم الربّ من بين الأمم ورفعكم عليهم.

يقوم الراهب المتحمّس بشرح كلمات الولي لمارين:

وقال الولي: افتحوا قلوبكم وتقبّلوا الربّ، الذي يكلّمكم! فهو لا يطرق أبوابكم بل يتسلّل إلى قلوبكم! ابن الربّ ذكي ورائع، يجيب على ما يحيّر العالم! المُختارون يُختارون من بين الناس! ويُرفعون فوقهم! لهم يعود ملكوت السموات وكلّ ما فيه من رائع.

قالت الرائعة بغنج:

ـ لرائحة أدهانكَ الطيّبة، اجذبني وراءك فنجري، ولا تنظر أنّي سوداء فأنا سوداء وجميلة. أخبرني يا من تحبّه نفسي أين ترعى وأدخلني إلى بيت الخمر. أمّا سريرنا فمن الأعشاب.

يسمعها الولي ويقول وهو مغمض العينين:

وقال ملاك الربّ: المختارون يصلّون وينادون لكي يروا درب العودة! فليتجدّدْ عهد المحبّة، فرغم أنّهم ارتكبوا الخطايا هم رائعون لأنّهم لم يفقدوا كونهم مختارين.

يشرح الراهب المتحمّس:

وقال الولي: حاول أن تتوحّد مع الخير الأعلى! لأنّ ابنه فقط يقودك للحياة، فرغم أنّك ولدت بالخطيئة، لم تفقد يومًا روحيّتك!

تقترب الرائعة من الوليّين وللحظة تحلّق أمامه، ثم تبدأ بشكل لعوب تثب في الخلاء ـ السماء وثوبها يلمع تحت الشمس. تقول:

ها أنذا التي ظهرت في الصحراء مضمّخةً بالمرّ والسلوى. هبّي أيّتها الرياح عبر حديقتي كي تأتي الروائح الطيّبة إليك. إنّي حديقة

مغلقة، وأنفي كقباب لبنانَ تنظر إلى دمشق، وثدياي أبراج قلعة بُنيت ليعلّق عليها ألف ترسٍ. تحت لساني شهد وحليب، ورائحة أثوابي كرائحة كلّ الأشجار الصمغيّة. عيناي حمامتان على الماء، وفوق رأسي ترفرف راية الحبّ.

لا يتأثّر الولي، ويتابع بصوت مُلَهَم:

وقال ملاك الربّ: رائعة وغنيّة هي أرض الميعاد، وسعيد من يُختار ليعيش عليها! من فيض حبّه سيملكون هذه الأرض ويجدّدون العهد مع الربّ!

ينظر الولي إلى الرائعة، فجأة شدّ جسمه ومدّ يده...

ـ كششش! كششش! ـ يقفز الراهب المتحمّس، وكأنّه نسي أنّ عليه أن يترجم ويصرخ: ضعيف أنت! فيردّ عليه القدّيس: بقواك الذاتيّة لن تنجح في التجربة، ولن تدخل الحياة! الربّ عظيم ورحيم، لأولئك الذين يؤمنون. عندما تلد من جديد به ستُشعّ بالرسوليّة وستكون سعيدًا وجميلاً.

ينزل الولي رأسه، ويمسك بيديه رجليه، فيتكوّر ككلب مضروب. فجأة ترمي الرائعة بنفسها على الولي، وتنادي:

ـ ها أنت يا حبيبي وقد قلت: قومي يا صديقتي الرائعة وتعالي! وجدت من تحبّه روحي. خذوا الثعالب الصغار المفسدة الكروم. حبيبي لي وأنا له. وجدتُ من تحبّه نفسي فأمسكته، ولم أُرخِه حتى أدخلته بيت أمّي وحجرة من حبلت بي.

بدأ الولي يرتعد ويتلوّى فلا يستطيع أن يتحرّك. بعد لحظة لا يقاوم بل يبدأ يتكلّم. الرائعة المدهوشة تُطلقه. يتكلّم بصعوبة في البداية، وبالتدريج بطلاقة، وأخيرًا بقوّة:

وقال ملاك الربّ: سيسمع الربّ صلواتكم، وسيعود شعب الربّ لأرض الميعاد. فعلى هذه الأرض يعيش المتطفّلون، لكنّه رحيم وعظيم لمن يؤمن به! والعودة للعهد الجديد ستكون سعيدة!

يلتفتُ الراهب المتحمّس نحو مارين، ويترجم له:

وقال الولي: ابن الربّ يناديكَ، يناديك كي تترك أرض الخطيئة والموت. ولدت كي تحيا حياة أبديّة! فاتبع ابنه الذي يناديك! ولكن من لم يدخل التجربة سيبعد!

وتبدأ الرائعة بصوت حزين:

- حبيبي نزل إلى جنّته إلى خمائل الطيب ليرعى في الجنّات، ويجمع السوسن. ليتك كأخ لي الراضع ثدي أمّي فأجدك في الخارج وأقبّلك ولا يحزنونني. حبيبي هو شبيه بغُفر الأيائل...

هنا تتحوّل الرائعة إلى غزالة، ذات أقدام كأغصان البردي الملتوية وهي تنمو في الماء. جسم الولي يشبه عمودًا، يقف فوق العمود. تنطلق الغزالة نحو السماء، وتغيب. يُسمع ثُغاء الماعز عند الكاتدرائيّة. يتكلّم الولي بصوت ضعيف:

وقال ملاك الربّ: إذا لم تكونوا يقظين سيرتدّ الربّ عنكم ويمنح القوّة لعدوّكم! فمن صبر في الحبّ، يعده الربّ بغلال وافرة ويمنحه الحبّ! فقد وهبنا الربّ الغلبة على الآخرين إلى أبد الآبدين!

الراهب يترجم بهدوء:

قال الولي: عظيمة هي قوّة الربّ وعظيم الاتّحاد معه. الربّ يناديك كي يدخلك إلى أرض حياةِ ابن الربّ! سيقابله جنود الربّ وسيُخلّدون بحبّه! وهذا ما تعنيه كلمة الربّ!

يتقلّص الولي، ثم ينهض وعلى مهل ينحني فيخرّ ساجدًا مرّةً، وبعدها مرّة أخرى. في البداية كان التعب يبدو عليه، ثم لنشاط يتمتم بكلمات غير مفهومة. خيط من الدم يسيل على العمود. يرفع الراهب المتحمّس من تحت خرطوم المياه، برازًا ليجفّفه.

في الوقت نفسه يركض مارين قادمًا من الأعلى. يقوم ببضع حركات رياضيّة في الوادي. يركض حول الكاتدرائيّة المهملة مرّتين، يقفز فوق النُّهير ويضغط التماثيل المسروقة في أعمدة معابد الآلهة، التي لا أحد يتذكّر اسمها. بعد ذلك يذهب إلى الحمّام، ويعود للفندق، وهناك على الشرفة يأكل طعام العشاء، بزهو يشاهد برنامجًا فنّيًا. النساء في ثياب تقليديّة يرقصون ويلعبون. في فترة الاستراحة تحدّث إلى بائع الحكايات عمّا رآه. ينضمّ خطيب عاطل عن العمل.

يقول مارين:

ـ ربطوا الرجل ذا الأفكار المتنوّعة بأغلال غير مرئيّة

رأيتُها: لا يمكن قطعها، ثقيلةٌ، كانت قرب منتصف العمود.

انطلق الوحش مُشرّع الجناحين

وكلّما نهش كبده الخالد كان ينمو من جديد،

وليلاً كما في النهار

ينهش وهو يصفّق بجناحيه

ولذلك حُكم علينا أن نعاني كما هو يعاني

لأنّهم أرسلوا لنا شرًّا بدلاً من حبٍّ عظيم السعادة

شرًّا لا تستطيع أن نقاوم حبَّه.

بدأ بائع الحكايات يرتجل:

ـ أستمع، وأحتفظ بكلّ ذلك في ذاكرتي

وأستغرب، لكنّ عقلي لا يستوعب كلّ هذا

ينهض خليل الله من أمام الخان، ويتوقّف عن ترداد «أنا الحقّ» ويستمع. أمامه طريق جديد يشبه غصنًا صغيرًا ينمو بسرعة في شجرة ضخمة تصل السماء.

يقول مارين:

ـ سأوضّح: في البدء كان الناس يعيشون على الأرض في سعادة

وعندما قاوموا الحكمة بمساعدة من الغرباء...

ابتسم بفخر لنظمه هذا الشعر وتابع:

ـ غضب الخالق الذي يعرف النوايا الأبديّة

ولاحظ حيلتهم ذلك الذي يجمع السحب بلا حدود

فصنع للمتعجرفين من الناس هبة رائعة، أعجوبة

أحاط به السماويّون، كي يزعجوا الإنسان

حيل ماكرة، كذب، وزيف ساحر، خبّأوا

وستروها بثوب فضّي وإكليل مذهّب

ومنه جاءت بلايا الإنسان: جنس النساء الماكر

لا يستطيع تحمّل العوز، بل الثراء... ـ قطّب مارين حاجبيه غاضبًا أنّه فشل في صياغة الجملة الأخيرة. الخطيب يحييهِ ويشير إلى نفسه... وحذّر الولي الجميع أن لا يتقبّلوا عطايا الماكر.

فراغ. رأيتُ كيف في أغلاله لم ينجو من العقوبة! مارين يُفلتُ يديه مستسلمًا وينظر إلى الخطيب.

سأل بائع الحكايات:

ـ حينها، هل الأعطية التي بلا معنى والمعاناة بلا معنى، أم يا ترى في المرارة أمل ومعنى؟

يخرج راوٍ مؤمن وينضمّ للجماعة.

يقول مارين:

ابن شجاع له كاحلان رائعان سيقتل الوحش.

سيظهره النبيّ في كلمات لغةٍ رائعة،

وعليه يجب أن ننتظر رسولاً وتعاليمه الجديدة

وعن النساء اللواتي يضعنَ الرجال وغيرها من الأشياء.

يلفّ الراوي الشاعرَ التوسكاني ويقول:

فلتعد صرختك مثل الريح

التي تضرب أقوى ما تضرب الذرى العالية

وما هذه مناسبة للشرف ضئيلة... ينحني لمارين ويبدأ مع الخطيب ينظُم أشعارًا. في هذه الأثناء يخرج خليل الله إلى الشرفة، ويتوجّه للجمهور:

ـ سيبعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، ويدعونا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، ويأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار والكفّ عن الدماء. وينهينا عن الفواحش، وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصّنات، ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له.

ينهض الناس ويسجدون، وتغطّي الراقصات وجوههنّ باستحياء. التوسكاني وقد ارتدى معطفًا، وعلى ظهره صليب كبير، وبوجه حقود يلوّح بالسيف. يقف وحيدًا أمام الفندق ويقول:

كان فاغرًا كالكائن الذي رأيتُ

مبقورًا من عنقه حتى عجزه

أحشاؤه تتدلّى بين ساقيه

وإنّك لترى رئتيه والكيس الكريه

الذي يصير فيه فضلات ما يبتلعه الإنسان!

... تصفير وزعيق ودمدمة، وضربات بالأرجل على الأرض.

لا بدّ أنّ شيئًا حدث في ساحة مديريّة الهجرة. تعوّدت العيون على الضوء الشتائي، واختفى الظلّ المتطاول للشوفاجات. تطايرت الأحلام واندثرت. بقيتُ لوحدي. عينا أبي الوديعتان تبتسمان لي من خلف بدلته. عُدتَ إذًا، وأنت مُرهق جدًّا، تعال إلينا، ستستريح، سنمنحك فرصة.

من الغرفة سبعة سبعة سبعة (شكل سبعة بالعربيّة يشبه شارة النصر) خرج ضابط بصدريّة مزركشة، وطلب الورقة المليئة بالهوامش. كان النصّ قد انعجن وتبقّع، كما في لوحات الفنّان «كلّي» التجريديّة. لكنّ الذكريات ليست إضافات للتشابهات.

ابتسم الضابط متفهّمًا الوضع، ورمى بالورقة في سلّة المهملات.

ـ لن نحتاج إليها. صحيح أنّ الفيلّا قديمة، لكنّنا ننظر إلى المستقبل. بعد أيّام سننتقل لمقرٍّ جديد عند الكورنيش. أعتذر بسبب جرياني خلف المعاملة.

ـ هناك لن يبحث أحد عن أيّ شيء. سنضع إشارات واضحة للطرق، وسيكون لكلٍّ بابه. وبسهولة دخلت التأشيرة جوازَ السفر. وضعتُ الإيصال المطبوع من الكومبيوتر، تحت، في السكرتارية.

شمس الشتاء تشعّ ألوانًا في الساحة. على الشرفة تتأرجح لوحة «أوتيل سيمون». مسح أحد العناصر كتابة «لا حقيقةَ إلّا الحقائق». عندما نقلوا المديريّة تحوّلت الڤيلّا بسرعة إلى خرائب. في أحد الأيّام، ليلاً، تسلّلت لداخلها. لم يبق من الصور، التي كانت معلّقة، سوى ذكريات بيضاء تخلّفها بعد أن ننقلها من مكانها. كان أنبوب يتسلّق إلى أعلى كغصن ميّت لشجرة ضخمة، أرادت أن تصل للسماء. في سلّة المهملات المقلوبة وجدتُ الورقة. إنّها مليئة بالبقع، والفوضويّة، بلا بداية ولا نهاية.

ميريك أو تَحقّق نبوءةِ سليم

أتذكّرُ. . .

بشكل آخر: أوّلاً جملة القول لهؤلاء الذين ملّوا من المجازات المفتعلة وافتقدوا الوظائفيّة.

حين خرجتُ صباحًا من الفندق كان الجوّ في الخارج أكثر دفئًا من غرفتي. ولكنّ الفروق انمحت بسرعة. لقد أصبحت دواخل المدن العصريّة لا تُحتمل. في العقبة الكثير من المساحات الفارغة. والطرق المستقيمة التي أخذت قلوب السكّان، كما أنّ الأجانب لا يضيعون عند مفترقات الطرق.

والكشف عن المخفي بخيلاء يضبط نبض الحياة هنا.

ولكن عمّ نكشف هنا؟ في المدينة نقص في البنيان. والعمارات

العالية المحاطة بالحدائق وفي صفوف متباعدة تبدو كالدمى في دكّان اشتراكي. بيْع رتيب في مساحات مُعقّمة. كان من الممكن الظنّ أنّ البيوت البيضاء تلطِّف من الشعاع فلا تزيد من الدفء، بينما نجد الظلال تلتصق بالجدران فتزداد قوّة لمعانها الذي يندفع نحو الظلّ.

استطعت أن أستريح في محلّ لشرب العصير.

عندما تشتدّ الظهيرة يتشقّق الحَر مُعلنًا عن قدوم المساء وعن تداعيه المحتوم. يترك البنّاؤون البيوت قبل الانتهاء منها فيتفتّت الإسمنت ويتحوّل إلى غبار محرق. الغبار في المدينة العصريّة يحدّد نبضها، والصحراء ليست بحرًا ملوّنًا من الرمال كما نراها في التلفزيون: تمتدّ الأسلاك حاملةً المصابيح والميكروفونات. يتجسّد الخلاء كملاك الفناء في الوقت الذي يعاقب فيه الإهمالُ البشريُّ بالفناء المُغبرّ الصامت وليس بمأساة تدمّر العالم وتنهيه.

ليس في العقبة أزقَّة ومداخل. لا يوجد واحات مدنيّة باردة، والخلاء الشارد لا يتركّز حول المآذن. حين يجيء موعد الأذان يأتي النداء للصلاة فقيرًا مدقعًا، مغطّى بالغبار، ما هو إلّا صدى لبهاء المدينة القديمة، لأنّ العصريّة تنفي الطقوسيّات اليوميّة.

في إحدى المرّات تجوّلتُ في العقبة. الشوارع فارغة، والأباجورات في النوافذ مسدودة. فجأةً، يا لحظّكَ أنت... شيء يشلّ التفكير! كشفتْ. لملمتْ امرأة نفسها ثم تنفّست الصعداء وابتسمت نصف ابتسامة، بعد ذلك وقفت باستقامة، فجأةً صفّقت ثم قفزت وصفقت... وكأنّ العصريّة الغريبة تشربكت مع مجلّة من العصر الڤيكتوري.

تجوّلتُ في العقبة من أوّلها إلى آخرها. تبدو المدينة بشكل آخر

عندما تنظر إليها من سيّارة مُكيّفة. الزبالة لا تُرمى في الشوارع، بل توضع في أكياس بلاستيكيّة في حاويات القمامة، كلّ صباح... وتُغلق. عند اقتراب المساء يخرج الناس للتنزّه، فإذا أراد طفل أن يذهب أبعد من اللازم يأتي رجل بالغ ليذكّره بالانضباط. لم الذهاب هناك؟ الأفضل عدم الانحراف عن الدرب. ودائمًا هناك في مكان قريب ملعب تستطيع أن تلهو.

في مدينة ليس فيها مدينة قديمة تتمّ الزيارة بلا أيّة تشريفات. يجلس الناس مقابل البيت وينظرون ويفكّرون بقلق، ترى هل بنى جارهم بيتًا أجمل.

ـ لا أفهمك. ـ قال لي أحد سكّان الضواحي، وتابع: السياح يهتمّون بالأشياء القديمة. ماذا في هذه الأشياء؟ هم لا ينظرون بإعجاب للبيوت الجميلة العصريّة في العاصمة، بل تراهم يتسكّعون في داخل المباني الكئيبة والزرائب والشوارع القذرة.

بصمت، بصمت تامّ سِرت في شوارع المدينة. المدينة القديمة ليلاً تبدو كفرقة موسيقيّة قطعت برنامجها فجأة، فتسمع صوت آلة تأتيك صدًى من اللحن المقطوع. ولكنّ الصوت المنفرد لا معنى له. حتى في صوت الحبّ لا وجود له.

عند مدخل الشوارع تتشبع المدينة القديمة النائمة بالروائح. مسجد من القرون الوسطى تقوّس من الشيخوخة والنيونات الملونة تتسلّق المئذنة، كأنها أغصان شجرة ضخمة، تصل السماء. في الساحة مخبز يعجّ بالحياة، وقف أمامه طابور، والخبّازون يناولون الخبز وقد علا وجوههم وثيابهم الطحين. في إحدى الزوايا الدافئة قام الأطفال بصنع أكوام من الأرغفة، ليأخذوها بعد ذلك إلى الشارع المقابل حيث يبيعونها.

المدينة القديمة ملجأ، يُغلق المرء فيها على نفسه وينسى كلّ شيء. وهي في الوقت نفسه تمثّل انتصار الناس الدائم على الصحراء. فبين الأسوار المتهدّمة يبنون بسرعة بيوتًا جديدة، لأنّ المساحات المُتاحة تستسلم لحرارة القادمين الجدد. لم يكن سكّان المدن القديمة مصابين بعقدة كشف المخفي كي يُظهروا للعالم أذواقهم وأموالهم، فالسيراميك الملوّن والأروقة الناعمة للبيوت العربيّة تجذبك من الداخل فقط، فيمدحون المالك الذي يختار ضيوفه لهذا.

الشوارع الوسخة والأزقّة المسدودة أُعدّت ليراها الغرباء. والله وحده يستطيع أن يمسك بالأبواب مفتوحة. أيّها الربّ الخيّر، ماذا سيحصل لي؟ سأل الشيطان بلطف زائد. من السهل أن ترمي بالغربة جانبًا في الحمّامات والمساجد. على أيّة حال تبقى المدينة القديمة تصطفّ إلى جانب سكّانها وضيوفها. النهار والليل نقيضان في الغرب لكنّهما يتوحّدان في الشرق، ليتمكّنوا من تقسيمهما إلى خمسة مواعيد موقّتة وخمسة عناصر من تعدّد الأصوات تستطيع بشكل معًا مقاومة الحرّ والفراغ. عصريّةُ النهار والليل لا تتّفق مع تلك الأوقات المحدّدة، وتتظاهر أنّها تفتّش عن الدعوة كي تُغري وتُقيّد. الضيف الوحيد عبارة عن شخص يائس ولا يشدّ الخناق ويهاجم وليّ النعمة غدرًا وبمنقار بشع اقتلع من حلقه، آخر صفرة دمويّة.

أتذكّر...

بشكل آخر: حُكي لي مرّة قصّة عن مدينة، كانت مُحاطة برياض الجنّة، لا ترى الشمس ولا الزمهرير. في سافلها تسيل الجداول، وتتدلّى العناقيد من النخل منحنية للناس، وكذلك شجر الرمّان والسنط، وتسلّقت بيّارات العنب والزيتون التلالَ، وتفجّرت العيون غزيرةً. وترى وسط النيْلوفر بلا أشواك طيورًا يشتهيها المرء، وحبوبًا

تمنح المرء غذاء متنوّعًا. كان فيها كلّ ما تشتهيه الأنفس وتلذّ العين.

كان الرجال والنساء يستريحون على مرافقهم متّكئين على أسرّة مُطرّزة، في الظلال متقابلين لا يسمعون لغوًا ولا يحسّون بشيء يغويهم للخطيئة. كانت القوافل تأتي لمدينة الروض مُهتدية بالنجوم ليلاً وهي إشارات ساطعة، وعندما تنشقّ السماء ليدخل الفجر يحصلون على الرزق من غير حساب.

وكان في الرياض فتيات حور العيون كواعب أترابٌ عاشقات خلقن بشكل يفوق الخيال، لم يمسسهنّ الجانّ، وكنّ زوجات طاهرات صالحات، يطوف بينهنّ ولدان خالدون، إذا رأيتهم رأيت اللؤلؤ منثورًا، لم يمسسهم التعب وصاروا أزواجًا صالحين. يقدّمون لبعضهم بأباريق وأكواب من الذهب والفضّة. يأكلون من الفاكهة ممّا يتخيّرون ومن لحم الطير ما يشتهون. كان في أقداحهم شراب من عين لا تنضب ولا يُصدعون منه ولا يثملون.

وكانت المدينة كالقصر، كلّ خطوة فيه لها معناها، وكان كلّ شيء في مكانه: نافورة تغنّي، وقلب يدقّ بمسحة من البيتوتيّة بحيث يمكن للمرء أن يخرج ويعود. فيه زرائب مليئة بالقطعان واصطبلات تحتشد بالخيول الأصيلة، ومخازن للحبوب والنوى التي تفتّقت تحت الأرض وحوّلت الموت حياة. كلّ صالة فيه لها وظيفتها، لا يمكن استخدامها لأغراض أخرى. وفيه أماكن للإقامة وأخرى للجوء إليها. وهكذا عرف الناس القواعد التي تحظى بالعظمة.

ولم يكن حاكم هذه المدينة من أبناء الأرض.

قصّوا عليّ حكايا عن السلاطين الطائشين الذين تاقوا ليمتلكوا المدن الرائعة، كي يسوّروها برياض الجنّة التي لا تعرف شمسًا ولا

زمهريرًا، وفي أوديتها تسيل الجداول وينضج النخيل وتتدلّى منها العناقيد. لا يعرف أهلها التعب. لكنّ السلاطين عرفوا القواعد التي تحظى بالعظمة، فبنوا الحواضر في وسط الواحات كي لا تجفّ عيونها أبدًا. ولا يُعقَلُ أن يسكن الناس في الواحات.

وحان الوقت الذي لا يستطيع أحد أن يقدّمه أو يؤخّره ولو لساعة واحدة. وجاء التجهُّم في وقت استراحة الظهيرة وهبّتِ الريح حاملةً العفن فاختنق السلاطين الطائشون. وجفّت العيون وجلبت الوباء والحشرات. ماتت الأشجار وتعرّت الرياض تمامًا. وحلّ عذاب الرياح الحارقة القادمة من الصحراء، واختفت الشارات الناصعة وضلّتِ القوافل دربها ولم تصل لهدفها، وافترق الناس وفرّوا هاربين.

كنتُ في خرائب هذه المدائن. كانت مُحاطة بأشجار النخيل المُكتظّة بالأغصان، وكانت فاكهتها تتساقط دون أن يقطفها أحد في الماء الآسن، فتتعفّن. القصر خراب والمعابد رديم. الجدران المتشقّقة ترى الشمس. ويبني التعساء من الناس بمفردهم في الخرائب ملجأً لهم من الكرتون أو التبن. لا يقابلون بعضهم مواجهةً، ويصنعون تصاوير عظيمة: على سجاجيد من الجنّة الرائعة عذارى بنظرات متواضعة كالياقوت والمرجان. ويصنعون التصاوير: بساتين وكروم، وشبّان كاللؤلؤ المخفيّ، يرتدون ثيابًا خضراء من الأطلس مطرّزة. واختبأ الناس التعساء وستروا وجوههم. هكذا تجرّأ مشعوذ ودخل المسجد.

أليس من العدالة والصواب أن تكون الصور من عمل الربّ فقط؟

أتذكّر...

بشكل آخر: رميت السكّين الذي كان بدلاً من المنحوتة. استيقظت صباحًا متأخّرًا على عكس عادتي. عندما هبطت للطابق

الأرضي لم أجد عمّ إيبو. خسارة!! بدأنا بالأمس حديثًا مشوّقًا تمنّيت لو أكملناه. ابتسم لي العامل البديل من آخر الممرّ وعاد إلى تنظيف الفندق، فقد خلّف له الكثير من الأعمال فريق الشبيبة لكرة السلّة، والذي غادر صباحًا بعد مباريات على مستوى البلدان العربيّة.

قبل أن أذهب للفطور، وقفت في الباب، حتى تعوّدت عيناي على النور. لوّح الصومالي لي بفرح، وكأنّه ينتظرني منذ الصباح الباكر وكان كأنّه يقتل الوقت منتظرًا بقلي الباذنجان.

ـ كيف نمتَ يا صديقي؟ تأخّرت اليوم على الفطور...

ـ نمتُ جيدًا لذلك تأخّرتُ، وكيف أحوالك أنت؟

في الساحة في المطاعم الشعبيّة يوجد فراريج مشويّة، فتّة، شاورما مع صلصة الثوم، أو صلصة حادّة. وهناك السلطات كذلك، وأحبّها إليّ الفتوش مع الليمون والزيت وقطعٍ محمّصة من الخبز، وبندورة وخيار والكثير من النعناع الطازج.

ـ حاضر سأعد لك السندويشة. ـ قال الصومالي برغبة شديدة.

في المطبخ عند الصومالي هناك مُلصق جداري من قصر نويشفانشتاين (Neuschwanstein) وقد انقلعت زاوية الملصق. أبراج متهوّرٍ تنحني أمام المرجل. استعرتُ صمغًا وألصقته. النقاوة بين خصلات الضوء تتّضح كما جبال الألب في المطاعم الأخرى.

ـ شكرًا صديقي!

خمس مرّات في اليوم وفي أوقات محدّدة، يفرش سجّادة الصلاة وللحظات يركع أمام بسطته. مأكولاته كانت الأطيب في المدينة. وكنت أُسعد في كلّ يوم أراه. مركز لقاءاتي مع العالم تحدّدها «القوّة

الخلّاقة» كلّ يوم في مكان آخر.

ـ سندويشة واحدة لا تكفي! أليس كذلك؟

لأنّه لا حقيقة إلّا الحقائق.

حان وقت الوداع. تعرّفتُ على الصومالي فور قدومي من عمّان. بصرخة ظهرت سيّارة سرفيس للعقبة. كنّا خمسة ركّاب والسائق. تحرّكت سيّارة الفورد مع محرّك التروس مع المقود، وودّعنا العاصمة بغيمة من الدخان البنفسجي الوسخ. رجل نحيل في المقعد الأمامي كان معه صرّة ضخمة، ربطناها بصعوبة بالحبال.

ـ عفشكَ احتلّ سقف السيّارة بالكامل. سأحرق بسببه مازوتًا أكثر، لأنّ مقاومة الريح تكون أقوى، وكأنّي آخذ ستّة أشخاص ـ قال السائق له وطالبه بخمسة دنانير وليس ثلاثة.

كنت قد اتّفقتُ مع أحد المصريّين أن يتكلّم حول السعر باسم كلينا. لم أكن أعرف التسعيرة، ولم أرغب أن أخضع لمزاج السائق. يعرف نظام العالم منْ تعرّف عليه قبل ذلك. في السيّارة غمزنا لبعضنا فرحيْن وتركناهما يتشاجران. لم يتحمّل المصري للنهاية، فقال للسائق:

ـ اسمع! أربعة دنانير مبلغ مقبول، فلا تبالغ. السيّارة مليئة بالركّاب، ثم إنّنا نهبط باتّجاه البحر.

فقد السائق حماسه واعترف بخسارته ووافق. بعد لحظة شغّل كاسيت للقرآن. وبدأ السجع القرآني يتحوّل إلى تجويد جافٍّ ترافقه طقطقات المحرّك. أشرقتِ الشمس من خلف الجبال، وبدأت المرتفعات الناتئة تنطبع بالحَمار. كان الدرب الأبيض المتّجه نحو «أعمدة الحكمة» كغصن مُحتضِر فوق شجرة ضخمة، احترق وهو يريد أن يصل السماء.

ـ بسم الله الرحمٰن الرحيم. الرحمٰن. علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان. والنجم والشجر يسجدان. والسماءَ رفعها ووضع الميزان. ألّا تطغوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسِروا الميزان. والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحبّ ذو العصْفِ والريحان. فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان؟

كان الطريق عريضًا، يمرّ عبر القرى والبلدات. الماعز يقضم الأعشاب، والأطفال يقفزون ويلوّحون لسيّارتنا. بين الحين والآخر كنّا نمرُّ بشاحنات تجرجر نفسها وهي تطفح بالحمولات. خُيّل لي أنّ الجمال الذي أرهقتني كثيرًا في دمشق، تفتح أمامي الجبال الساحرة والحيودَ الصخريّة وأخيرًا البتراء. شعرت وكأنّي أخرج للتوّ من الغطس تحت الماء. التجويد الرتيب والمٰناظر الفسيحة الجبّارة جعلتني أُصاب بالدُّوار، تمامًا كما يتمّ نفي قوانين الطبيعة تحت الماء وتعني: الحرّيّة من قوّة الضغط.

ـ ولمن خاف مقام جنّتان. فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان. فيهما فاكهة ونخل ورمّان. فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان. فيهنّ قاصرات الطرف لم يطمثهنّ إنس ولا جانّ. فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان. حور مقصورات في الخيام. متّكئين على فراش بطائنها من إستبرق وجنى الجنّتين دان. فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان؟

لا تنصاع نفسيّة الغطّاس بسهولة لمعاناة الجسم، الذي يكاد يتحرّك عند الشاطئ وهو يحمّل خزّان الهواء في بدلة للغطس غير مريحة، أمّا تحت الماء فيعوم فوق جُرف ويستسلم لتيّارات الماء كتولٍ حريري. الأبّهة التي تمنحها الزعانف بتطويلها للرجلين والأسماك الفوسفوريّة كانت ترعبني.

ـ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان؟

إعجابي بالغطّاسين المتمرّسين الذين لا يقومون بحركات لا ضرورة لها، ويتفاهمون فيما بينهم بلغة الصمّ ولكنّها حركات بطيئة. هذا لم يمنعني من العودة إلى أيّام اللهو واللامبالاة التي أتذكّرها حين كان أبي يحملني على رقبته. وعندما كانت رجلاي تتدلّيان على صدره وأنا جالس على كتفيه ما خشيت يومًا أن يفلتني. طيّارة المهندس السعيد تحلّق عاليًا وتقوم بحركات بهلوانيّة وكأنّ أزيزها لمحرّك الديزيل.

ـ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان؟

لأكثر من مرّة وقفت عند الخطّ الذي يشدّون به الطافية عند حدود الحيد البحري. تجرّد الطفل من مشاعر التعاطف، وتحوّل الحبل إلى قضيب يتشقلب عليه. الشقلبة تحت الماء ليس حركة دائريّة تشكّل سرعتها واقيًا ضدّ سقوط الشخص. يستطيع الغطاس أن يدور بهدوء ويتوقّف دون أن يمسك بأيّ شيء.

ـ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان؟

حطام السفن كانت أروع الأشياء. لم أبحث فيها عن كنوز، بل كنت أسبح مقابل مؤخّر السفينة بالضبط، وببطء كنتُ أدخل رأسي من النافذة. كانت سمكة قبالتي أحيانًا تنظر إليّ. كنت أحسّ وكأنّني في حلم، أحلّق فيه في شوارع غرناطة أختلس النظر هنا وهناك، ساخرًا من ساكنيها.

ـ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان؟

في داخل السفينة كنت أجد أحيانًا مقعدًا، تُشبه مقاعد الحدائق العامّة، فأبدأ أتحرّك، بحذر بمساعدة الزعانف، متجنّبًا أن أعلق في

الحبال المعدنيّة للصارية، إلى أن أجلس على المقعد، دون أن ألمس هيكله المُتصدّئ. كانت الساريات أفضل أداة للشقلبة. كان عالمًا سحريًّا، فكّ البهلوان فيه الحبال التي كانت تشبه حبل نشر الثياب في الأزقّة الضيّقة في باليرمو.

ـ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان؟

كان لسيّارة السرفيس من عمان خطّ دائم. في البداية كنّا نتوقّف في الميناء، هناك ودّعتُ المصريَّ الذي كان يريد السفر بحرًا إلى طابا. نهاية الخطّ كان وسط المدينة. هناك قرب محطّة الحافلات عثرت على محلّ الصومالي للمنقنقات، أكلتُ سندويشة، وبعدها كنتُ آكل طعام الفطور عنده كلّ يوم: بطاطا باردة، باذنجان مقلي، بندورة، خيار في رغيف ساخن، زعتر وملعقة مايونيز يأخذها من جاره.

أتذكّر...

بشكل آخر: منذ الليلة الأولى كان نظري طوال الوقت معلّقًا في إيلات. لم ألاحظ شيئًا في النهار. كانت الشمس قد مالت إلى الجانب الثاني من الخليج، ولفّ المدينة ضبابيّة شمسيّة، عندما وجدتُ فندقًا وتغسّلت وفتحتُ حقيبتي.

وجدتُ مطعمًا صغيرًا في أحد الأزقّة، بين وسط المدينة وشاطئ السباحة. هناك قابلتُ بعد فترة سليمًا في أحد الشوارع الهادئة، كان يقف مسجد عصري بمآذن ملوّنة، يليه سوق تجاريّة. في تلك اللحظة اشتعلت المصابيح وغابت الحدود مع إسرائيل عن النظر.

جلستُ تحت أحد السقوف البيضاء في العقبة. قدّم النادل قائمة الطعام وكانت وسخة. كان المطعم خاليًا. وعرق الآخرين يتحرّش بالمعاصم ويقتل كلّ أشكال الفرح النابع من البرودة. من الشرفة يمتدّ

أمامي منظر الخليج. قارب بمحرّك يمرّ على ناقلة نفط، وعندما دخلت الميناء لمعت في شوارع المدينة الإسرائيليّة الأضواء. تصوّرت أنّ أحدًا ما من ذلك الجانب ينظر إليّ، ويتأمّل مصير شاعر يعدّ طعام العشاء، قد يخافه، وقد يرغب في سماع حكاياته. تخيّلت أنّ هذا الشخص قريب منّي، وهو مثلي لا يحبّ المعارك، لكنّه يتذكّر ويعرف أنّه من عشّاق تعدّديّة الأصوات. سنتقابل ونتبادل الذكريات، المليئة بالبقع، على تلك الورقة التي صارت معروفة، وهي بلا بداية ولا نهاية ولن تنفع بشيء الآن. سنتكلّم بلغات عديدة، وفي فندق متواضع سنقرأ آثار سارت على أرضيّة حجريّة.

لم أقترب من نقطة الحدود ولم أرَ الحدود أبدًا. في كلّ مساء كنت أجلس على شاطئ السباحة وأنظر إلى أضواء المدينة الشرقيّة. المدلّس الرهيب المحتال لم يجرّدني من الوعي. في تلك الليلة أحكمتُ إغلاق النوافذ وضغطت السرير بقوّة إلى الجدار كي لا يسقسق ومارست العادة السرّيّة وأنا أتخيّل صدر جميلة. لم أتجرّأ على مسِّه عندما جاءت تقبّلني في غرفتي في دمشق. انتظرت بلا طائل كي تكون هي البادئة بتزليق يدي على خلفيّتها، في الوقت الذي كنت أمرّر يدي على كنزتها بين خيطيّ حمّالة الصدر.

نهضت جميلة باندفاع وخرجت. سألني هارون في الاستعلامات إذا كان قد أعجبها المصّ لهذا الحدّ، لأنّها خرجت ورجلاها ترتجفان.

أتذكّر...

بشكل آخر: وهكذا فبائع الحكايات يساعد في قهر الهموم. كان شارع الكورنيش محاطًا بشبكات من الأسلاك، ولذلك علينا أن نسير

مسافة لا بأس بها إذا أردنا العبور للجهة الثانية. في وسط الشارع يقومون بإعداد شريط من النباتات، وهم على أبواب الانتهاء منه. على ضوء المصابيح الأنيقة تلمع رؤوس البخّاخات الملوّنة، وكأنّها لُعَب رمى بها الأطفال، وتفوح من المقاعد رائحة دهان حديث العهد. الصمغ يتجمّع على الخشب المكشوط حديثًا. وقد طوّقت أحواض الزهور بشريط معدني يذكِّر بالنمط الفرنسي للحدائق. كما غُرست على امتداد الرصيف، في حفر ليست عميقة، شجيرات تبدو كأعواد غُرست في الأرض، رُكِّبت فوقها كُرات.

تسكن أسرة سالم في الطابق الأرضي. كان الباب المفتوح يؤدّي إلى عتبة. ستارة تحجب الغرفة. اختبأتُ وراء التينة ونظرت من النافذة. على الأرض كانت تجلس أمُّه وأخته. يبدو أنّهما مستعدّتان لاستقبال ضيف، لأنّهما تلبسان حجابًا. كانت الأمّ في ثوب رماديّ مهترئ وسخ. وكانت الابنة قصيرة وسمينة، تتدلّى من تحت حنكها طيّات شحميّة، في سروال سبور أخضر، مكتوب عليه «نايك» ممّا زاد من عدم تناسق جسمها.

أمرَ سليم أخته بأدب بالاختفاء، وأعطى أمّه بعض الوقت لترتّب هندامها. كانت البنت تطلّ من المطبخ، وعيناها الدافئتان البرونزيّتان تثيران الاستلطاف.

ـ تعال! ـ صاح سليم من خلف الستارة.

خلعتُ حذائي، وفي الغرفة حيّيتُ أمّه، رغم أنّه لم يقدّمني إليها. كانت امرأة متمدّدة على الأرض، هاجمها الكِبر قبل الأوان، رحّبتْ بي بمبالغة وصبّتْ عليّ سيلاً من الأسئلة.

قطعة أثاث ضخمة في وسطها يقبع جهاز تلفزيون. في المسلسل،

كانت السيّدات من القرن الثامن عشر يتمشّين مستندات إلى رجال في باروكات بيضاء، وياقات مطرّزة وبناطيل ضيّقة وغيرها من أشياء كانت موضة في ذلك العصر. كان شعرهنّ مرشوشًا بالبودرة وخصورهنّ مشدودة بقوّة بالكورسيه، فتُنحّفهنّ بشكل ليس طبيعيًّا. كان المشهد يدور بين شجيرات تبدو كأعواد غُرست في الأرض، رُكِّبت فوقها كُرات، تسعى جاهدة أن تقلّد الحدائق الفرنسيّة. هاجم المتنزّهين شلّة من الصعاليك، وهم يصرخون بشعارات لم يفهم أحد منها شيئًا.

ذهبنا للغرفة الثانية، وهناك أشار سليم إلى أخيه قائلاً: أقدّم لك أخي فاتح. فاتح أقدّم لك ميريك (فعلاً أنا ميريك!).

قال فاتح: جميل، وانتفض من الكنبة وتابع: وهذا صديقي، أتريد رشفة؟ كانت على الأرضيّة زجاجات بيرة، وزجاجة من الويسكي الرخيص فارغة تقريبًا. أجبتُ: شكرًا، وأشرتُ أن يجلسا، خاصّة وأنّ الوقوف يتعبهما.

ـ أنت اجلس يا ميريك، سأجلب الكراسي حالاً. ـ في الأثناء خرج سليم إلى البلكون.

كان هناك تلفزيون آخر على خزانة ذات أدراج مكشوطة ومخربشة تستند إلى قرميدة، وكان ڤيديو كليب من قناة أم تي ڤي صاخبًا بشكل يغطّي على أصوات الصعاليك.

مرّة أخرى: ڤيديو كليب من قناة أم تي ڤي صاخب بشكل يغطّي على أصوات الصعاليك.

ـ شكرًا. أنتما لطيفان للغاية، قلتُ ذلك وأنا أبتسم.

شعيرات السجّاد تحكّ الأقدام بشكل لطيف، والحجرة خالية من الأثاث. كان الحرّ شديدًا. وبسبب النافذة المفتوحة كان هدير جهاز

التهوية مسموعًا، ومع ذلك كان الهواء يلتصق بالجسد، ومرّة أخرى طفح العرق في عينيّ وشعّ وجهي بالشحم. عند مدخل الغرفة عُلّق لوح خشبي مع آيات من القرآن، وإلى جانبها صورة للمسجد الحرام في مكّة مرشوش بالبرق ومحاط بهالة من النجوم. أمّا في التلفزيون فكانت مغنّية شبه عارية تنساب بين الراقصين في صالة افتراضيّة.

بطّة... قشطة قال فاتح.

طرقت أخته الباب، ودون أن تظهر مدّت صينيّة عليها طعام، حينها نادى أخوها عليها أن تجلب الكؤوس. كانت الجبنة لذيذة جدًّا والحمّص كان مُشترى من المركز التجاري، ولم يكن لذيذًا جدًّا. اعتذر سليم مرّة أخرى لعدم وجود شيء آخر. فقلتُ له أن لا يهتمّ بالموضوع البتّة، وأنّ الطعام لذيذ وأن يشكر أمّه باسمي.

بعد أن أكلنا أخذت الأخت الصينيّة وجلبت الشاي بشكل لا يكاد يكون ملحوظًا. أخرج سليم صورًا من صندوق على أرضيّة الغرفة وقال: انظر! كانت الصور لفتيات في ستوديو التصوير نفسه. وقد اختار المصوّر خلفيّات تتناسب مع لون العيون. كان الشابّ دائمًا يقف في الخلف، بينما الفتيات جالسات. العديد منهنّ تجاوز الخمسين. عدّةُ صور أُخذت في الصحراء مع جِمال، أو أمام نادي الغطس.

ـ تعجبكَ الناضجات أليس كذلك؟

في هذه اللحظة بدأت المغنّية تثبّ راقصة بين الأعمدة.

ـ مهلاً... مهلاً قلتُ لك إنّنا جميعًا قانطون. ـ خبّأَ سليم الصور وتابع: ما قولك أن نتمشى؟

ـ من طيزي! الأفضل مع عجوز من النوري! ـ تدخل فاتح: أتعرف من هم؟ يمكنُ التعرّف عليهم من أنوفهم. تشيييك! يشرمطَ

أمّا عن جدّة، ولا تتضايق عوائلهم من ذلك، بل يجلب الأزواجُ الزبائنَ لزوجاتهم. تششيك!

ـ إهدأْ يا فاتح! ماذا تقصد؟ ـ قال سليم بعصبيّة.

ـ ماذا... ماذا؟! نساءكَ الناضجات العجائز أفضل. لو رأيتك مع نوري لتبرّأتُ منك؟

ـ حلْ عنّي! عفوًا ميريك!

واستدار فاتح نحوي وسأل:

ـ ما اسمك؟ ميريك؟ أنت يا ميريك تظنّ أنّي سكران؟ تششششيك! أعرفُ ما أقول. هنّ جميلات ـ وأخذ يردّد جميلات... أتعرف ما معنى نوّار، نور بل نوري... معناها تنوير أو شرموطة، لا تستطيع أن تحزر في هذه اللغة اللعينة...

ـ تعال يا ميريك! قال سليم. ـ لنذهب إلى شاطئ السباحة.

نهضت أخته مرّة أخرى من أمام التلفزيون، وأنا شكرتُ أمّه على الطعام. كان الجوّ باردًا في الخارج. لم نتمكّن من الخروج من الباحة عندما حطّ هدهد.

ـ برقيّة!

ـ لي؟ ـ سأل سليم متعجّبًا.

ـ نعم لك. وقّع هنا من فضلك. ـ إلى اليمين حروف عربيّة صغيرة. من اليمين لليسار. هنا... هنا... ومرّة أخرى هنا... تفضّلِ البرقيّة.

صرخت:

ـ اقرأْ هيّا!

بائع الحكايات يساعد في قهر الهموم.

ـ حسنًا: ماي لوف، نقطة. آي سند ذا انفيتيشيون، نقطة. سي يو إن موسكو. نقطة.

نقطة.

نقطة.

لأنّه لا حقيقة إلّا الحقائق.

نقطة.

الإسناد: أي من وماذا قال.

ها قد وصلنا إلى النهاية التي كانت دائمًا بدايةً عند العرب.

كما كتب سوبارت ما قاله يان وميريك وكريم إضافة إلى والديّ سوبارت عن الذي ذكَرَتْه فقط الجدَّتان من كلا الطرفين، لأنّ سوبارت لم يعرف جدّيه. كما سجّل Francesco Catalucio في «عدم النضج ـ مرض عصرنا» بترجمة ستانيسواف كاسبشيشاك Stanislaw Kasprzysiak المنشور في كراكوف سنة ٢٠٠٦، وهو الشيء الذي يخادع به أمبيرتو إكّو Umberto Ecco في باودولينو Baudolino والذي ترجمه آدم شيمانسكي Adam Szymanowski والمنشور في

وارسو سنة ٢٠٠١، وما يُعلمنا يام تشيرنيك Jan Czarnik وماريان بواختا Marian Plachta في كتاب لمجموعة من المؤلّفين تحت إشراف فيسواف شليجينسكي Wieslaw Slizewski وفويتشيخ سكالسكي Wojciech Salski وزبيغنيف فيرنير Zbigniew Werner بعنوان «الجيولوجيّون البولنديّون في القارّات الخمس «المنشور في وارسو سنة ٢٠٠٥، وكما لاحظ أندجي ستاشوك Andrzej Stasiuk في كتابه دوكلا Dukla المنشور في مدينة غواديشوف Gladyszow سنة ١٩٩٧، وهو ما لفتَ الانتباه إليه لارس ڤان ترييرLars van Trier في فيلمه «تحطيمًا للأمواج» الذي أُنتج وعرض سنة ١٩٩٦ في الكثير من البلدان في أوروبا وخارجها، وهو ما تحدّث عنه نزار قبّاني في خبز وحشيش وقمر، وكذلك طاهر بن جلون في كتاب ألماني قام مؤلّف بائع الحكايا بترجمته والمنشور عن Zina oder die Nacht des Irrtumus في Rienbeck سنة ٢٠٠٠، وكما أمر المخرج داڤيد لينتش ممثّليه David Lynch في فيلمه Twin Peaks: Fire walk with me المُنتج في فرنسا والولايات المتّحدة الأميركيّة والذي عُرض في غيرها من البلدان الكثيرة سنة ١٩٩٢ والسنوات التي بعده، وهو ما غنّت له فرقة ليدي پانك Lady Pank من كلمات غجيغوج فويتشيخوفسكي Grzegorz Ciechowski والمسجّلة على أسطوانة بعنوان «هم أنفسهم» سنة ١٩٨٩،

وقُدّمت فيما بعد في الكثير من المرّات، وهو الشيء الذي أثبته يوسف بييلافسكي Jozef Bielawski في كتابه «الأدب العربي الكلاسيكي» الصادر في وارسو سنة ١٩٩٥، وكما يذكر جاك بيرك Jaques Beerque على لسان ألبرت حوراني في كتاب بالألمانيّة Der Islam im europaischen Denken الصادر في فرانكفورت Frankfurt سنة ١٩٩٤، والذي قام مؤلّف بائع الحكايا بترجمة هذه المقاطع منه. وما يناقشه الخميني الذي ترجمه Marek Dziekan إلى اللغة البولنديّة في كتاب الرموز العربيّة ـ الإسلاميّة الصادر في وارسو ١٩٩٧، وهو ما لفتَ انتباه يجي كوشينسكي Jerzy Kosinski في كتابه Blind date الذي نقله للبولنديّة توماش ميركوفيتش Tomasz Mirkowicz الصادر في كراكوف سنة ٢٠٠٣، وكما قال الشاعر رافاو فوياتشيك Rafal Wojaczek في ديوانه الشعري الصغير «حملة صليبيّة لم تنته» الصادر في كراكوف سنة ١٩٧٢، الشيء الذي كان يحنُّ إليه Marek Hlasko في «الكلّ أدارَ ظهره» الصادر في وارسو سنة ١٩٩٤، كما تخيّل بورخيس في كتابه Ficciones الذي نقله للبولنديّة Andrzej Sobol Jurczykowski المنشور في وارسو ١٩٧٢، وكما سُحر جان لوك جودار بالألوان في فيلمه «الاحتقار» المُنتج سنة ١٩٦٣ في فرنسا وإيطاليا، والذي تعرضه السينمات في مختلف دول العالم، وما علّم فيديريكو فيلليني في فيلمه

«ثمانية ونصف» والذي شاءت الصدف الغريبة أن يُنتَج في السنة نفسها أي ١٩٦٣ في إيطاليا وفرنسا، والذي لا يزال يُعرض في الكثير من سينمات العالم، الشيء الذي صرخ به المغنّي كاجيك ستاشيفسكي Kazik Staszewski الذي ردَّد وراء أبيه على أسطوانة موسيقيّة بعنوان «والد كاجيك» في وارسو سنة ١٩٩٣، وكما لاحظ ألبير كامو في «الغريب» الذي نقلته للبولنديّة Maria Zenowicz المنشور في وارسو سنة ١٩٥٨، وهو الشيء الذي رأيناه في فيلم المخرج لويس بونويل «سمعان العمودي» المُنتج سنة ١٩٥٩ في المكسيك زهو ما حلّله أنطوان دي سانت ـ إكسوبيري Antoine de Saint-Exupery في كتابه «الحُصن المنيع» الذي نقلته للبولنديّة Aleksandra Oledzka - Frybesowa المنشور في وارسو سنة ١٩٩٩، وكذلك في «الأمير الصغير» في الترجمة البولنديّة لـ Barbara Przybylowska المنشور في وارسو ١٩٩٩، وكما احتجّ Louis Ferdinand Celin في عمله «رحلة إلى نهاية الليل» باللغة البولنديّة بترجمة Oskar Hedemann المنشور في بلدة Izabelin سنة ٢٠٠٥، وهو ما كان يقضّ مضجع الأديبة Zofia Naukowska في كتابها «الحدود» في الطبعة المنشورة في وارسو سنة ٢٠٠٣، وكما وصف Edward Morgan Forster في كتاب «في الطريق إلى الهند» بترجمة كريستينا تارنوفسكا وأندجي كونار إلى اللغة البولنديّة Krystyna Tarnowska وAndrzej Konark المنشور في وارسو سنة

١٩٧٩، والذي خرج بتأثير المدرسة الدادائيّة من قبل Hermann Hesse في «ذئب السهوب» الذي نقلته للبولنديّة غبرييلّا ميتشيلسكا Gabriela Mycielska الصادر في وارسو سنة ٢٠٠٥، وهو ما حذّر منه ناظمٌ حكمت بيير لوتّي Pierre Lotti والذي تُرجم إلى الألمانيّة ونُشر على www.saladins.de ونَقله مؤلّف بائع الحكايا للبولنديّة، وهو ما كان يعذّب جيمس ماتيو باري James Mathew Barrie في «مغامرات بيتر بان» الذي نقله للبولنديّة ماتشي سوومتشينسكي Maciej Slomczynski الصادر في مدينة فروتسواف سنة ١٩٩١، وهو الشيء الذي ندم عليه بيير لوتي Pierre Lotti كما كتبت يوديتا ياماتو Judyta Yamato في جريدة «النادي البولندي» في اليابان في طوكيو سنة ٢٠٠٥، وكما رأى هذا الموضوع غوستاف فلوبير في «تجربة القدّيس أنطونيوس» بترجمة Antoni Lange للبولنديّة والصادر في مدينة لفوف سنة ١٩٠٧، والذي تمثّله رينيه ديكارت في «رسالة في المنهج» التي ترجمتها للبولنديّة Wanda Wojciechowska والصادر في وارسو سنة ١٩٨١، وكما أشار الشيخ النفزاوي على وليّ نعمته في كتاب «الروض العاطر في نزهة الخاطر» وقاله داوود الأنطاكي الذي وردت مقتطفات له في كتاب «المرأة في الإسلام» لـ Walther Wiebeke والذي ترجمته للبولندية Janina Szymanska الصادر في وارسو سنة ١٩٨٢، وكما

ارتجل Mehmed في «كتاب العشق» بترجمة ماوغوجاتا وابينتسكا Malgorzata Labecka الصادر في مدينة فروتسواف سنة ١٩٨٧ وهو ما تأمّله السيّوطي، الذي استُشهِد به في Hinter den Schleiern des islam Erdmute Heller, Hassouny Mosbahi المنشور في ميونيخ سنة ١٩٩٣، وكما جاء في كتاب ألف ليلة وليلة، وكما علّم ابن قيّم الجوزيّة وكما قال زكانيZakani في «فضائل ورذائل فارسيّة» المترجم من قبل زوفيا يوزيفوفيتش ـ نييجفييتسكا -Zofia Jozefowicz Niedzwiecka الصادر في وارسو سنة ١٩٩٩، وهو ما سجّله النويري الذي استُشهِد به في Hinter den Schleiern des islam Erdmute Heller, Hassouny Mosbahi الصادر في ميونيخ سنة ١٩٩٣، وهو ما تخيّله دانتي في ملحمته الشهيرة «الكوميديا الإلٰهيّة» وما وصفه ابن بطّوطة في «تُحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، وما قاله ابن بسّام الذي أورده Heinz Grotzfeld في Das Bad الصادر في Wiesbaden سنة ١٩٧٠ وترجمه للبولنديّة مؤلّف بائع الحكايا، وكما ظنّ الغزالي الذي أورده Uber die Ehe ونقله للغة الألمانيّة Hans Bauer والذي صدر في Halle سنة ١٩١٧ وتُرجم كذلك من قبل مؤلّف بائع الحكايا، وما أثبته ابن عربي في كتابه «الإسرا إلى المقام الأسرى» وهو ما عالجه أبو العلاء المعرّي الذي ترجم مقاطع له ريشارد بيفينسكي Ryszard Piwinski في كتابه

«أساطير العرب» الصادر في وارسو سنة ١٩٨٩. وكما قالت الشاعرة الفارسيّة رابعة من كوزدار في «الديوان الفارسي» الذي أعدّه وترجمه للبولنديّة Wladyslaw Duleba وصدر في كراكوف سنة ١٩٨٠، وكما نصح ابن حزم الأندلسي وهو شابّ في كتابه «طوق الحمامة» والذي قام بترجمته للبولنديّة يانوش دانتسكي Janusz Danecki و Aleksandra Witkowska الصادر في وارسو سنة ١٩٧٦، وما درسه ابن قزمان المنشور باللغة البولنديّة بترجم Janusz Danecki و Aleksandra Witkowska في مجلّة «الآدب العالمي» التي كانت تصدر في وارسو، العدد السادس لسنة ١٩٧٧. وكما كتب حميد الدين الكرماني الذي أورده ريشارد بيفينسكي Ryszard Piwinski في كتابه «أساطير العرب» الصادر في وارسو سنة ١٩٨٩. وكما قال الهمداني في مقاماته التي ترجمها يانوش دانتسكي Janusz Danecki للغة البولنديّة في وارسو سنة ١٩٨٣، وما أورده أبو الفرج الأصفهاني والذي قام بترجمته من الألمانيّة مؤلّف بائع الحكايا وكان قد نُشر في Und der Kalif beschenkte ihn reichlich في مدينة بال وتيبينغا Tybinga سنة ١٩٧٧. كما كتب السلبي في «تاريخ الأنبياء» المنشور في دمشق بدون تاريخ، بترجمة مؤلّف بائع الحكايا والذي أكّده البخاري في مختارات من الأحاديث النبويّة عن الزواج والباءة وحسن الآداب، ترجمتها للغة البولنديّة يولانتا

كوزووفسكا Jolanta Kozlowska والمنشور في وارسو سنة ١٩٩٩، وكما يقول ابن الوشّاش المذكور في كتاب «المرأة في الإسلام» لـ Wiebeke Walther والذي ترجمته للبولنديّةJanina Szymanska الصادر في وارسو سنة ١٩٨٢، وكما رأى طاهر بن أبي طيفور الذي وردت مقتطفات له في كتاب «المرأة في الإسلام» لـ Wiebeke Walther والذي ترجمته للبولنديّة Janina Szymanska الصادر في وارسو سنة ١٩٨٢ والذي ذكره ابن هشام، واستشهد به فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب الذي قام بترجمته فيوتشيخ ديمبسكس، وماريّا سكوراتوفيتش، وإدوارد شيمانسكي Wojciech Dembski, Maria Skuratowicz, Edward Szymanski والمنشور في وارسو سنة ١٩٧٩ والذي أكّده الجاحظ الذي أوردته Krystyna Skarzynska-Bochenska في رسالتها للدكتوراه غير المنشورة والموسومة «آراء الجاحظ في البلاغة والأسلوب» التي أعدّتها سنة ١٩٦٩. وأثاره أبو نواس في قصيدته التي قام بترجمتها للبولنديّة Aleksandra Witkowska وJanusz Danecki والمنشورة في كتاب «الشعر العربي منذ القرن السادس وحتى القرن الثالث عشر» الذي أعدّه Janusz Danecki وصدر في مدينة فروتسواف سنة ١٩٩٧. والذي اقتفى أثره الوليد بن يزيد المترجم للبولنديّة كذلك بفضل Aleksandra Witkowska وJanusz Danecki والمنشورة في

كتاب «الشعر العربي منذ القرن السادس وحتى القرن الثالث عشر» الذي أعدّه Janusz Danecki وصدر في مدينة فروتسواف سنة ١٩٩٧. وهو الشيء الذي نجده في القرآن بترجمة Jozef Bielawski الصادر في وارسو سنة ١٩٨٦ الشيء الذي كان يؤرّق غيلان بن عُقبة المعروف بذي الرُّمة في حنينه والذي ذكره الهمداني في مقاماته التي ترجمها يانوش دانتسكي Janusz Danecki للغة البولنديّة في وارسو سنة ١٩٨٣، والذي أقلق عنترة العبسي الذي قمتُ بترجمته عن الألمانيّة عن كتاب للفرج بعنوان Und der Kalif beschenkte ihn reichlich في مدينة بال وتيبينغا Tybinga سنة ١٩٧٧. وما قاله امرؤ القيس الوارد باللغة البولنديّة بترجمة Janusz Danecki وAleksandra Witkowska في مجلّة «الأدب العالمي» التي كانت تصدر في وارسو، العدد السادس لسنة ١٩٧٧. والذي ذكره القدّيس أوغسطين في «الاعترافات» بترجمة Zygmunt Kubiak إلى البولنديّة والصادرة في وارسو سنة ١٩٧٨. وكما سجّل Theodoret وقد رجعتُ إليه عبر الترجمة الألمانيّة لـ Konstantin Gutberlet تحت عنوان Monchsgeschite الصادر في ميونيخ سنة ١٩٢٦. وما أكّده هسيوس في كتابه «أصل الآلهة» بالترجمة البولنديّة لـ Jerzy Lanowski وارسو ١٩٩٩ وكما جاء في العهد القديم من الكتاب المقدّس بطبعة مدينة بوزنان لسنة ٢٠٠٣ المعروف

باسم الكتاب المقدّس الألفيّ. وكما ذكر الكثير من المجهولين وغيرهم من الأصدقاء والمعارف والمُغنّين والمُغنّيات، الذين لا يمكن على الأغلب معرفة أسمائهم، خاصّة حين تسمعهم وأنت تسير في الطريق. كما يجب أن نذكر هنا الحكايات التي يمكننا قراءتها من لوحات فيتكاتسي Witkacy وجيروم Jean Leon Gerome، وفيليكس فيغجالسكي Felix Wygrzalski، ودمكينيك Jaen August Dominique، وإنغريس Ingres أو الحكايات التي ترويها البنية التي نجهل أسماء معمارييّها الرُّواة نظرًا لأنّ الكثير من المعماريين هم في الوقت نفسه رُواة.

وإذا أُغفل أحدٌ عن غير قصد هنا، فإنّ المؤلّف يتقدّم برجاء الاتّصال به ويعدُ أن يذكره في الطبعات التالية من هذا الكتاب. شكرًا.

افعل هذا بنفسك!

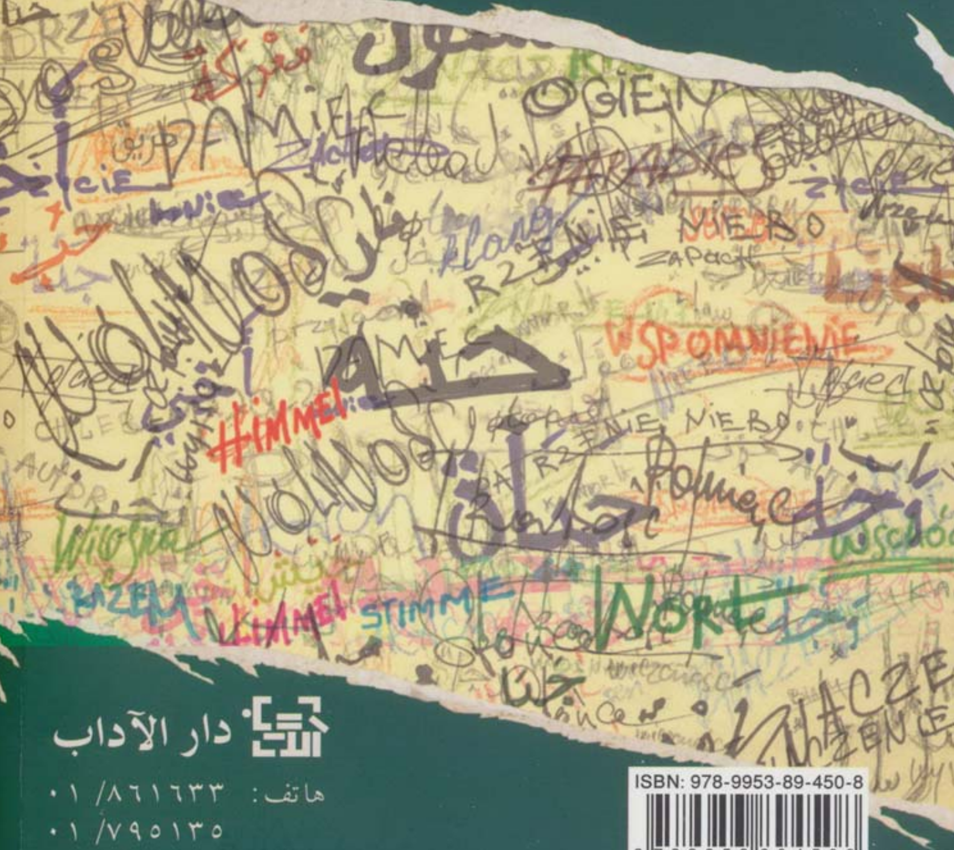
اقرأو إلى أنْ تتذكّروا.

والأفضل أن تفعلوا هذا بصوت عالٍ!

هنا مساحة لأولئك الذين يبدأون من قراءة الصفحة الأخيرة من الكتاب.

بائع الحكايات تروي قصّة فيزيائي شابّ يسافر إلى المشرق العربيّ مع شركة تبحث عن الغاز، فينسحر بالناس والثقافة، ويقرّر البقاء هناك، ويبدأ بالغوص في هذا العالم الغريب الفتّان. يصبح «يان» بطل القصّة "حكواتيًا" فيَحُوك قصّة حبّ خصبة الخيال ويدوّن ذكريات رحلته، ويتحوّل أحيانًا إلى صحفي معاصر يكتب ريبورتاجات، ولا تعرف كيف ومتى تتجاوز حكاياته حدود الواقعيّة: فبائع الحكايات يديرُ لعبةً مشذبة. . .

ستانيسواف ستراسبورغر: أديب من بولندا ينشر تحت اسم «يان سوبارت». وتُنشر كتاباته في لغات عديدة ومنها العربية. يدير مشاريع في مجال الثقافة، والذاكرة التاريخية بين بولندا وألمانيا ولبنان.



دار الآداب
هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت
ISBN: 978-9953-89-450-8
9 789953 894508